من روائع التفسير

للإمام محمد عبد الله دراز رحمه الله

جمع وإعداد

الشيخ أحمد مصطفى فضلية

تقديم

الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله السعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى سابقا

راجعه واعتنى به

د. حمدي الأدهم





من روائع التفسير

للإمام: محمد عبد الله دراز

رحمه الله

جمع وإعداد

الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية

من علماء الأزهر الشريف

تقديم

الأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى سابقًا

راجعه واعتنى به

د/ حمدي الأذهم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خير ما تُفتتح به الأعمالُ، وتُستنجح به المقاصدُ

فاتحةُ الكتاب:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾



إهـــداء

إلى الذين يستمعون القول

فيتَّبِعُونَ أحسنه..

أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولو الألباب..

تصدير الكتاب

هذا الكتاب (من روائع التفسير) للمرحوم فضيلة العلامة الدكتور/ محمد عبد الله دراز ضمن الكتب التي تسلمها المرحوم الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية من بعض ورثة العلامة الشيخ/ دراز، والذي نذر حياته لتحقيق ونشر تراث فضيلة العلامة الشيخ/ محمد عبد الله دراز، غير أن المنية قد وافت الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية قبل إعداده الكتابَ للنشر، تاركًا إياه لدى فضيلة الدكتور/ محمد محمد أبو سيد -الأستاذ بجامعة الأزهر-، والذي عهد فضيلته لي بمراجعته وإعداده للنشر، وقد قمت بأخذ المخطوطة من فضيلته، وإعادة كتابتها مرة أخرى على الحاسوب ومراجعتها ومطابقتها على الأصل، وتم تصحيح بعض الأخطاء الكتابية، والتي لا يخلو منها عمل بشري.

لقد أوضح الشيخ (فضلية) أنه نقل التفسير الموضوعي لسورة البقرة لهذا الكتاب، كي يجمع التراث التفسيري للشيخ دراز في كتاب واحد. ولقد وضع عناوين جانبية للموضوعات لم تكن موجودة بكتاب النبأ العظيم، وأيضا ذكر الشيخ فضلية الآيات نصا، والتي ذكرها العلامة الدكتور دراز كأرقام في كتابه، ولقد شرفت بمقابلة فضيلة الشيخ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد والذي أثنى خيرا على الكتاب ومؤلفه الدكتور دراز وأوصى بالاهتمام بالكتاب وطبعه.

إنني أسجد لله شكرًا أن وفَّقنا لإخراج هذا الكنز من كنوز العلامة فضيلة الدكتور/ دراز إلى النور في وقت أحوج ما تكون الأمة فيه إلى نور يضيء طريقها؛ لتعبر هذه الفتن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

وإنني أتوجه بالشكر لكل من ساهم في إخراج هذا السِّفْر النفيس، سائلاً المولى -سبحانه وتعالى- أن يجعله خالصًا لوجهه، وأن ينفع به صاحبه وجامعه ومراجعه نفعًا موصولاً في الحياة وبعد المات.

وأخيرًا؛ فإن العمل لخدمة كتاب الله شرفٌ لا يدانيه شرف، وإن تدبر كتاب الله هو المرتجى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

أسأل الله -سبحانه- أن ينفع به الأمة، وأن يجعلها كما كانت خيرَ أمة أُخرجت للناس.

اللهم آمين، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ حمدي الأدهم

القاهرة

ذو القعدة ١٤٣٨هـ

الموافق أغسطس ٢٠١٧م

نور من القرآن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].



نور من السنة

• عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن؛ هم أهل الله وخاصته» [رواه النسائي وابن ماجه والحاكم].

• وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلي مائة ركعة» [رواه ابن ماجه].

• وقال النبي ﷺ: «ألا وإني أُوتيت الكتاب ومثله معه، يُوشِك رجلٌ شبعان مُتكِئ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأَحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحَرِّمُوه» رواه أبو داود.

❋ ❋ ❋

من أقوالهم

١ - «من لم يكن له علمٌ وفهمٌ وتدبر؛ لم يدرك من لذة القرآن شيئًا»

[الزركشي، البرهان، ٢ / ١٧١].

٢ - «إني لأعجبُ ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذ بقراءته».

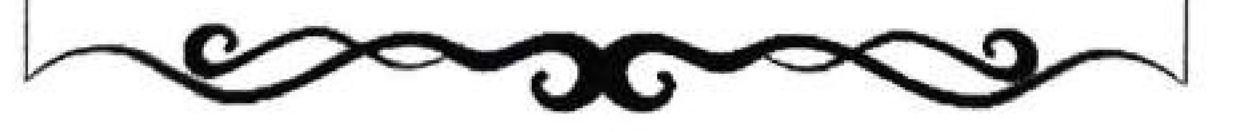
[ابن جرير الطبري، معجم الأدباء، ١٨ / ٦٣].

٣ - «مَن تدبَّر القرآن طالبًا للهدى منه؛ تبيَّن له طريق الحق».

[ابن تيمية، العقيدة الواسطية].

٤ - «الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسّها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يومًا أو بعض يوم، بل إلى أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حولاً، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان».

[د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص١٢١ - ط٩].



تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور

عبد الستار فتح الله سعيد

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنوره تُشرِق الظلمات، والصلاة والسلام على رسوله ورحمته للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنَّ خير الكلام كتاب الله -تعالى-، وخير العلوم ما كان تفسيرًا له وخدمة لعلومه وبيانًا لمقاصده، ودعوةً للإيمان به علمًا وعملاً، يهدي للتي هي أقوم، ويستخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط الله المستقيم الذي يحرز به الإنسان سعادة الدنيا والآخرة.

ولقد سجَّل التاريخ الحديث والمعاصر صحائفه المضيئة لعلماء أعلام أخلصوا دينهم لله، وصدقوا العمل لأمتهم المسلمة، وتفانوا في خدمة تراثها الحضاري، والذَّوْد عن عقيدتها، فأوقفوا أعمارهم في البحث والتنقيب في بطون الكُتب، لخدمة القرآن والسنة تفسيرًا وشرحًا، فسبروا الأغوار واستخرجوا علومًا نافعة خدموا بها دينهم القَيِّم، وأسعفوا بمكنونها روّاد الحقيقة، فسرى صدق حالهم ومقالهم من السطور إلى الصدور.

وكنت أشعر بذلك في نفسي كلما قرأت للدكتور عبد الله دراز، كانت كلماته كأنها موجات روحية نورانية تمتزج بقلبي وعقلي، وتشدني إليها بخيوط غير مرئية، وتثير في نفسي نبضات روحية تسمو بها إلى الملأ الأعلى، وتملأها إيمانًا بجلال الله

وكماله ويقينًا بعظمة شريعته ودينه، وإعجاز كتابه الكريم.

ولهذا كان محمد عبد الله دراز من أعظم العلماء المعاصرين الذين اشتغلوا بهدي القرآن علمًا وعملاً، تفسيرًا وبيانًا، دعوةً وبلاغًا.

فقد كان إمامًا واعيًا، وعالمًا مفكرًا، وداعيًا إلى الله على بصيرة وهداية، وقد استخدم ما رزقه الله من مواهب العلم والعقل في خدمة القرآن الكريم، فكان ممن يلتزمون بالدلالات والمعاني القرآنية للآيات.

وعلى قدر النيات تكون الآثار الباقيات الصالحات.

ومنها هذه الآثار العظيمة التي تركها شيخنا الإمام الجليل، وكانت آثارًا متفرقة في الشرائط الإذاعية، والمقالات المنشورة في مجلات شتى، وبعض الآثار المخطوطة التي استخرجها الشيخ أحمد فضلية، وقام بجمعها بعد رحيل الشيخ بأكثر من نصف قرن؛ لتنتفع بها الأجيال المعاصرة، ومن بعدها إلى يوم الدين، إن شاء الله.

*** في هذا الكتاب «من روائع التفسير» كما أسماه جامعه:**

يضم حقًّا روائع في تفسير الدكتور محمد عبد الله دراز بالإذاعة.

وهو فيما أرى أغلبه يندرج تحت التفسير الإجمالي: الذي يبين فيه المفسِّر خلاصة معنى الآية أو الآيات التي يفسِّرها، ويُبرِز مقاصدها، ويشرح الدقيق من ألفاظها، وسبب نزولها حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول في تفاصيل كثيرة.

وهذا النوع قد سلكه المُحَدِّثُونَ في تقدمة التلاوة بالإذاعة مع رهط من إخوانه العلماء أمثال الشيخ محمود شلتوت، ومحمد المدني، والسنهوري باشا.

والمقصود منه: إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارئ من القرآن الكريم، حتى يكون السامع كاشفًا لمرامي ما يُتْلَى عليه، واعيًا لمقاصده، ملمًّا بأطرافه.

وقد شاع بين أهل العلم، وخاصة دارسي علوم القرآن والتفسير أنَّ الدكتور

محمد عبد الله دراز من أوائل من قالوا بالتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وأرى أن الشيخ كان من أقدر العلماء على تطبيق منهج «الوحدة الموضوعية» للسورة القرآنية.

وقد اتفق العلماء جميعًا على وجود «موضوعات في القرآن» يمكن فرزها، ودراستها بأعيانها كالصلاة، والقسم، والجهاد ونحو ذلك، وكل له آيات تتعلق به مباشرة، واتفق جمهورهم على وجود مناسبة بين الآيات، وعلى هدف للسورة، لكن تحديد ذلك بعينه لا يزال صعب المنال، لذلك يكثر فيه خلاف العلماء، بل بعضهم يَقْصُر ذلك على الآيات المتقاربة المعنى، ويُنْكِر ما عداها «كالعز بن عبد السلام، والشوكاني».

وقد حاول كثيرٌ من العلماء وضع قواعد تَضبط هذا المعنى، ولا يزال ذلك بعيدًا لم يتقرر في خطوط محددة، وكان مِن أبرز مَن حاول ذلك حديثًا الشيخ الفراهي بالهند، والشيخ محمد عبد الله دراز في مصر في كتابه «النبأ العظيم»، وكتابه «مدخل إلى القرآن الكريم».

ولبيان مدى الصعوبة في هذا نجد الدكتور محمد القاسم في كتابه «الإعجاز البياني»: يذكر طريقة الشيخ البقاعي في تقرير وحدة «سورة القرآن»، ثم يذكر طريقة الدكتور دراز في هذا، وهي مخالفة لطريقة البقاعي، ثم ينتقد طريقة الدكتور دراز مع أنها أصحُّ وأوثق من طريقة البقاعي.

ورأيي -والله أعلم- أنَّ هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي؛ لأن موضوعه -وهو «هدف السورة» المتعددة الآيات- أمرٌ التماسي اجتهادي؛ تختلف فيه الأنظار، فكيف تُصنَّف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال، مع أنَّ الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة.



وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد، واضحة المعالم، فإننا نعده في باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي"[١].

فجزى الله الشيخ أحمد فضلية خيرًا على هذا الجهد الطيب، والذي هو شهادة بحفظِ الله -تعالى- لآثار العلماء المخلصين، وما كان لله دام وبقي؛ كما قال علماؤنا من قديم.

فنسأل الله أن ينفع بهذه الصفحات المباركات، وأن يوفِّق طلابنا وباحثينا الكرام لاستخراج كنوز العلماء الراحلين ونشرها بين الناس؛ لتكون قوةً للدعاة والمصلحين في ميادين الحياة والاجتماع، خاصة في هذا الزمان الذي تتكالب فيه قوى الشر على الحق الأبلج.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

والله هو المأمول لنصر دينه ودعوته بآثار السابقين، وأعمال اللاحقين،

وهو الهادي والموفق إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمين.

أستاذ دكتور

عبد الستار فتح الله سعيد

القاهرة في: غرة المحرم ١٤٣٢هـ

---

(١) لمزيد من الاطلاع في هذا الموضوع يراجع كتابنا «مدخل إلى التفسير الموضوعي»، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه.. وبعدُ:

فإنَّ تفسير كتاب الله، ومحاولة شرح آياته البيانات، واستخراج معاني الدرر الكامنة في ألفاظه، لَهي من أشرف المهمات التي فرَّغ لها جهابذة العلماء أنفسَهم، بعد أن استجمعوا الأدوات اللازمة للقيام بهذا العمل المجيد؛ خدمةً لكتاب الله - تعالى-.

فوجدنا العديد من المفسرين الذين أوقفوا أعمارهم على تدبر كتاب الله وتفسيره، فَنَجَمَ عن ذلك ثروة من المؤلفات في علم التفسير، بعضها كان عامًّا، وبعضها نحا به صاحبه إلى طابع معين، مثل أن يقتصر على التفسير اللغوي أو البلاغي أو الفقهي(١).

ولما كانت المكتبةُ الإسلامية زاخرةً بكمٍّ ضخمٍ من كُتب التفسير، فقد آثر بعض العلماء أن يُخرِجوا للأمة تفسيرًا جديدًا يخدِمون به قضايا الحياة المعاصرة؛ لتكون الحياة من القرآن.

هذا التفسير هو التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم(٢).

وكان مِن أقدر العلماء على تقديم هذا اللون من التفسير في بداياته الأولى هو

---

(١) د. أبو بكر سعد عبد الراضي القشيري، العقيدة والأخلاق في فكر محمد عبد الله دراز، أطروحة دكتوراه، مودعة بكلية البنات، جامعة عين شمس.

(٢) لمزيد من الاطلاع على هذا العلم البِكْر طالع: د. عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، طبع دار التوزيع والنشر الإسلامي.



الإمام العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز؛ فقد كان حافظًا فاقهًا لكتاب الله، -رحمه الله- وطيب ثراه.

والإمام محمد عبد الله دراز فيما أراد من تفسير لكتاب الله، لم ينهج النمط التقليدي من شرح للمفردات وذكر لأسباب النزول، بل سلك طريقًا ما أظنُّه فيه كان مسبوقًا؛ هو أقرب إلى بيان مقاصد كل سورة، وربطها بما قبلها وما بعدها من سورة، وذكر الأهداف التي تضمنتها كل سورة، والحكمة التي تكررت فيها لتجعل من كل سورة وحدةً متكاملة وصرةً متجانسة تتجلى في كلِّ آية من آياتها.

وقد تأسَّى به بعض العلماء المعاصرين، كان مِن أبرزهم الشيخ محمد الغزالي في تفسيره «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»[(١)].

يقول الشيخ محمد الغزالي: «لقد عُنيت عنايةً شديدةً بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها، وتأسَّيْت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم - فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه «النبأ العظيم»، وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد»[(٢)].

ويقول في كتاب آخر: «ولولا أن الرجل حافِظ فَاقِهٌ لكتاب الله، وضَليعٌ مَكِينٌ في آداب العربية، وعابدٌ مخبت تكشَّفت أمام بصيرته النيِّرة الحِكَم البالغات التي غابت عن غيره ما استطاع أن يصوِّر لنا هذه المعاني ويجعلها منا رأي العين... وودت لو أن الرجل بقي حتى أكمل ما بدأ، بيد أن المنية عاجلته، فقضى وهو مجاهد في سبيل ربه - طيَّب الله ثراه-»[(٣)].

---

(١) طبع دار الشروق بمصر.

(٢) مقدمة الشيخ الغزالي لكتابه «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، دار الشروق، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).

(٣) انظر «نظرات في القرآن» من ص ١٣٤-١٣٦، دار الكتب الإسلامية، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

ومن كلام شيخنا محمد الغزالي نعلم أن الدكتور محمد عبد الله دراز لم يترك تفسيرًا كاملاً لكتاب الله -القرآن الكريم-، ولكن قدَّم للأمة عبر الإذاعة اللاسلكية في مصر، ولطلاب كليات دار العلوم، واللغة العربية، والبوليس تفسيرًا موضوعيًا لسور من القرآن العظيم.

ولأهمية ما قدَّمه الدكتور دراز من تفسير يبرز موضوعات القرآن لبعض سور القرآن في تقدمة التلاوة كان حرص مجلة الإذاعة أن تقدم هذه النفحات القرآنية على صفحاتها عقب إذاعتها، وقدمت نشر سورة الفاتحة وسورة البقرة بقولها: «في مقدمة الجهود الدينية والفكرية الدائبة التي تقدمها إذاعة القرآن الكريم: سلسلة الأحاديث الدينية المختارة التي تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي للقرآن الكريم تحت عنوان «الحياة مع القرآن».

وقد قدمت «مجلة الإذاعة» حلقات هذا التفسير الموضوعي العصري للقرآن الكريم واستهلتها بنموذج من أرفع نماذج التفسير العصري، وأكثرها عمقًا ودقة وأصالة، حاول من خلاله العالم الجليل محمد عبد الله دراز أن يقدِّم لفاتحة الكتاب ولسورة البقرة من خلال الحلقات الست التي تنبض بفكره الحي، ونظرته الكلية الشاملة.

وللأسف الشديد لم نعثر على تراثه في التفسير كاملاً؛ وذلك لصعوبة العثور على ما بقي منه من إذاعة القرآن الكريم والإذاعة المصرية، والأمل في الله كبيرٌ أن يسمحوا لنا نسخ الشرائط وتفريغها لنشرها؛ ليعم بها النفع، إن شاء الله.

والذي عثرنا عليه هو ما وجدناه مخطوطًا في مكتبة الشيخ ضمن أوراقه الخاصة، وما أفرغناه من شرائط بحوزة نجله المحترم السفير فتحي محمد عبد الله دراز، جزاه الله خيرًا.

ومن التراث التفسير الذي لم نعثر عليه بعد:

١- محاضراته في تفسير سورة النساء لطلاب كلية دار العلوم، وأشار إلى هذه

المحاضرات تلميذه الدكتور عبد الله محمود شحاتة -رحمه الله- في كتابه «المرأة في الإسلام»، وذكر أنه سجَّل في كراسٍ مخطوط ما أملاه الدكتور دراز من تفسير لسورة النساء في محاضراته لطلبة دار العلوم.

٢- تفسير الشيخ لسورة آل عمران، والأنعام، والشعراء، وهود، ويونس، والنور، والفرقان، فقد أشار الشيخ -رحمه الله- في أوراقه الخاصة أنه قام بتفسيرها لطلاب كلية اللغة العربية، ودار العلوم، والبوليس، وأذاع طرفًا منها في تقدمة التلاوة.

وهذا ما جعلني أتريث طويلاً في نشر ما ضمَّه هذا الكتاب من تراث الشيخ في التفسير ريثما يتيسر لي جمع ما بقي، أو ما أستطيع جمعه، لكني قلت في نفسي: إن نشر الموجود وجمع المتفرّق منه في كتاب واحد أكثر صوابًا، مع العزم على متابعة المفقود من تراثه حتى يكتمل الكنز العظيم، وهذا أعون للباحثين -إن شاء الله تعالى-، وأيسر للقراء الطالبين لهذا النوع من التفسير، فرجعت إلى ما عندي من مطبوع ومخطوط وشرائط مسجلة، ومقالات منشورة، فقمت بترتيبها على هذا النحو.

- مدخل تمهيدي عن المؤلف وآثاره في التفسير.
- نظرات في فاتحة الكتاب.
- التفسير الموضوعي لسورة البقرة.
- تقدمة التلاوة للفاتحة وسورة البقرة.
- تفسير آيات مختارة.
- نور من سورة المائدة.
- أنوار من سورة الأنفال، والحجر، والنحل، ويس، وغافر، والقمر، والواقعة.
- تفسير سورة الملك.

- تفسير سورة القلم.
- تفسير سورة النبأ.
- تفسير سورة التكوير.
- ومن وصايا القرآن ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، الذي وجدناه مخطوطًا في أوراق الشيخ.

هذا، وألفتُ نظرَ القراءَ أننا وضعنا التفسير الموضوعي لسورة البقرة في هذا الكتاب، على الرغم أن المؤلف كتبها كنموذج للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في كتابه «النبأ العظيم»؛ ليكون تراثه التفسيري مُجَمَّعًا في كتاب. لذا وجب التنويه.

وآمل أن يكون إصدارُ هذا الكتاب على هذا النحو مُلَبِّيًا لحاجة الباحثين والقراء؛ فنشرُ تراث العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز على أوسع نطاق مطلبُ الأمة المؤمنة بقيمة تراثه الجليل. فنسأل الله أن يتقبل عملنا ويجعله في ميزان حسناتنا.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو الله
أبو عبد الرحمن
أحمد مصطفى فضلية
من علماء الأزهر الشريف
تحريرًا: في غرة المحرم ١٤٣٢هـ
١٣ من ديسمبر ٢٠١٠م

ترجمة الدكتور محمد عبد الله دراز

[١٣١٢هـ - ١٨٩٤م] - [١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م]

١- نسبه:

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حسنين بن مصطفى بن مصطفى بن مصطفى بن أحمد بن محمد بن دراز بن سليمان... بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب[1]، الأديب الباحث المحدث الفقيه المالكي المذهب.

٢- مولده:

وُلِدَ في الثامن من شهر نوفمبر لعام أربعة وتسعين وثمانمائة وألف ٨ / ١١ / ١٨٩٤م بقرية «محلة دياي» من أعمال مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ، وقد اشتهرت القرية بالعلم، وَأَمَّها الطلاب للتزود من علوم اللغة والشريعة؛ حيث كانت الدروس التي يُلقيها جدُّه الشيخ «محمد»، «والشيخ أحمد»، ووالدهما الشيخ حسنين، في المسجد العُمَري، وكان والده الشيخ عبد الله دراز أكثر انتفاعًا بدروس جدّه، وأطول ملازمة له، وبدأ أثر ذلك واضحًا في تربيته لأولاده، وهكذا كان البيت بيت علم توارثوه كابرًا عن كابر، وفي رحاب هذا البيت وُلِدَ الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله-.

٣- نشأته:

نشأ فضيلته في بيت عامر بالتقوى والصلاح، والعلم والعرفان، والسماحة والعطاء، محفوفًا برعاية والده الفاضل الشيخ عبد الله دراز؛ شيخ علماء دمياط،

---

(١) هكذا جاء نسبه في نوتة مخطوطة كتبها وهو طالب بالقسم التاسع من التعليم الأزهري سنة ١٩١١م.

فاقتبس الفتى الناشئ من فضائل والده المروءة والشهامة، وحب العلم والصلاح، وتفتحت عينه على زملاء أبيه يَغْشُونَ منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم والحديث في مسائل الإصلاح الديني.

وكان الوالد العالم المحقِّق يأخذ أبناءه بآداب التقوى، ويَؤُمُّ أهله في صلاتي العشاء والفجر، ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان، ويسهر على تثقيف أولاده وتعويدهم سنن الخير صلاةً وصيامًا وزكاةً، وحبًّا للمعروف، وبُعدًا عن الدنايا، ومثل هذه البيوت العلمية تُمَثِّل نمطًا يكاد يتوارى في زماننا تحت ركام الحياة ومشكلاتها؛ على الرغم من أنها أقوى الوسائل وأنفعها في تكوين الفكر وبناء العقول والقلوب أمام قصور المناهج العلمية والأدبية، وخلوّها مما يقيم أَوَدَ الفكرة، أو يعين على مواجهة تحديات الزمن والحروب القائمة على دين الله؛ كتابًا وسنةً ولغةً. فَمَنْ مِنَ العلماء يجلس مع أبنائه يعلِّمهم كتاب الله وسنة رسوله وتراث أمته؟ ومَنْ منهم يموت فيرث أبناؤه العلم قبل أن يرثوا الدينار والدرهم؟!

٤- تعليمه:

كان من الطبيعي أن يكون لهذه النشأة أثرُها في توجيه الشيخ وجهة التعليم الديني، فأتمَّ حفظ القرآن وهو دون العشر سنين، ثم انتقل إلى الإسكندرية في أوائل ١٩٠٥م؛ حيث التحق بمعهدها الناشئ (في معية المرحوم والده الذي كان وقع عليه اختياره من قبل أستاذه الإمام محمد عبده لتأسيس الدراسة الأزهرية النظامية في الثغر السكندري). فكان الشيخ محمد من أوائل الطلبة المتسبين إلى هذا المعهد، ونال منه الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات ١٩٠٨م.

وحين عُيِّنَ والده وكيلاً لمشيخة معهد طنطا؛ لرغبة أُولِي الأمر في إعادة تلك التجربة الناجحة، ونقل صورة من النظام الذي جُرِّبَ في معهد الإسكندرية إلى الجامع الأحمدي - انتقل الشيخ في صحبة والده إلى الجامع الأحمدي، ونال منه

الشهادة الثانوية عام ١٩١٢م، وكان أول الناجحين.

وحين عاد والده وكيلاً لمشيخة معهد الإسكندرية عاد معه إلى المعهد الذي نشأ فيه فقضى القسم العالي، وحصل في نهايته على شهادة العالمية في الأزهر، وكان أول المتخرجين من الطلاب جميعًا في ١٩١٦م، وعين في المعهد ذاته بعد تخرُّجه، ثم اتجه لتعلُّم اللغة الفرنسية في المدارس الليلية حتى نال شهادة القسم العالي فيها بعد ثلاث سنوات ١٩١٩م، وكان ترتيبه الأول فيها أيضًا، ولقد أفاد من معرفته باللغة الفرنسية في الدفاع عن القضية الوطنية أمام السفارات الأجنبية ١٩١٩م، وفي الدفاع عن الحقائق الإسلامية بالرد على جريدة (الطان) الفرنسية وغيرها على صفحات جريدة وادي النيل.

هذا ولم يكن تعلُّمه للغة الفرنسية من باب الترف، أو شغل الوقت، بل كان يُعِدُّ نفسه لليوم الذي تطأ فيه قدمه أرض الغرب لنشر الإسلام وإعلاء دعوته.

يقول صهره الدكتور السيد محمد بدوي: «لمست عن كثب الجهود والخطط التي رسمها الشيخ منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام في العالم الغربي، فعرفت أنه أتقن الفرنسية إبان طلبه للعلم في الأزهر الشريف استعدادًا لهذا اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني».

٥- رحلته العلمية إلى فرنسا:

في عام ١٩٣٦م اختير محمد عبد الله دراز لبعثة أزهرية إلى فرنسا، وتم اختياره رئيسًا للبعثة لما كان يتمتع به من رجاحة عقل ودماثة خُلُق، وقد وجَّه الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي (١٨٨١م - ١٩٤٥م) خطابًا لأبناء البعثة يذكِّرهم برسالتهم تجاه الإسلام ودعوته، ويبين لهم أنهم ذاهبون في فتح إسلامي، وكان مما قاله -رحمه الله-: «إذا كان رجال السياسة لا يُحجِمُون عن فتح البلدان وسفك الدماء بدعوى تمدين هذه البلدان، فكيف يتوانى رجال الدين عن فتح سلمي لا يُسفك فيه دم،



ولا يُطعن فيه برمح وما هي إلا موعظة حسنة، ونصيحة لله ورسوله، وإرشادًا إلى الفضائل والخير.

أرسلكم الأزهر وهو ينتظر وقلبه يخفق، وأنا واثق من أنكم ستكونون بهديكم بقولكم وأعمالكم وسمتكم أحسن الأمثلة لخريجي الأزهر الشريف، وستكونون بجدكم في تحصيل العلم، وتفهم الأساليب، ومعرفة طرق البحث ودراسة العقليات الغربية من المجاهدين والصابرين»[(١)].

وقد حمل الشيخ الأمانة ووفى بها أعظم وفاء، وما إن وطئت قدمه أرض فرنسا حتى بدأ في تحقيق هدفه، ولم يلجأ إلى التحضير لدرجة الدكتوراه بدايةً -على الرغم من إتقانه الفرنسية-، بل سلك الطريق من بدايته، فالتحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس، ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وبدا أثر ذلك في تكوينه العلمي والفلسفي، مما مكَّنه من الاطلاع على الفلسفة الغربية وتوجيه الخطاب إلى العقلية الغربية[(٢)].

ويذكر الإمام محمد أبو زهرة -رحمه الله-[(٣)] في ثبات دراز على العقيدة والمبدأ أن «الشيخ في رحلته إلى فرنسا أُوتي حظًّا عظيمًا من علم أوروبا، فكان العالم بما عند الأوروبيين، وما طغى في قلبه علم هذه الدنيا على علم الإسلام، ولا تلك الحضارة البراقة على حقيقة الإيمان، وما بهرته زخارف هذه المدنية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية، ولا عن تلك الذخيرة الإنسانية التي اشتملت عليها أحكام القرآن المقررة الثابتة الباقية الخالدة، إلى يوم القيامة.

ولقد فارقنا الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أوروبا كما فارقنا غيره، وأقام في فرنسا ما شاء الله له أن يقيم، وكانت إقامته أكثر من إقامة غيره أمدًا، وكانت أوفر إنتاجًا، فقد

---

(١) انظر كتابنا «رسائل لها تاريخ» تحت الطبع.

(٢) د. السيد محمد بدوي - مقدمته لرسالة «دستور الأخلاق في القرآن» مؤسسة الرسالة.

(٣) عن مقالة بمجلة لواء الإسلام، فبراير سنة ١٩٥٨م.

أقام فيها نحو اثنتي عشرة سنة نال فيها أعلى الدرجات العلمية هنالك.

ولقد عاد بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة المجهدة، وتوقعنا أن نجد تغيرًا في مظهره أو ملبسه أو عاداته، أو تدينه، كما رأينا في بعض مَن أقاموا إقامته، ولكنا وجدناه كما تركنا خُلقًا ودينًا وإيمانًا، فأثبت بذلك سلامة جوهره؛ لأن جيد المعادن تجلوه التجارب وتصقله الحوادث من غير أن يفنى ويبلى. ولقد ازداد استمساكًا بدينه، وتشددًا فيه فزاد بهاءً ونورًا وجلالاً».

٦- شيوخه:

طلب الدكتور محمد عبد الله دراز العلم على عدد وافر من أساطين العلم في الأزهر الشريف، فنهل من علمهم، وارتوى من مَعِين حكمتهم وأدبهم، حتى أصبح له مكانة سامقة بين أساتذته وعلماء عصره.

وشيوخ الدكتور دراز من علماء وأعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي، فتأثر بالإمام محمد عبده أستاذ والده العلامة المحقق الشيخ عبد الله دراز، وهو شيخه الأول الذي أخذ العلم عنه وتأدَّب بأدبه، وتأثر بالعلامة رشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي، وعبد المجيد سليم.

ومن أشهر العلماء الذين تتلمذ على أيديهم تلمذة مباشرة والده الشيخ عبد الله دراز (١٢٩٠هـ - ١٣٥١هـ)، والإمام محمد الخضر حسين (١٨٧٧م - ١٩٥٨م)، والشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ محمود دقيقة، والشيخ علي إدريس، والشيخ محمد شاكر، والشيخ محمد الديناري، والشيخ عبد المجيد اللبان -رحمهم الله جميعًا، ورضي عنهم-.

وهؤلاء العلماء الكبار درس دراز على أيديهم، وتتلمذ في حلقاتهم، ونهل من علمهم وفضلهم، وتأثر بصفاتهم وأخلاقهم وسلوكهم؛ لأنهم كانوا يجمعون بين العلم والعمل، وصدرت منهم المواقف الشجاعة والرجولة الكاملة في الحياة



العلمية والعملية. فاتسموا بالجرأة في الحق والصلابة في الدين، والوقوف عند حدود الله، لا يخافون في الله لومة لائم. فكان محمد عبد الله دراز ثمرةً صالحةً لمربين صالحين. وفكرةً صالحةً لمصلحين مجددين.

٧- وظائفه والأعمال التي اشتغل بها:

- عُين مدرسًا بمعهد الإسكندرية واستمر بها حتى ١٩٢٨م.

- انتقل إلى القاهرة في ١٩٢٨م؛ حيث اختاره المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر للتدريس في القسم العالي بالأزهر، ثم في قسم التخصص عام ١٩٣٩م، ثم في الكليات الأزهرية الناشئة ١٩٣٠م، مع أساتذته الكبار محمد الخضر الحسين، وعلي محفوظ، وإبراهيم الجبالي، ولم يكن محمد عبد الله دراز بأقل منهم كفاءة واقتدارًا على حداثة السن، بل كان أقرب منهم إلى قلوب الطلاب لحسن تواضعه، وقرب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن أمدًا ذا بال[(١)].

- وبعد عودته من باريس إلى مصر عام ١٩٤٨م؛ نُدِبَ لتدريس تاريخ الأديان بكلية الآداب في جامعة القاهرة.

ثم لتدريس التفسير بكلية دار العلوم وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية ومحاضرات في كلية البوليس.

وخلال مُكْثِ فضيلته في مصر أُسْنِدَ إليه العمل في كثير من اللجان، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس بالجامعات، ومن ذلك:

١- العمل في اللجنة السياسية للتعليم بوزارة التربية والتعليم.

٢- العمل في المجلس الأعلى للإذاعة بقرار مجلس الوزراء الصادر في ١٤ / ١٢

---

(١) د. محمد رجب البيومي، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الجزء الخامس، طبعة مجمع البحوث الإسلامية.

/ ١٩٥٥م؛ لعظيم خبرته وصدق نيته في الخدمة العامة، وحسن تعاونه مع دعاة الإصلاح.

٣- العمل في اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر المعمور.

٤- عضوية اللجنة الاستشارية بالأزهر.

٥- مراقبة الامتحانات العامة في الأزهر.

إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلاً لمصر والأزهر الشريف منها:

أ- مؤتمر الأديان العالمي في باريس في سنة ١٩٣٩م.

ب- المؤتمر الدولي للجامعات في مدينة نيس بفرنسا بين ٤ و١٠ ديسمبر ١٩٥٠م، وقدم فضيلته للمؤتمر بحث (الأزهر الجامعة القديمة الحديثة)، باللغة الفرنسية والذي ترجمه فضيلته للعربية بعد ذلك.

جـ- مؤتمر القانون الإسلامي المنعقد بباريس، في شهر يوليو سنة ١٩٥١م. وقدم فيه فضيلته بحثه القيم (الربا في نظر القانون الإسلامي) باللغة الفرنسية، ثم ترجمه للغة العربية بعد ذلك.

د- مؤتمر الثقافة الإسلامية الذي انعقد في لاهور بباكستان في ٦ يناير ١٩٥٨م، وقدم فيه بحثه الممتع (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها)، وشاء الله أن يلقيه غيره حيث وافته المنية أثناء المؤتمر.

٨- صفاته وأخلاقه:

من أبرز صفاته الشخصية: الفطنة والذكاء، والحلم والأناة، التواضع والوداعة والوفاء، والجرأة والصلابة بالحق والإقدام، ومواقفه شهيرة في نشر رسالة الإسلام، والعمل على تبليغها في عالم الغرب.

وعرف فضيلته بلباقته في الحديث، ولين العريكة في المعاملة، وحدبه على مرافقيه، فهو الصديق الوفي عند النوائب، والشهم الشجاع في الملمات، والمخلص المنجد عند الشدائد، ولهذا كان حبيبًا إلى كل من عرفه ورافقه.

يصفه صديقه الحميم الشيخ حسنين محمد مخلوف(١) بقوله:

«أخي، الذي طالما تمتعت بأخوته، فكان مثالاً للأخوة الصادقة التي هي جديرة بكل اعتزاز... والعالم الفذ الذي كان يجمع مع العلم الموثوق به السجايا الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والرجولة الكاملة، والشجاعة الأدبية النادرة...

والإنسان المثالي، الذي كان رقيق العاطفة نبيل الإحساس لطيف الشعور، وكان مثالاً للهدوء في إباء، وللسكينة في تواضع، وللحياء في أدبٍ جمّ.. والمسلم العامل، الذي كان يعمل للإسلام في صمت، ويبذل في سبيله الكثير من وقته وصحته وراحته، غير ضانٍّ ولا متخلف، وحسبه أنه مات غريبًا في سبيل الإسلام، فنال الشهادة التي كان جديرًا بها وأهلاً لها»(٢).

ويصفه تلميذ آخر من تلاميذه الشاعر محمد عبد المقصود الجعفراوي في قصيدة ألقاها بين يدي أستاذه عام ١٩٣٤م في كلية أصول الدين(٣) قال فيها:

أولاك بـالأدب الصـفي كأنـه نضر النعـيم محبـبًا مقبـولاً
أشرقـت في أفـق المكـارم كوكبًـا يهـدي إلى الخُلـق الكـريم سـبيلاً
ودرجـت في مهـد السماحة والنـدى وطلعـت فـذًّا في عـلاك نبـيلا

---

(١) كان الشيخ حسنين مخلوف – رحمه الله – تلميذًا للشيخ عبد الله دراز والد الدكتور دراز، وكان من أصدقاء الشيخ محمد عبد الله دراز المقربين.

(٢) انظر مقدمة الشيخ حسنين مخلوف لكتاب الدكتور دراز «الصوم تربية وجهاد»، طبعة دار القلم بالقاهرة، تحقيق الشيخ أحمد مصطفى فضلية.

(٣) انظر كتاب «محمد عبد الله دراز سيرة وفكر»، للشيخ أحمد مصطفى فضلية، تقديم الدكتور أحمد العسال، طبع مكتبة الإيمان بالعجوزة، القاهرة.

يـا فتيـة الـدين الحنيـف وجنـده ... مـا كـان حظكـم الـوفير قلـيلاً
الله أكـرمكم بأمثـل فاضـل ... جـم الشمائل لا يصيب مثيلا

* ويخاطبه الدكتور أحمد الشرباصي بقوله:

«أفخر بك حيًّا فقد كان لك أخلاق، وهي ألزم الأمور للعلماء ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى وقادة الأنام، كان فيك شمم وإباء وكرامة، قد يكون أمامك المشرب ولكنك تعف عنه لدنس فيه أو ريبة»(١).

* ويصفه المفكر الإسلامي الكبير محمد عبد الله السمان -رحمه الله- بقوله:

«كان عالمًا واسع الأفق، وشجاعًا وافر الشجاعة، كان يمتاز بوفاء العلماء، وجرأة الأبطال، كان الحق في نظره هو الحق، لا تزلزله قوى البغي، ولا جبروت السلطان، ولا سطوة الباطل، ويصفه كذلك بأنه من العلماء الأفذاذ القلائل، الذين توافر لهم بسطة في العلم وقوة في الإيمان، وعزة في النفس، والذين قُدِّر لهم أن يعرفوه عن كثب، يدركون أنه نموذج رفيع لعالم الدين قد لا يتكرر إلا كل حين».

* ولقد تأثر بصفاته وأخلاقه تلاميذه في الأزهر الشريف، فعددوا مناقبه ومآثره وامتدحوا صفاته التي كانت مجالاً صالحًا للاقتداء. فها هو تلميذه عبد الرحمن نجا الأبياري يصفه في قصيدة «تحية الإخلاص» والتي أنشدها بين يدي أستاذه الشاب في ١٧ مايو ١٩٣٤م قال فيها(٢):

يقولـون لي مـا زلـت صبًّا مشببًا ... إذا سمعوني بـالقريض مغـردًا
ومـا بي مـن حـب الغـواني وإنـما ... أحـب كـريم العنصرين محمدًا

---

(١) راجع إن شئت كتاب «محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث» للشيخ أحمد مصطفى فضلية، دار القلم.
(٢) أحمد مصطفى فضلية، محمد عبد الله دراز سيرة وفكر، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الإيمان بالعجوزة، وكلية أصول الدين بالقاهرة.



فتى زانه علم وحلم وفطنة ... وخُلق بريـنا الطهر والنبل والندى

أَبِيٌّ همامٌ نابِه الشأن حازم ... وبدر بآفاق الحنيفة قد بدا

نما فرعه من دوحة ألمعية ... بروض المعالي أصلها قد توطدا

٩- من مواقفه المهمة:

من أظهر ما يستوقفنا في شخصية الدكتور دراز أنه عالم رجل يزين رجولته شجاعة الرأي إلى درجة لم تكن معهودة في عهود الظلم والطغيان والاستبداد السياسي، فكان عالمًا رجلاً جريء الفؤاد، حر الضمير، يجاهر برأيه ويَثْبُت عليه، ولا يخشى بأس متسلط ولا يهاب صولة كبير، فلا يخشى في الله لومة لائم. ونحن لا نرى في مثل هذه الشجاعة في إبداء الرأي والمواقف التي ينتصر فيها للحق تحديًا أو صلفًا، كلا ولكنها صراحة نفس أبية واستقامة ضمير حي، واعتزاز بكرامة العلماء.(١)

ونحن نسجل هنا بعض مواقفه الباسلة التي خلدها التاريخ:

١- قيامه في مقدمة النخبة المختارة من المثقفين للاتصال بالسفارات والقنصليات الأجنبية في ثورة (١٩١٨-١٩١٩م)، وخطابه الحماسي باللغة الفرنسية أمام قنصل فرنسا بالإسكندرية للتنديد بالاحتلال الإنجليزي، والمطالبة برحيله عن مصر.

٢- في فرنسا؛ موقفه في الدفاع عن زملائه المصريين الذين اعتقلهم الألمان، فلم يمنعه ذلك من الاحتجاج ومقابلة الرؤساء العسكريين بنفسه مرارًا حتى أُفرج عن المعتقلين جميعًا.

٣- مناصرته للشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ومساندته الأدبية

---

(١) انظر في هذا الكتاب «رسائل لها تاريخ» قيد الإعداد للطبع، إعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية، وكتابنا «محمد عبد الله دراز .. سيرة وفكر»، طبع مكتبة الإيمان بالعجوزة.

والمعنوية لجمعية علماء الجزائر. ورعايته للمدارس والنوادي الجزائرية في باريس للحفاظ على إسلامية وعروبة الشعب الجزائري. وقد وجّه له الشكر والتقدير الإمام المجاهد عبد الحميد بن باديس(١).

٤- تقدمه إلى رئيس الديوان الملكي في ١٩ يونيو ١٩٥٢م شارحًا له سوء الحالة العامة وتحول القدوة الحسنة التي كانت للملك قديمًا، إلى قدوة غير صالحة، ورجا تصحيح هذه الأوضاع.

٥- ومن المواقف التي سجّلها له التاريخ بإجلال وإكبار ولا يعرفها إلا المقربون منه ذلك الموقف الشجاع الرافض للظلم والجبروت والطغيان الذي رفض فيه التوقيع على بيان أراده الرئيس جمال عبد الناصر يدين فيه الإخوان المسلمين، ويصفهم فيه بأنهم خوارج، وتُستحل دماؤهم، وهنا غضب الرجل وغضبته لله ودين الله وأنصار الله، وقال لمن حمل إليه البيان كما حدثني نجله السفير فتحي دراز: (أتريد مني أن أوقع على إدانة أهل الإسلام؟)، وطرد حامل البيان من منزله.. كان هذا الموقف عقب حادث المنشية الشهير ١٩٥٤م(٢).

٦- رفض عرض ضباط ٢٣ يوليو بواسطة مندوبين منهم:

منصب مشيخة الأزهر، وحسبوا أن الرجل سيسارع بالقبول والتلبية، ولكنهم فوجئوا به يشترط شروطًا لقبول المنصب، ومنها:

١- أن تطلق يده في إصلاح الأزهر.

---

(١) راجع محمد عبد الله دراز، سيرة وفكر، مكتبة الإيمان.

(٢) مقابلة شخصية مع نجل الشيخ السفير فتحي محمد عبد الله دراز – تمت المقابلة بمنزله.
وانظر مقدمة تلميذه الدكتور يوسف القرضاوي لكتاب «زاد المسلم للدين والحياة»، جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية – نشر دار القلم بالقاهرة.

٢- أن تعيد الحكومة للأزهر أوقافه التي سُلبت منه

٣- أن يكون شيخ الأزهر بالانتخاب الحرّ من هيئة كبار العلماء.

٤- أن ترفع الدولة يدها عن الأزهر.

فخرجوا من عنده ولم يعودوا إليه؛ إنهم لا يريدون من يشترط عليهم شرطًا، بل من يقبل بلا قيد ولا شرط، ويقدم إليهم الحمد والشكر.

ولم يكن هذا شأن الشيخ الذي يرى في المنصب تكليفًا لا تشريفًا، وفرصة للإصلاح والبناء، لا للظهور والأضواء[1].

٧- وفي مجال الصِّيال الفكري وتصارُع الأفكار كان له مواقف مشهودة في محاربة الإلحاد، وترسيخ عقائد الإيمان، والحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي، وإصلاح التعليم والأزهر، والمحافظة على تحفيظ القرآن، وحركة التجديد الإسلامي وترشيده لها، ودعاة التشكيك والبلبلة وردوده المفحمة، وإلزامهم جحورهم على نحو ما فصَّلنا في كتابنا الجامع عن سيرته.

٨- وفي المجال الوطني فحَدِّث ولا حرج داخل مصر وخارجها، فمواقفه داعمة لحق شعوب الإسلام في التحرير والتحرر والحرية، فندَّد بفظائع الطليان في ليبيا، وشارك في ثورة ١٩١٩م، ووقوفه إلى جانب الجاليات الإسلامية في باريس، وفي مصر كان له موقف متوازن مع حركة يوليو

---

(١) راجع صدى وفاته: مجلة رسالة الباكستان - العدد ١٩١ - السنة التاسعة، ومجلة الصداقة العدد ٢٨٥ السنة السادسة، والصحافة المصرية «الأهرام» ٨ / ١ / ١٩٥٨م، ١٠ / ١ / ١٩٥٨، ١٣ / ١ / ١٩٥٨م، وجريدة الشعب ١٠ / ١٠ / ١٩٥٨، والجمهورية ٨ / ١ / ١٩٥٨، والمساء ٨ / ١ / ١٩٥٨م، وجريدة المساء ٨ / ١ / ١٩٥٨م، وجريدة الأخبار ١٠ / ١ / ١٩٥٨م، ومجلات الإذاعة، والتقوى، ولواء الإسلام، والإسلام، والأزهر، ومنبر الإسلام، والهدي النبوي، وغيرها من المجلات الذائعة لوقتها.

١٩٥٢م بمحاولة ترشيدها وإلزامها النهج الإسلامي، ورفض إقالة الرئيس محمد نجيب وتحديد إقامته، وطالب بالعدل والإنصاف في التعامل مع خصوم الثورة، ووقف ضد ظلم الإخوان المسلمين، ورفض العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م. فعاش وطنيًا إسلاميًا.

يقول كلمة الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم مما بيناه بإفاضة في تناولنا لسيرته.

وفاته(١):

استمر الدكتور محمد عبد الله دراز في نشاطاته الإسلامية المختلفة عاملاً، وباهتماماته في معالجة شؤون الدعوة الإسلامية منصرفًا حتى وافاه الأجل المحتوم ملبيًا دعوة ربه ليأنس بجواره ورضوانه عشية يوم الاثنين السادس عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٧٧م عندما كان في لاهور في باكستان ممثلاً لمصر في مؤتمر الثقافة الإسلامية، فتناقلت وكالات الأنباء نبأ وفاته، وأذاعت محطات الإذاعة نَعْيَهُ في جميع أنحاء العالم، فبكاه الأزهر أحَرَّ بكاء، وافتقد العالم الإسلامي عالمًا كبيرًا وخسره العلم والأدب مؤلفًا وكاتبًا فذًا عليمًا، وخسرته الإذاعة مُحَدِّثًا لَبِقًا بليغًا وإنسانًا حكيمًا نبيلاً.

وكانت وفاته حدثًا مؤلمًا عكَّر صفو جلسات المؤتمر الإسلامي بلاهور، وأذاع الحزن والألم في نفوس جميع أعضائه.

وكانت وفاته مفاجئة، وكان لها وَقْعٌ أليم في نفوس الجميع، فقد كان -رحمه الله- في كمال الصحة والعافية يشيع في جوّ المؤتمر من روحه السمحة وخُلقه الكريم الكثير من البِشْر والحيوية والنشاط، وكان لا يترك مناسبة واحدة دون أن يكون له فيها فكر ثاقب، ورأي راجح، وتعقيب سديد، حتى يوم العطلة الرسمية، كان

---

(١) نقلاً عن مقال للإمام محمد أبو زهرة، وكان مع الشيخ لحظة الوفاة، نشر بمجلة لواء الإسلام، عدد يناير ١٩٥٨م.

يذهب فيه إلى المؤتمر ويشارك في أعمال لجانه المختلفة.

وقد اختير بين شيوخ الإسلام جميعًا كي يفتتح جلسات المؤتمر بتلاوة آيات الذكر الحكيم.

إن الرجل المؤمن حين فاجأته الأزمة القلبية كانت آخر كلماته «يا رب إن كنت راضيًا عني لا أبالي»[(١)].

هذه الكلمات القصار التي ردَّدها الرجل في لحظاته الأخيرة تبرهن على إيمانه العميق بالله ورضائه من كل قلبه بقضائه وقدره.

وتدلنا على فهمه حق الفهم للحياة، وما تأتي به من نعيم وبؤس، وقدرته على أن ينظر من كل حدث إلى ما فيه من خير ونعمة، وبذلك يكون قرير العين راضي النفس، أحب لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه[(٢)].

وإذا كان الدكتور محمد عبد الله دراز قد مات باعتباره جسدًا فانيًا، فإنه لم يمت باعتباره مثلاً حيًّا وروحًا باقية يرى الناس آثاره، وينسجون على منواله.

فلا يجوز أن نقول مقالة الشاعر المتشائم:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ولكن نقول مقالة الشاعر المتفائل:

إذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول بما قال الكرام فَعُول

بل نقول قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ

---

(١) لمزيد من الاطلاع، انظر كتابنا «محمد عبد الله دراز سيرة وفكر»، طبع مكتبة الإيمان بالعجوزة، وجامعة الأزهر بالدراسة، كلية أصول الدين، أمام مدرج الإمام عبد الحليم محمود، رحمه الله.

(٢) لمزيد من الاطلاع على مكانة الشيخ عند علماء وكتاب عصره، انظر كتابنا «محمد عبد الله دراز سيرة وفكر»، فصل «وفاته ورثاؤه وثناء العلماء عليه».

فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٣]

فسلامٌ على الإمام المجدد محمد عبد الله دراز في عليين. جزاءَ ما قدَّم للإسلام من فكر مستنير وعلم نافع إلى أن لقي الله رب العالمين.

* * *

قالوا عن محمد عبد الله دراز:

١- «أستاذٌ جليل من السلف الصالح، كرَّس حياته للدرس والتدريس، وجمع -في توازن عجيب- بين الدين ومعارف الدنيا، واستطاع أن يجمع هذه العلوم والمعارف في ذهنه الجبار وعقله المتفتح المستنير، ويخرجها لنا مصفاة من الشوائب، محلاة بذلك الأسلوب الرصين الذي يبرز الفكرة في سهولة ويُسْر، فتأخذ طريقها إلى العقول والأفئدة».

أ. د. السيد محمد بدوي- أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية.

٢- «هذا رجل من الأزهر، فيه أصالة المؤمن، وثقافة المسلم، والقدرة البيانية العربية الفائقة، استطاع أن يقتحم آفاق الفكر الغربي ويدرس اللغة الفرنسية ويكتب بها رسائله التي يناقش فيها أساطين الفلاسفة الغربيين في نظرياتهم وقضاياهم، كاشفًا عن وجه الحقيقة بين بيان الإسلام الناصع ووجهته الصادقة، وبين ما تحمل هذه النظريات والمذاهب من قصور والتواء، لما يجعلها غير صالحة للفطرة الإنسانية في عصر العلم، ليس للمسلمين وحدهم بل للبشرية كلها، وقوامه في هذا كله فهم عميق للقرآن، وتدبر عجيب له، وقدرة على تبليغه بأصفى لغة، ولتقديم الأمثلة إلى العقل الغربي في تمكن عجيب».

الأستاذ/ أنور الجندي- الكاتب والمؤرخ الإسلامي.

٣- «دافع عن الإسلام والأزهر والعلماء بإخلاص ويقين وثبات مكين».

أ. د. رءوف شلبي، وكيل الأزهر -رحمه الله- مقدمة كتاب «آلهة في الأسواق».

٤- «كان عالمًا ورعًا من علماء الأزهر الشريف، وكان يتمتع بجانب علمه الفياض بروح شفافة ونفس ملهمة، وبصيرة نافذة، كان عالمًا ورعًا تقيًّا، سافر إلى باريس، وحصل على درجة الدكتوراه، ولكنه كان من الأزهريين القلائل

الذين اعتزوا بزيهم الأزهري وسمتهم الأخلاقي الإسلامي، فعاد كما ذهب، لم تستطع الحياة في باريس أن تجذبه إليها أو تخدعه بمظهرها، وإن كان قد ازداد علمًا وإيمانًا، وتمسكًا بالإسلام الحنيف لأنه الحق المبين»[١].

الشيخ / صالح عشماوي – شيخ الصحافة الإسلامية في العصر الحديث ورئيس تحرير مجلة الدعوة.

٥- «الأخ / محمد عبد الله دراز... الذي لم أرَ له ضريبًا فيمن عرفت من العلماء.. وقد عرفت الكثير.. رجل جمع بين غزارة العلم وعمق البحث، وصفاء التفكير، وبين الاتزان في كل شيء من شؤون حياته. كان -رحمه الله- شديد الحياء حتى من تلاميذه، رقيق الطبع، حلو الحديث، خفيض الصوت، شديد الخوف من ربه والحذر مما لا يرضيه، والنفور مما تكرهه المروءة»[٢].

الشيخ عبد الجليل عيسى، شيخ كلية أصول الدين.

٦- «لقد جمع الكثير من المتكلمين عن الفكرة الإسلامية في القديم والحديث بين معرفة دينهم وبين معرفة علوم الآخرين، فأعطاهم ذلك إمكانيات عالية في تناول أفكارهم عن الإسلام وعرضها، ومن هؤلاء الدكتور محمد عبد الله دراز صاحب الدراسات العميقة في جامعة فرنسا وغيرها»[٣].

أ/ عبد الحليم أبو شقة.

٧- «يمثل الاتزان المتزن والخُلق الكريم، ثقَّف نفسه كأحسن ما تكون الثقافة، آراؤه موفقة، يتدفق أسلوبه في البيان عذبًا شهيًّا لا يمل»[٤].

الإمام الراحل الدكتور/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق.

---

(١) مقدمة لكتاب «وثيابك فطهر»، طبعة دار الأنصار.

(٢) جريدة الشعب ١٠ / ١ / ١٩٥٨م.

(٣) عن كتابه «فقد العقل المسلم» دار القلم بالقاهرة.

(٤) عن كتابه «الحمد لله هذه حياتي»، دار المعارف.

٨- «عرفته كلية الآداب وكلية دار العلوم أستاذًا ممتازًا يبهر تلاميذه بغزارة علمه، ويسحرهم بجمال أسلوبه، ويغمرهم بما منَّ الله به عليه من أدب رفيع، وأخلاق عالية، ونصائح غالية، لقد كان -رحمه الله- مثلاً صالحًا عجيبًا في كل طور من أطوار حياته»[١].

الشيخ/ عبد الرحيم فودة.

٩- «الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله- ممن يلتزم النصوص الشرعية التزامًا دقيقًا، ويرجع إلى الكتاب والسنة مستدلاً بالمعاني القريبة لألفاظهما، وربما كان له اجتهاد في فهم النصوص المتعلقة بقضايا الحياة المعاصرة، ولكنه فهم دقيق قائم على الوعي التام، وعدم مخالفة أئمة العلماء في هذا التفسير».

أ. د/ عبد الستار فتح الله سعيد -الأستاذ بجامعة الأزهر وأم القرى.

١٠- «إن المحنة التي يمر بها الإعلام في المرحلة الراهنة، والتي لا تَصُبُّ في مصلحة الإسلام والمسلمين؛ حيث يجري تلميع غير المستحقين والتعتيم على الأعلام الكبار الذين قدَّموا علمهم وجهدهم وحياتهم خدمةً للإسلام، والدكتور محمد عبد الله دراز قد ناله شيء غير قليل من هذا التعتيم رغم جهاده العلمي وعطائه الفكري الكبير؛ حيث اختار الطريق الصعب، وسار في حياته العلمية في مجاهيل وطرق وَعِرَة ما خطا فيها أزهري قبله خطوة واحدة».

أ. د/ عبد العظيم المطعني -الأستاذ بجامعة الأزهر.

١١- «نبتهل إلى الله ضارعين أن يجزي هذا الإمام الجليل جزاء المجاهدين العاملين والأتقياء المقربين، فقد كان -رحمه الله- في كل ما كتب كأنما ينظر بنور الله»[٢].

أ. د/ عبد الغني محمد سعد بركة.

---

(١) عن مقالة بجريدة الشعب ١٠/ ١/ ١٩٥٨م.
(٢) نقلاً عن كتاب الإعجاز القرآني ووجوهه.. وأسراره (ص ٢٩٦) مكتبة وهبة.

١٢- «هذا الرجل الذي احتوته المنون في سنٍّ مبكرة. ولكن كتبه تنبئ عن عالم شامخ في العلم والمعرفة ولاسيما في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن)»[١].

عبد القادر أحمد عطا - المحقق الإسلامي المعروف.

١٣- «هو عَلَم شامخ من أعلام النهضة الإسلامية في مصر في القرن العشرين وقمة شاهقة بين علماء الفكر الديني والإسلامي.. ومتبحر عميق الأغوار في الثقافات الإنسانية والعالمية في العالم»[٢].

الشيخ / عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - وزير الشؤون الدينية بقطر.

١٤- «ولا أنسى كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز الذي تناول سورة البقرة، بعد أن مهَّد بالحديث عن القرآن، فكان هذا الكتاب فتحًا، ولا أظن عالمًا معاصرًا بلغ شأوه، والأجل لم يمهله ليستكمل هذا المنهج، ويغطي كل سور القرآن الكريم»[٣].

الشيخ عبد المعز خطاب.

١٥- «عرفته عالمًا ورعًا تقيًّا وإمامًا من أكبر أئمة الدين وقادة الفكر، قضى حياته مجاهدًا بقلمه ولسانه في سبيل نصرة الإسلام، واستشهد في حومة جهاده المجيد».

أ. د / علي عبد الواحد وافي.

١٦- «... إنه المثل الكامل، للعالم العامل، الذي أَمَدَّه الله بالعلم النافع، وتَوَّجه بالخلق الكريم، وجَمَّلَه بالأدب الوفير.. كان نفاعًا للعلم بأحاديثه الممتعة القيمة، كان جماعًا للقلوب، بعيدًا عن مواطن العيوب، جاهَد في سبيل ربِّه،

---

(١) عن مقدمته لكتاب «المختار من كنوز السنة».

(٢) عن مقدمته لكتاب «فتاوى المسلم» للشيخ الشعراوي.

(٣) عن مقدمة كتاب «تأملات ونظرات في سور القرآن» ١٩٩١م - ١٩٩٢م، مطبعة دار التأليف.



وأخلص لله في عمله، فعرف الناس قدره، وشهدوا جميعًا بفضله».

كامل محمد حسن، وكيل كلية اللغة العربية ١٩٥٨م.

١٧ - «من أرباب القلم والفكر، واسع الثقافة، غزير العلم، تمتاز عباراته بالنفاذ والسيطرة، وتتمتع ببلاغة الإيجاز، وغزارة الدلالة»[١].

أ.د/ محمد أبو الأنوار - أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم.

١٨ - «عالم تقي عميق النظرة، صادق الإيمان، ثَبْت في علمه، قَوِيّ في تدينه، آتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام، فكان فيها العَلَم الذي يُشَار إليه، وأُوتِيَ مثل هذا الحظِّ من علم أوروبا، فكان العالم بما عند الأوروبيين، وما طغى في قلبه علم هذه الدنيا على علم الإسلام، ولا تلك الحضارة البراقة على حقيقة الإيمان، وما بَهَرَته زخارف هذه المدنية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية، ولا عن تلك الذخيرة الإنسانية التي اشتملت عليها أحكام القرآن المقرَّرة الثابتة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة»[٢].

الإمام الفقيه / محمد أبو زهرة.

١٩ - «الرجل كان طرازًا خاصًّا من المفكرين؛ حيث لم يكتب غير الجديد الطريف الذي لم يسمع به القارئ من قبل مهما تنوعت ثقافته واتسع إدراكه. لقد كان يقدر تبعة القلم تقدير العالم الطامح المشرئب للكمال، فهو لا يدرس غير المفيد النافع، ولا يؤلف في غير المجهول الذي تتطلع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته.

لقد كان الدكتور دراز عالمًا ممتازًا عرفه الناس بتفرده العلمي مؤلفًا ومحاضرًا وأستاذًا كما عرفوه بإيمانه القوي مسلمًا رقيق العاطفة قوي اليقين»[٣].

أ.د/ محمد رجب البيومي - رئيس تحرير مجلة الأزهر.

---

(١) مقابلة شخصية تمت بمكتب د. كمال علي بشر، دار العلوم.

(٢) عن مقالة بمجلة لواء الإسلام.

(٣) عن كتابه «النهضة الإسلامية» (ص ٥)، ط مجمع البحوث.

٢٠- «لقد كان الدكتور محمد عبد الله دراز إمامًا فريدًا في علمه وثقافته وخلقه واجتهاده، لقد عرفه الناس في تفسير القرآن المجيد من خلال برنامج تقدمة التلاوة في الإذاعة، فكان مجددًا في ربط الآيات والسور بعضها ببعض، واستنباط دقائق الفكر، وكنا ونحن طلاب نتلهف على سماع أحاديثه في هذا المجال مع صحبة من أقرانه. على رأسهم الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمود شلتوت، رحمه الله.

أ. د / محمد سيد أحمد المسير - الأستاذ بكلية أصول الدين - القاهرة.

٢١- رجل يفيض كما يفيض البحر مـ	**ـن علم العليم، وحكمة الحكماء**
يلقاك في بشر الكريم ولطفه	**مستقبلاً بسماحة السمحاء**
خلق أرق من النسيم لطافة	**وتواضع في عزة وإباء**
ما كان في يوم يذل العلم بـ	**ـزلفى لذي جاه ولا برياء**
يفني على الكتاب وسنة الـ	**ـهادي ونهج أئمة الفقهاء**
خدم الحنيفة خدمة مشكورة	**في المشرقين فحاز خير ثناء**
يا رافعًا للدين راية مجده	**خفاقة في سائر الأجواء**
فلقد دفعت عن الحنيف خصومه	**وفزعتهم بالحجة الغراء**
سيخلد التاريخ ذكرك عاطرًا	**مثل الأريج يفوح في الأرجاء[1]**

الشيخ/ محمد سليمان بدير - الأستاذ بكلية أصول الدين.

٢٢- من العلماء الأفذاذ القلائل، الذين توافر لهم بسطة في العلم، وقوة في الإيمان، وعزة في النفس، والذين قدّر لهم أن يعرفوه عن كتب يدركون أن المغفور له الدكتور دراز نموذج رفيع لعالم الدين، قد لا يتكرر إلا كل حين، إنَّ مثل هذا العالم الجليل يحترم نفسه، ويعتز بعلمه، ويعرف مقام قلمه. وهو من أساتذة

---

(١) عن مجلة الأزهر.

هذا الجيل، ومن الكُتَّاب الإسلاميين القلائل الذين لهم عقيدة صادقة فيما يكتبون، وفيما يقولون، وفيهم رجولة تجعلهم لا يكتبون ولا يقولون إلا ما يعتقدون بعيدًا عن مزالق التزلف ومدارج الرياء.

كان عالمًا واسع الأفق، وشجاعًا وافر الشجاعة، كان يمتاز بوقار العلماء، وجرأة الأبطال، كان الحق في نظره هو الحق لا تزلزله قوى البغي، ولا جبروت السلطان، ولا سطوة الباطل. وكان الإسلام في نظره هو الدين الذي يجب أن يهيمن على حياة المسلمين وشؤونهم في كل زوايا الحياة.

كان عالمًا غيورًا على الإسلام وقضايا المسلمين، ولكنَّ المنية عاجلته ففقد العالم الإسلامي عالمًا دينيًا رجلاً... وما أقل العلماء الرجال.

أ/ محمد عبد الله السمان - الكاتب والناقد الإسلامي الحر.

٢٣- «من الشخصيات الخالدة في تاريخ الأزهر الحديث، كان عالمًا وأستاذًا كبيرًا، رجل إصلاح معروف في أوساط الناس، وكان رجل دين يتكلم بالكلمة من وراء الكلمة الضمير الحي، والعقيدة القوية، والفكرة الصادقة.

وكان دائمًا مرفوع القامة طويل الهامة، لا يحني رأسه لأيِّ غرض من أغراض الحياة، وكان معتزًّا بمكانة الأزهر، وبمكانة الأزهر في المجتمع، وكان بحق عالمًا ضليعًا وشيخًا جليلاً يعتز به الأزهر الحديث، ويعتز به طلابه يعتز به الأساتذة زملاؤه اعتزازًا كبيرًا»[(١)].

أ. د / محمد عبد المنعم خفاجي.

٢٤- الدكتور محمد عبد الله دراز الرجل الأمين، والعالم الباحث أعجبني فيه نفاذ النظرة وجِلاء البصيرة، وعمق التحليل، وسلامة العرض.

أ. د / محمد فتحي عثمان.

---

(١) عن برنامج في ذكرى وفاة الدكتور دراز، تقديم محمد عوض.

٢٥- «لولا أن الرجل حافِظ فاقِه لكتاب الله. وضليع مكين في آداب العربية، وعابد مُخبِت تكشفت أمام بصيرته النَّيرة الحِكَم البالغات التي غابت عن غيره ما استطاع أن يصور لنا خصائص الإعجاز القرآني ويجعلها منا رأي العين...»[١].

الشيخ/ محمد الغزالي

٢٦- في حياة هذا العالم مواطن للعبرة، يحسن بنا أن نقف عندها، ونقدمها للشباب المسلم في كل مكان، فأول ما يفاجؤك في هذه الشخصية هذا التزاوج الفذّ، والتلاقح الغني بين ثقافتين متباينتين، عادت نتيجته بالخير العميم على الثقافة الإسلامية.

الأستاذ الشيخ/ منصور الأحمد - مجلة البيان - ربيع الثاني ١٤٠٧هـ.

٢٧- «كان الدكتور محمد عبد الله دراز نموذجًا رفيعًا للعالم المسلم في سلوكه وتواضعه وخُلقه وسَمته، ثم في منطقه العذب، وقوة حجته، ولا ننسى أن منطقه الساحر قد هزَّ كتائبنا وزودها بالروح المعنوية العالية أثناء العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م، وصوته يجلجل كل صباح في حديث الصباح. ثم وهو يتحدث عن واجب المسلمين بعد الجلاء وتحذيرهم مما يتوقعه من مكائد الأعداء مما تحقَّق بعد ذلك في مؤامرة الانفصال وغير ذلك. كنت أعتقد أن تحتفل الإذاعة، ويحتفل التلفزيون بذكرى رجل من هذا الطراز؛ لأن في استعادة سيرته دفعًا للروح الوثابة في نفوس الشباب وغير الشباب»[٢].

الأستاذ/ ناصف سليم.

٢٨- «كان نسيجًا وحده في غزارة علمه وأصالة تفكيره وفصاحة بيانه، وقوة إيمانه وخُلقه»[٣].

د/ يوسف القرضاوي.

---

(١) عن كتابه «نظرات في القرآن» دار الكتب الإسلامية.
(٢) جريدة الجمهورية ١٤ أبريل ١٩٦٧م.
(٣) عن ديوانه «نفحات ولفحات» - دار الوفاء.

٢٩- من الدعاة المربين في الحركة الإسلامية الراشدة، فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، ذُكر أمامه الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله- في لقاء مع شباب الصحوة فقال عنه:

«رحم الله العالم الرجل الذي نشر أخلاق الإسلام في ذاته قبل أن ينشرها في كتبه».

الشيخ/ عبد المعز عبد الستار.

٣٠- «إن شخصية في حجم الشيخ محمد عبد الله دراز لجديرةٌ بالدراسة المتأنية المتدبرة؛ حيث إنه كان من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث برؤيته المستنيرة الواضحة وفكره المستقيم المرن»(١).

أ. د/ علي جمعة -مفتي الجمهورية.

٣١- «من رجال الأزهر العظام الدكتور محمد عبد الله دراز الذي يُعَدُّ من أعلم علماء الأزهر على الإطلاق»(٢).

الإمام الأكبر -أ. د/ أحمد محمد الطيب -شيخ الأزهر الشريف.

***

(١) جريدة الأهرام، الاثنين ٤ مايو ٢٠٠٩م.

(٢) في أول حديث تلفازي فور توليه مشيخة الأزهر الشريف.



مدخل تمهيدي

عن المؤلف وآثاره في التفسير

١ - عالم بالقرآن.

٢ - تفسيره ثمرة للتأمل والتدبر.

٣ - مدرسة الدكتور دراز في التفسير.

٤ - منهج الدكتور دراز في التفسير.

٥ - أسلوب الدكتور دراز في تفسيره.

٦ - جولة في تفسيره.

١- عالم بالقرآن

من هؤلاء العلماء الذين عاشوا بالقرآن وللقرآن ينشرون أنواره في كل ميدان واتجاه بحكمةٍ وعلم وحُسن فهم لكتاب الله، العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز.

ولا شك أن ما قدمه الدكتور دراز في تفسير لبعض سور القرآن العظيم يغذي العقل، ويزكي النفس، وينير القلب، ويصحح العقائد، ويربي الضمائر، ويهذب الأخلاق، ويُقَوِّم السلوك، ويدلنا على أسباب السكينة والسعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة.

لقد عاش العلامة دراز يقدم للبشرية عطاء القرآن، وينير به دروب الحياة. ويُعَمِّق الإيمان به منهج هداية للإنسانية. ومشعل نور أضاء لها الطريق للتي هي أقوم، فأخرجها من الظلمات إلى النور، وأخذ بأيديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وكان نقطة تحول في تاريخها الطويل وانتقل بها من حياة الإثم والفساد والضلال إلى حياة الخير والحق والرشاد، وأحدث في العالم كله من القيم والمفاهيم والمعايير ما صعد بالإنسانية من دركها الأسفل إلى أبهج صورها، وأسمى كمالاتها.

كان محمد عبد الله دراز يريد أن تعود البشرية إلى العيش في رحاب القرآن تهتدي بهداه، وتتعلم منه العقيدة في الله، تتأدب بأخلاقه وتحيا وفق شرائعه وتعاليمه السامية فقدَّم (دستور الأخلاق في القرآن)، وقبله (مدخل إلى القرآن الكريم)، ودُرَّته الباقية على مر الزمان (النبأ العظيم)، وكل مَن قرأ هذه الآثار القرآنية، يتعمق إيمانه وتتأسس عقيدته. فالهدايات والمعاني التي تضمَّنها القرآن العظيم لا يمكن معرفتها إلا بواسطة التفسير لنصوص القرآن وآياته، والتفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى، ومعرفة هذا المراد من خلال كلماته في هذا القرآن على قدر الطاقة البشرية.

وقد حرصت آياته على النظر فيه والتأمل فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]

***

٢- تفسيره ثمرة للتأمل والتدبر

وما تفسيره إلا نتيجة للتأمل والتدبر.

وبهذا الإيمان عاش الدكتور دراز حياته مؤمنًا مفكرًا، وقد وَرث عن والده العلامة الشيخ عبد الله دراز شَغَفه بكتاب الله، فأخذ عنه شرف التلاوة لستة أجزاء منه كل يوم. ولم يتخلف يومًا قط عن هذه العبادة الجليلة حتى في أصعب الأوقات التي عاشها في الحرب العالمية الثانية بباريس فكان لا يُرى إلا تاليًا للقرآن.

يقول الدكتور محمد رجب البيومي:

«وقراءة مفكِّر مثله لهذا الجزء اليومي لابد أن تَفتح عليه بما يضيء بصيرته، ويمده بأوفر الزاد الشهي».

لذلك جاء إيمان الأستاذ دراز بالقرآن العظيم أن الله فضَّلنا به على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يُؤْتِ أحدًا من العالمين؛ أنزله الله هدايةً عالمية دائمة، وجعله للشرائع السماوية خاتمة، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة. وجعله خُلق رسوله ومصطفاه ووصيته وميراثه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

هذا هو القرآن في حياة الأستاذ دراز، وهو فيما كتب من تفسير لا يتطلب من قارئه انضواءً تحت راية معينة، ولا اعتناقًا لمذهب معين، ولا يفترض فيه تخصصًا في ثقافة معينة، ولا حصولاً على مؤهل معين، بل إنه يناشده أن يتحدث به إلى كل عقل واعٍ ناقد. لا يأخذ إلا على بصيرة وبينة، ولا يذر ما يذر إلا على بصيرة وبينة، وإلى كل وجدان تجريبي ذائق، لا يكتفي بالخبر عن المعاينة، ولا يستغني بالوزن عن الموازنة.

أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء؛ إلا من فطرة سليمة، وحاسّة مرهفة، ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن.

ويهدف الأستاذ دراز من وراء ما قدَّم من تفسير لكتاب الله فيما ألَّف وأذاع كما يقول: «أردت بها أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته.

وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئًا من التفصيل والتحليل، وشيئًا من التطبيق والتمثيل، فلم أكتفِ بالإشارة حيث تمكن العبارة، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان، راجيًا بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين؛ فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وأن تنشرح بها صدور المؤمنين، فيزدادوا إيمانًا على إيمانهم».

***

٣- مدرسة الشيخ دراز في التفسير

أكد بعض الباحثين المعاصرين[١] أن الشيخ محمد دراز تأثر بطريقة تفسير الإمام محمد عبده: وهي دعوة صحيحة في بعض جوانبها، مثل تأثره بالتفسير الموضوعي للسورة، وبالتجافي عن النواحي البلاغية والنحوية المتقعرة.

ولكن الشيخ دراز كانت له سماته الشخصية في منهجه في التفسير. وأهمها تمسك الشيخ بمنهج السنة النبوية في فهم القرآن، وتأخير النظر العقلي الحر المجرد باعتباره حاكمًا على القرآن، وتقديم إعمال العقل في فهم وتمحيص لغة القرآن، وتقليب وجوهها، لاستبيان مراد الشارع، فيسلم المسلمون من الوقوع في البدع والشبهات، ويجدون لأنفسهم مخارج كثيرة للآيات المشكلات، أو الأحداث الملمات.

* * *

(١) راجع إن شئت د. عبد الغفار عبد الرحيم: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، ط دار الأنصار، ود. محمد أمين أبو شهبة: «محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية»، أطروحة ماجستير كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ود. أبو بكر سعد عبد الراضي «العقيدة والأخلاق في فكر الدكتور محمد عبد الله دراز»، أطروحة دكتوراه - كلية البنات - جامعة عين شمس.

٤- منهج الدكتور محمد عبد الله دراز في التفسير

اعتمد الدكتور دراز في تفسيره للقرآن على مجموعة من الخصائص التي انطلق منها نحو تفسير كتاب الله، واستخلص الدكتور أبو بكر سعد عبد الراضي هذه القواعد والخصائص في أطروحته للدكتوراه في عدة نقاط: (الوحدة الموضوعية - التفسير الموضوعي - الإعجاز اللغوي والبياني - ارتباط الإعجاز اللغوي عند الدكتور دراز بمنهجه في التفسير - المنهج البنائي (أو القراءة الثانية) الاعتماد على السنة في فهم القرآن - توظيف العقل في فهم النص الشرعي - التفسير المقارن).

وقد أبدع الدكتور دراز في تطبيق المنهج الذي نادى به الإمام محمد عبده في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية. وقدَّم في كتابه (النبأ العظيم) سورة البقرة نموذجًا.

وهذا المنهج يقوم على أنَّ في كل سورة من سور القرآن الكريم روحًا يسري في آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها.

وهكذا استطاع الدكتور دراز أن يخطط له منهجًا متميزًا في التفسير، اعتمد فيه على إجالة النظر، ليس فقط على السطوح الخارجية من معاني الآيات، ولكنه يعمد كذلك إلى جوهر هذه المعاني وباطنها، فهو دائمًا ينظر إلى العناصر المتقابلة التي يظن الناظر إليها من الوهلة الأولى أنها متضادة أو متعارضة، فإذا بالشيخ يفحص هذه العناصر ويضعها في سياقها من مقاصد التشريع، ثم يضم بعضها إلى بعض؛ فيجدها بعد هذا التجاور قد اجتمعت، وأصبحت لها وظيفتها المتكاملة، وتؤدي مهمة واحدة وإن انقسمت إلى قسمين أو أكثر.

ومن المعروف: أن رسول الله ﷺ كان يأمر بوضع الآيات التي تنزل عليه منجمة في مواضعها من السور، وأن ذلك كان عن وحي يتلقاه عن جبريل، عن الله رب العالمين، فهل كان ذلك إلا لمعنى، وهل يأمر الله -تعالى- بوضع هذه الآيات هنا، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة؟

وقد عُنِيَ المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم، وقل فيهم من عني بهذا الجانب الذي هو دراسة الروح العام لكل سورة والغرض الذي تهدف إليه.

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص، وروح يسري في نواحيها - لا يمكن أن تُعَدُّ فصولاً أو أبوابًا مقسَّمة منسقة على نمط التآليف التي يؤلفها الناس، ومن أراد أن يفهمها على ذلك، أو يفسرها على ذلك، فإنه يكون متكلفًا مشتطًّا محاولاً أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذي هو التنقل والمراوحة والتحول، وأن يبث في تضاعيف القول، والوقوف عند العبرة لتجليتها، والتوجيه إلى مغزاها، واستخدام الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة، والمبادئ القويمة.

إن هناك فرقًا واضحًا بين مَن يحاول أن يفعل ذلك، ومَن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح الساري، والبيئة المعنوية الخاصة التي تجول فيها السورة، دون أن يُخرج التنزيل الحكيم عن سنته وأسلوبه الذي انفرد به، وكان من أهم نواحي الإعجاز فيه.

وهذا المنهج في الدراسات القرآنية أجدى على الناس مِن تتبُّع الآيات آية بعد آية بحسب ورودها في السورة، ومن تتبع جُمَل كل آية، وكلمات كل آية وأحيانًا حروف كل آية أيضًا، ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الإجمال، أو على نحو من التطويل أو الإيجاز، فإن ذلك لا يعطي المنظر العام، ولا يساعد على تصور عظمة السورة مجتمعة الملامح، منضمة التقاسيم كاملة الوضع ومثل من يكتفي بأن ينظر إلى سورة من سور القرآن هذه النظرة التفصيلية على هذا النحو، كمثل مَن يأتي إلى بناء شامخ عظيم فيشتغل بالتأمل في مادة بنائه، وفي نوع أحجاره ولبناته التي كُوِّن منها، وفي أخشابه وحديده،

ومعادنه، ومقابض أبوابه، ومفاتحه، ونحو ذلك، فيشغله هذا عن مرآه العام، وعظمته التي تجتليها العين حين تنظر إلى جملته كبيت أو كصَرْحٍ عظيم.

نعم إن هذا لا يغني عن ذاك، فالجملة لا تغني عن التفصيل، والتفصيل لا يغني عن الجملة، ولكن القصر أو الصرح إنما كان قصرًا أو صرحًا بجملته، أما كون خشبه كذا، أو حديده كذا، أو مادته كذا، فذلك درس للخشب أو للحديد أو للأحجار... إلخ. وليس درسًا للقصر أو الصرح من حيث إنه قصر وصرح.

فالقرآن الكريم يجب أن يُدْرَس من كل ناحية وهو قد دُرِسَ فعلاً من عشرات النواحي المختلفة، ولكنه كتاب هداية وتشريع ذات طابع خاص، له هيمنته على القلوب، وتأثيره في الأرواح، لا يمكن أن تجتلي هذه الناحية فيه بتطبيق كلماته وألفاظه على قواعد النحو حينًا وعلى مروي القراءات حينًا، وعلى تفاصيل التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والوصل والفصل، في حدود ما عرفه السكاكي والجرجاني والخطيب، ومن إليهم من علماء الصناعة اللفظية أو المعنوية، نحوية أو بلاغية أو روائية.

إن هذا أشبه بخدمة غرض النحويين والبلاغيين وأهل القراءات منه بخدمة غرض القرآن نفسه. والغاية المقصودة منه باعتباره كتاب هداية للتي هي أقوم.

فهذه الطريقة تجعل من آياته موضوعات لتمرينات مختلفة، وتطبيقات متنوعة، وإن تخللها في كثير من الأحيان بيان للأحكام، أو توجيه إلى الجمال الفني، أو إظهار لأسلوب الهداية والإرشاد، أو تعريف بما تتضمنه الآيات من إيحاء، أو إشارة، أو تنبيه، إلى غير ذلك مما لا يخلو منه تفسير في العادة[1].

***

---

(١) الشيخ محمد محمد المدني، المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٥- أسلوب محمد عبد الله دراز في تفسيره

اتسم أسلوبه في الكتابة كما يصفه هو: «بعمق الفكرة وقوة الحجة ومتانة الأسلوب».

ويصف أسلوبه الدكتور محمد أبو الأنوار: «يتمتع بقوة السيطرة وبلاغة الإيجاز وغزارة الدلالة».

وصفوة القول: أن أسلوبه يمتاز بالإشراق البياني، وجمال العبارة، والوضوح والبساطة في التركيب والمعنى، فكان يكتب بأسلوب الداعية إلى الله وحرارته، وليس بأسلوب الفيلسوف وخياله وغموض عبارته، وذلك لتأثره بأسلوب القرآن وطبيعة الموضوعات التي كُتب فيها والغاية من كتابته، كما كان يمتاز بالتشخيص وأداء المعاني في صورة جمالية، وعدم اللجوء لاستعمال المصطلحات الفنية والعلمية المعقَّدة، والصدق والصراحة والجرأة، وقوة العاطفة، ومزج الفكر بالعاطفة، والتكرار بهدف توضيح وتثبت الفكرة التي يدعو إليها.

وإلى القارئ أحد نصوصه كنموذج على فخامة أسلوبه في تفسيره لسورة البقرة؛ ومما ينبغي أن نلفت ذهن القارئ إليه مهارة الشيخ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز وثقوب عقله، وحدة ذكائه في إبراز أخفى وأدق أسرار البيان القرآني المعجز في آية من كتاب الله كنموذج يجب أن يُحتذى في دراسة النظم القرآني وتفسيره. تلك هي الآية التي نزلت في شأن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

هذه الآية قال الشيخ: إنه اختارها؛ لأنها ليست من الآيات التي يهتم بها البيانيون في استخراج الوجوه والصور البلاغية منها، مما فيه تشبيه رائق، أو مجاز آسر، أو كناية لطيفة، أو تمثيل أخَّاذ، وإنما هي آية من «عرض القرآن»، ومع ذلك استخرج ما فيها من دقائق النظم، وأسرار البيان، وحكمة المعنى ما لا يملك القارئ معه إلا أن يقول بعد الاطلاع عليه: «الله أكبر، الله أكبر».

وهذا منهج مستمر في دراسة القرآن تَرَسَّمَ فيه الشيخ دراز خطى الإمام عبد القاهر الجرجاني منهجه التحليلي الممتع المقنع في كتابيه: «أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز».

ويقول الدكتور محمد محمود حجازي: «ويعد الدكتور محمد عبد الله دراز من رواد التفسير الموضوعي للسورة القرآنية الذي هو عبارة عن الكلام على السورة القرآنية ككل، مع بيان أغراضها العامة والخاصة، وما فيها، مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض حتى تبدو السورة، وهي في منتهى الدقة والإحكام».

❊ ❊ ❊

٦- جولة في تفسيره

والآن أرى أن أجول مع القارئ جولة مشوقة ينقسم معها عبير وشذى هذا الكتاب ليدلف إلى جَوِّه القرآني الذي يعبق بالرياحين ليطالعه بهمة وشوق وتركيز واستيعاب.

فأقول: في تفسيره الرائع لفاتحة الكتاب:

يعلمنا أن خير ما تُفتتح به الأعمال، وتُستنجح به المقاصد، التوجه إلى الله العلي القدير، ثناءً عليه بما هو أهله، واستمدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته، وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثناء على الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ استعانة بالله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ استرشاد بنور الله. ولا يقف بنا الدكتور دراز عند هذه النظرة العابرة التي يقفها أكثر الذين يتلون هذه السورة، أو الذين يستمعون إليها.

ولكنه بالعلم الذي ألهمه الله إياه يلقي على السورة الكريمة نظرتين أخريين: نظرة في موادها ومقاصدها مقارنة بمواد القرآن ومقاصده، ونظرة في وجهة خطابها، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني، وسنجد لها بذلك شأنًا أهم وأعظم.

وشرع الدكتور دراز بعلمه بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وفي مدى احتواء الفاتحة على هذه المقاصد.

وفي ختام تفسيره الرائع يقول: «... إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية فإنه يحق لنا أن نقول: إن القرآن إذا كان هو الدستور، فالفاتحة هي أساس الدستور...».

بل لو صح هذا التعبير لقلنا: إنها دستور الدستور.



تفسيره الموضوعي لسورة البقرة

وفي المبحث الثاني: نقدم للدكتور دراز تفسيره الموضوعي لسورة البقرة، والحلقات الست لتفسيره الإذاعي للفاتحة وسورة البقرة.

وقد كانت هذه الحلقات في مقدِّمة الجهود الدينية والفكرية الدائبة التي تقدمها الإذاعة، وكانت تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي للقرآن الكريم، بفكره الحي، ونظرته الكلية الشاملة. فما أروعه حين يقول: «كان المؤمنون عند نزول الفاتحة لا يزالون في بداية عهدهم بالوحي، لم يهبط عليهم من سحائب العلوم القرآنية إلا بضع قطرات، لقد عرفوا ربهم، وأخلصوا له سرّهم، ولكنهم كانوا يستشرفون يومئذٍ إلى هداية مفصلة، إلى دستور شامل، يُعرِّفهم مذاهب الحق والباطل، ويميز لهم وجوه الحلال والحرام، ويعرفهم سنة الله في الأولين، ويطلعهم على ملكوت الله في السماوات والأرض، كان ختام سورة الفاتحة تعبيرًا بلسان حالهم عن تعطشهم والتماسهم لهذا الدستور السماوي في ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾، فجاء استهلال سورة البقرة يبشرهم أن قد استُجيبت، وأن الهدى الذي طلبوه هو الآن بين أيديهم. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

فالقرآن كله بعد الفاتحة، هو الهدى المطلوب في الفاتحة.

وسورة البقرة أكبر نموذج من ذلك الهدى، مائتان وبضع وثمانون آية تنقسم إلى مقدمة، ومقصدين، وخاتمة... في نسق بديع تتلاحق أجزاؤه وتتعانق، ولكنها لا تتداخل، ولا يبغي بعضها على بعض.

أما المقدمة: فقوامها عشرون آية، إنما هي تنويه بشأن هذا الكتاب وبشارة لمن يتقبله، ونص على من يأباه ويعرض عنه.

وأما المقصد الأول: فيمتد في مائة وسبع وخمسين آية، مهمتها إرساء أصول الدعوة الإسلامية، وتفنيد حجج المخالفين لها.

وأما المقصد الثاني: ففي مائة وسبع آيات، تبسط شرائع الإسلام، وتحدد منهاجه العملي في مختلف نواحي الحياة.

وأما الخاتمة: فآيتان اثنتان يعلن فيهما تحقيق البشارة التي بدأت بها السورة، وهي بشارة الهدى والفلاح لمن سمع وأطاع.

وفي القسم الرابع: تفسير آيات مختارة:

وفي المبحث الثالث مثل «تفسير آية السِّلم»، والتي هي شعار المؤمن: السمع والطاعة للحق والعدل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فيبين الدكتور دراز أن السلام الذي يدعو إليه القرآن هاهنا، هو شيء آخر، أعمق من كل المظاهر المادية، إنه فكرة حية، وحقيقة روحية، هو عقد وميثاق بين المرء وقلبه، يلتزم فيه كل امرئ أن يكون متجاوبًا حقًّا وصدقًا مع المُثل العليا التي يؤمن بها، بحيث لا يثور تمردًا على تلك المبادئ إذا خالفت هواه، ولا يُعْرِض عنها كلما تعارضت مع ميوله ورغائبه، فالدخول في السلم هو الثبات تحت راية الحق في خضوع واستسلام، والانقياد لقانون العدل في طاعة ونظام، ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥]. ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢]. هذا هو لُبُّ المعنى وجوهره في لغة العرب، وهذا هو حقيقة السلام، وحقيقة الإسلام في لغة العرب، وهذا هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء، وهذا هو الطريق الوحيد لنشر لواء الأمن والسلام بين الأمم والأفراد، وفي تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النساء: ٣٢]. بيَّن الشيخ سنة الهداية القرآنية في دعوتها إلى الحق والخير.

وفي تفسير ربع «والوالدات» يتناول الشيخ اللواحق والتوابع التي تجيء بعد

انفطام الجنين بالطلاق أو الموت، وأن الأصل في الحياة الزوجية أن تكون حياة سكن ومودة وتعاون على أسباب السعادة المشتركة.

وبعد بيان حق الزوج والولد أبان الشيخ حق الله والوطن ببذل المال في مصالح الأمة، والتخلق بفضيلة الصبر في البأساء والضراء، وفسّر الشيخ آية الدَّيْن والرهان، ثم تناول الشيخ حديث سورة آل عمران عن غزوة أحد، ثم بيَّن لنا البقع واللمع في ثوب أخلاقنا، موضحًا طُول الطريق على محبي الطهر والجمال الخلقي حين يتعهدون هذه البقع واللمع بالإزالة والتنقية واحدة بعد واحدة.

وفي القسم الخامس: نقدم نورًا من سورة المائدة:

وفيه يتحدث الشيخ عن مقاييس الكمال في وضع التشريعات الإلهية، والوسائل المستفيضة للعزائم، وتفسير آية القسط، والتي هي خلاصة الدستور الإسلامي، ويتحدث حول عجائب الطباع، ومفارقات الأخلاق، ويشرح معنى الإحسان.

وفي القسم السادس (أنوار من السور)؛ في هذا القسم يتناول الشيخ في ظلال سورة الأنفال الفصل في القضايا بين المسلمين وغير المسلمين، واعتماد المسلمين سياسة الاستعداد لدرء العدوان.

وفي ظلال سورة النحل يبين مقاصد الدعوة المحمدية في مكة.

وفي ظلال سورة يس يشرح أصول العقيدة الإسلامية.

وفي ظلال سورة غافر يعرض قضية الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر.

وفي ظلال سورة القمر يحذر الأمة ببيان الإنذارات الثلاث وعاقبة الإعراض عن النُّذُر.

وفي ظلال سورة الواقعة يبين أحوال النشأة الآخرة، وعرض مواطن العبرة من شؤون الحياة الحاضرة.

القسم السابع: تفسيره لسورة الملك:

فيقول عن هذه السورة الكريمة: «هذه السورة المجيدة تتناول في شطرها الأول

من أولها إلى قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ مقصدين عظيمين من مقاصد الدعوة الإسلامية وهما:

١- التعريف بالله وصفاته.

٢- الندب إلى خشيته، والتحذير من عاقبة الكفر به.

وهكذا تنتظم العقيدة بطرفيها؛ الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر على أن هذين الأصلين يرجعان عند التحقيق إلى أصل واحد هو التعريف بالله مُبْدِئًا ومُعِيدًا، مُعْطِيًا ومَانعًا، مرغوبًا ومرهوبًا، ثم تعود السورة في شطرها الثاني من قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ إلى آخر السورة تتناول هذين المعنيين أنفسهما بهذا الترتيب نفسه ولكن في لون جديد.

القسم الثامن: سورة القلم:

بعد أن فسَّر لنا الأستاذ الكبير سورة الملك، وبيَّن حديثها عن الله تبارك اسمه وعن مصير الكافرين به. تناول تفسير سورة القلم وبيَّن حديثها عن الرسول ﷺ وعن حال المكذبين له، فيقول: «في الآيات السبع الأولى من سورة القلم تطييب لقلب الرسول ﷺ بتبرئته من تهمة السَّفه والجنون التي رماه بها المكذبون، وشهادة له مِن الله بما هو في الطرف الأقصى من هذه التهمة، ألا وهو علمه الراسخ وخُلقه العظيم.

وفي الآيات التسع بعدها إلزام للنبي ﷺ بالثبات على طريقه المستقيم، وتنفير له من الركون، ولو قليلاً إلى دعوة المثبطين، وكيف يركن إليهم وفيهم ما فيهم من مثالب الأخلاق وسفاسف الطباع؟

ثم كيف يهمه تكذيبهم له وهم لم يصدروا في هذا التكذيب عن عقل ورؤية، وإنما هو بطر الغنى وفتنة المال والبنين؟

وفي الآيات الإحدى عشرة التي بعدها: استخلاص للعبرة من هذه القصة، بتطبيقها على قريش، تهديدًا لهم بتحول ما هم فيه من يُسر ورغد؛ إلى قحط ومجاعة، ثم قطعًا لطمعهم الكاذب في أنهم إن بُعثوا يوم القيامة فسوف تكون حالهم في

الآخرة كحالهم في الدنيا أو خيرًا منها.

وفي الآيات التسع الأخيرة: تعود السورة الكريمة إلى مثل ما بُدِئت به توجيهًا للرسول ﷺ في شأن أمته، وتثبيتًا له على منهجه السوي، وتبرئته له ولكتابه من كل عيب وريب.

القسم التاسع: تفسير سورة النبأ:

ويأتي تفسيره لهذه السورة الكريمة إبداعًا من إبداعاته، وإشراقًا من إشراقاته، وفيضًا من فيوضاته؛ فيبدأ بتمهيد موجز يؤكد فيه أنَّ ميلاد الدعوة المحمدية صدمة قوية لعقول المشركين، مثار لدهشتهم وعجبهم منها ومن كل شيء فيها، عجبوا من محمد أنه رسول الله إليهم، وأن الملائكة تجيئه بخبر السماء.

وعجبوا من ثورته على دين قومه، ودعوته إلى محو صوره، وكان من أكبر عجبهم حديثه عن النشأة الآخرة، وإعلانه أن الناس مبعوثون بعد موتهم مجزِيُّون على أعمالهم.

بإزاء هذه التخبطات الفكرية أنزل الله سورة النبأ تعجبًا وتهوينًا من خوضهم، وإكبارًا وتهديدًا للشأن الذي يخوضون فيه، وتلك هي عبرة السورة ومغزاها. والنتيجة المنطقية التي تنتهي إليها مقدماتها، أنبأتنا السورة بنبئها العظيم عن يوم البعث، ثم بسطت لنا دلائله وشواهده، ثم جعلته هو يوم الفصل وتقرير المصير، ثم صوَّرت هذا المصير الأخير في صورتيه المتقابلتين:

نعيمٌ خالصٌ دائمٌ، أو شقاءٌ خالصٌ دائمٌ، فإذا كان هذا هو شأن ذلك اليوم، فهو وحده اليوم الحق، وكل الأيام بالقياس إليه سراب باطل، وظل زائل، ما أقصر أيام الدنيا إذًا ولو طالت، وما أهون لذائذها وآلامها وإن عظمت، فالعاقل الحذر، البعيد النظر، هو الذي يعمل لهذا اليوم الأكبر ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

استعد للقائه، وتأهب لحسن القدوم عليه.

فتزودْ بزاد الإيمان، وتحلَّ بلباس التقوى، وما أروع الأستاذ الكبير حين يلفت

أنظارنا ويفتح أبصارنا إلى رحمة الله الواسعة حين يختم تفسير السورة الكريمة بهذا التوجيه فيقول: «وهنا تتوجه الرحمة الإلهية إلى الناس جميعًا، فتبث إليهم إنذارها الأخير بالعذاب المنتظر، وذلك ليُقبل منهم المُدْبِر، ويجدُ المُقصِّر، ويُقلع المسيء عن إساءته، ويزداد المحسن من إحسانه، وتسمي الآيات هذا العذاب قريبًا، وإن كان الغافل يراه بعيدًا. ذلك لأن كل طويل عند النهاية يتقاصر، وكل بعيد عند بلوغ أجله يتقارب... ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ : ٢٠٧].

يومئذ ينسى سابق النعيم، وينطوي مديد زمانه، ويرى الناس ما مضى عنه كأنه فترة أحلام: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾.

ذلك يوم ينظر المرء ما قدمت يداه...

يوم يقرأ كل امرئ كتاب عمله، ويحاسب كل امرئ نفسه.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ هنالك متحسرًا متندمًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ يتمنى لو كان قد بقي في الدنيا ترابًا، ولم يُخلق إنسانًا، أو يود لو أنه بعد البعث عاد ترابًا لكيلا يحس بهول ما يرى، وشدة ما يلقى، فهل بقيت على الله حجة؟ لقد أعذر من أنذر.

القسم العاشر: سورة التكوير:

يمهِّد الدكتور دراز لتفسير هذه السورة بالربط بينها وبين سورة النبأ بقوله: كان ختام السورة السابقة –سورة النبأ– إنذارًا شديدًا بيوم أوله فزع، يفر المرء فيه من أقرب الناس إليه، وآخره إما مسرة تبيض منها وجوه، وإما حسرة تكفهر منها وجوه.

وكان من شأن هذا الإنذار المزدوج أن يثير سؤالاً مزدوجًا عن كُنْه الحادث الجلل، الذي يُورث الناس هذا الذهول عند الصدمة الأولى، وسؤالاً عن سر هذا الفرح أو الحزن البادي على الوجوه بعد ذلك.

فجاء صدر سورة التكوير عن هذين السؤالين في جملة واحدة تتألف من أربع عشرة آية قصيرة.



ثم تأتي الآيات من [١٥ : ١٩] بضروب من البيان والتقرير من شأنها أن ترد إلى النفوس طمأنينتها وثقتها به، وأن تزيح عنها غبار الارتياب فيه. ويبين الشيخ منطوق الشهادة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أنها ليست شهادة مجملة مجردة ولكنها شهادة مفصلة مبرهنة تشهد للرسول الملكي الكريم جبريل عليه السلام بخمس خصال: (الكرم، والقوة، والمكانة، والرياسة المطاعة في الملأ الأعلى، وأخيرًا الأمانة).

وتنتقل الآيات الكريمة إلى الحلقة الثانية من السلسلة الذهبية أعني الرسول البشري محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام. فتشهد له بأربع خلال: العقل والتثبت والأمانة والتنزه عن الأغراض العاجلة، ويؤكد الدكتور دراز في تفسيره لهذه السورة أن محمدًا ﷺ اجتمع له الكمال الذاتي كله، سلامة العقل، وصفاء الحس، واستقامة الخلق ونزاهة الضمير وعلم اليقين، ويبين أن آيات السورة تترقى في التنويه بشأن هذا الوحي القرآني، فلا تكتفي بأنه حق صادر عن حق، بل تشيد بهدايته الشاملة، ورسالته العالمية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ تذكرة للخلق أجمعين.

ويختتم الدكتور دراز تفسير السورة بقوله: «تناولت السورة إلى هذا الحد ركنين عظيمين من أركان الإيمان، ركن البعث وركن الرسالة، ولكنها لا تريد أن تودع القارئ قبل أن ترقى به إلى الحقيقة الثالثة الكبرى عقيدة الألوهية العظمى، فها هي ذي تجعلها مسك الختام وتجيء بها في أمسّ أوقات الحاجة إليها.

ذلك أن تعليق الانتفاع بالذكر على مشيئة من شاء منا أن يستقيم، كان ربما يوحي إلى النفوس شيئًا من الغرور، فنحسب أن أمرها كله موكولٌ إليها، وإن لها الخيرة كل الخيرة في سلوك سبيل التقوى وسبيل الفجور، ولو مراغمة لمشيئة الله قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حقيقة ناصعة لا يكابر فيها أحد ممن يؤمن بالله ولا يشرك به شيئًا.

ومهما تختلف وجهات النظر في مسألة القضاء والقدر، ومهما نأخذ بأوسع

معاني الحرية الممنوحة للإنسان، فإنه لا مفرّ من التسليم بأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب، وإن لهذه التبعية مظاهر كثيرة إيجابية وسلبية، وأدنى هذه المظاهر تتمثل في أن إرادتنا لا تركن إلى فعل أو ترك دون أن يمكن الله لها من هذا الركون ويخلي لها طريقه، وأنه لا يعقل أن تسلك مسلكها كفاحًا وغِلابًا لمشيئة الله، وإلا لانقلبت أوضاع العبودية والربوبية، فصدق الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

القسم الحادي عشر: «من وصايا القرآن»: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾:

فهي أروع روائع الأستاذ العلامة في التفسير فيما أرى، في هذه المجموعة الثمانية عشرة التي أذاعها الشيخ محمد عبد الله دراز

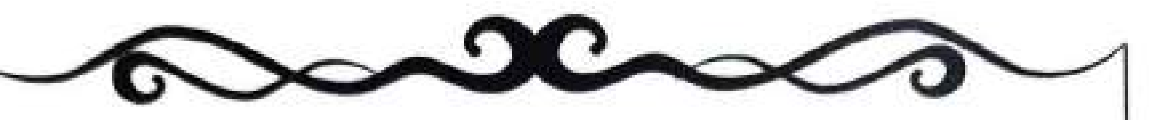
وكان من الممكن أن يقف الشيخ دراز عند هذه الآية: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقفة قصيرة مكتفيًا بأن المقصود طهارة اللباس الذي نواري به أبداننا، ولكنَّ الدكتور دراز يخترق الحُجُب ويغوص في أعماق النفس الإنسانية، ويرى أن النفس يحيط بها أربع طبقات، كل واحدة منها تُعَدُّ ثوبًا لها، أدناها إلى جوهرها طبقة من الدثار: طبقة السير والأعمال، ثم طبقة البنية والجثمان، ثم طبقة اللباس الذي يكسو ذلك الجثمان.

والقرآن الكريم في آياته يناشدنا أن نحرص على طهارة الطبقات الأربع جميعًا ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، غير أنه لما كانت عناية القرآن دائمًا بالجوهر والمخبر أشد منها بالصورة والمظهر كان الهدف الأول هو الجانب الروحي الخُلُقِي، جانب السيرة والسريرة، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والسلف الصالح.

هكذا يمضي الدكتور دراز في أحاديثه مفصلاً ما أجمل، وشارحًا ما دقَّ وخَفِيَ، حتى تخرج النفس بعد هذا الشرح المستفيض، طاهرةً نقية، وبيضاء زكية، وقد هُدِيت إلى صراط مستقيم لا ترى فيه انحرافًا ولا عوجًا، بلا إفراط أو تفريط[1].

***

(١) الشيخ صالح عشماوي، من تقديمه لهذه المجموعة عام ١٩٧٨م، طبعة دار الأنصار.



القسم الأول

تفسير فاتحة الكتاب

«دستور الدستور»

١ - كلمة عن تفسير محمد عبد الله دراز لفاتحة الكتاب.

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي.

٢ - مقاصد سورة الفاتحة... ومدى احتوائها على المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

- المقصد النظري «معرفة الله» نظريًا وعمليًا.

- الجانب الإنساني نظريًا وعمليًا.

٣ - مقارنة بين أسلوب الخطاب في الفاتحة، وأسلوب الخطاب في القرآن.

كلمة للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي (١)

الأستاذ بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية

لقد قرأت تفسيرًا لفاتحة الكتاب كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز، فأعجبني أن أجد من حسن الاستنباط، ودقة التعليل، وبراعة التحليل ما جعلني أطالع الجديد حقًّا، وفاتحة الكتاب معروفة مشروحة، وقد فسَّرها آلاف الشارحين في القديم والحديث، وأكثرهم نَقَلَةٌ حَفِظَةٌ يتداولون ما يقرءون، ولكن الرجل المبتكر، يلقي نظرة وراء السطوح الخارجية ليرى في اللفائف المستكِنَّة ما غاب عن سواه، حين نظر للسورة الكريمة من جهة مقاصدها، ومن وجهة خطابها؛ لأن الفاتحة في رأيه تُوجِز المقاصد الأساسية التي عناها القرآن، إذ تتضمن مقصدين نظريين هما: معرفة الحق ومعرفة الخير، كما تتضمن مقصدين عمليين هما: تقديس الحق، والالتزام بالخير، أما قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، فشذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاث، من حيث المبدأ، فالواسطة فالمعاد، فرب العالمين هو المبدأ، والرحمن الرحيم هو مصدر الرحمة في الحياة، ومالك يوم الدين هو صاحب الأمر النهائي عند الحساب، فإذا كان الله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه وتعهده بالإمداد حتى بلغ مداه، وإذا كان هو الذي يملك خزائن الرحمة في السماوات والأرض يضاعفها كيف يشاء، وإذا كان بيده فصل القضاء وتقرير المصير، فأيُّ شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال، بل أيّ شيء غيره يستحق الحمد والثناء، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يضمحل في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة، وأن تهتف في أعماقك

---

(١) نقلنا هذه الكلمة لأستاذنا الجليل من كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» الجزء الخامس – طبع بمجمع البحوث الإسلامية (١٤٠٨ – ١٩٨٧م).

متجهًا إلى ربك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

نعبد أولاً فنؤدي واجبنا، ونستعين ثانيًا فنطالب بحقوقنا، وهذا هو الجانب الإلهي نظريّه وعمليّه.

أما الجانب الإنساني فيتضمن المنهجين نظريًا وعمليًا، تضمنته السورة في كلمتين هما: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

ثم وصفته بأنه الطريق الموصِّل إلى رضوان الله، وأشارت إلى مثله التاريخية في سيرة: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

ثم وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة؛ فبينت أن الانحراف على ضربين، انحراف عن علم، وهو انحراف: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وانحراف عن جهل وطيش، وهو انحراف ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

يقول الدكتور دراز: «إن سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت أول الأمر لا على خطاب الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء، بينما سائر السور تعبِّر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض، وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن من طرفها الآخر، الفاتحة سؤال وباقي القرآن جواب، الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب.

هذه خلاصة -غير دقيقة- لا تغني عن صفحات رائعة كتبها الدكتور دراز في تفسير الفاتحة، لأن مقالاً علميًا للدكتور دراز يتضمن تفسير الفاتحة، لا يقوم باحتوائه تلخيص ما، فالمقال العلمي لدى الكاتب البصير لَبِنَات متعاقبة يسند بعضها بعضًا، وتقديم بعض اللبنات دون بعض عرض للنوع فقط، وهو عرض لا يفي بالأصل المرصود، وهَبْكَ قرأت قصة فنية في صفحات أفتستطيع تلخيصها

دون أن تُخِلَّ ببنائها الفني، كذلك المقال العلمي التحليلي لا يلخص إلا ليدل على المثال، لا لأن يعبر عن حقيقة المقال.

لقد عاش الدكتور محمد عبد الله دراز حياته مؤمنًا مفكرًا، وقد ورث عن والده شغفه بكتاب الله، فأخذ عنه ضرورة التلاوة لستة أجزاء منه كل يوم، وقراءة مفكِّر مثله لهذا الجزء اليومي، لا بد أن تفتح عليه بما يضيء بصيرته، ويمده بأوفر الزاد الشهي لذلك كانت محاضراته في تفسير القرآن الكريم بكلية اللغة العربية مهوى الطلاب جميعًا، وأكثرهم كان يترك المحاضرات في المواد المختلفة ليسعى إلى دروس دراز في التفسير، ومع أنه كان يشرح للطلاب تفسير الكشاف، فإن تناوله لهذا التفسير كان يجعله شيئًا آخر غير المسطور في الصفحات، وكم كان رائعًا أن يتوجه الدكتور دراز لأداء سجود التلاوة عند مناسبته، وأن يعلم طلابه ذلك فيتسلحوا بالوضوء قبل الدرس ليسجدوا لله طائعين.

لقد كان الدكتور دراز نمطًا ممتازًا، عرفه الناس بتفرده العلمي مؤلِّفًا ومحاضرًا وأستاذًا، كما عرفوه بإيمانه القوي، مسلمًا رقيق العاطفة قوي اليقين، ونترك القارئ يطالع هذه الصفحات من التفسير، فهي نظرات عالم كبير تمكن حب القرآن من عقله وقلبه فجاء بالجديد الطريف. ا.هـ.

أ. د. محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية

***

المبحث الأول
نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم[(١)]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١-٧].

خير ما تُفتتح به الأعمال، وتُستنجح به المقاصد، التوجه إلى الله العلي القدير، ثناءً عليه بما هو أهله واستمدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته.. وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثناء على الله.. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة بالله.. ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ استرشاد بنور الله.

عند هذه النظرة العابرة يقف أكثر الذين يتلون هذه السورة، أو الذين يستمعون إليها، ولعل كثيرًا منهم لا يدركون مِن تسميتها بالفاتحة إلا أنها تحل المكان الأول في صدر المصحف.

ولكن هلم بنا نُلْقِ على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين: نظرة في موادها ومقاصدها مقارنة بمواد القرآن ومقاصده، ونظرة في وجهة خطابها، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني، وسنجد لها بذلك شأنًا أهم وأعظم.

مقاصد السورة:

ولنبدأ بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وفي مدى احتواء

---

(١) نشرت في مجلة «المجلة»، العدد ٧ ذو الحجة ١٣٧٦هـ - يوليه ١٩٥٧م.

الفاتحة على هذه المقاصد.

فالشؤون التي تناولها القرآن، على تنوُّعها وكثرتها، نستطيع أن نُجملها في أربعة مقاصد، هي في الحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق؛ مقصدان نظريان: هما معرفة الحق، ومعرفة الخير، ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان إذا قُدِّرَ لهما أن تُثْمِرَا، فثمرة معرفة الحق هي تقديس الحق واعتناقه، وثمرة معرفة الخير هي فعل الخير والتزامه.

المقصد النظري: معرفة الله تعالى:

فالمقصد النظري الأساسي للقرآن الحكيم هو تعريفنا بالحقيقة العليا، صعودًا بنا إليها على معراج من الحقائق الأخرى فهو يعرفنا بالله وصفاته عن طريق توجيه أنظارنا إلى آياته في ملكوت السماوات والأرض؛ في خلق الإنسان والحيوان والنبات، في سير الشمس والقمر والنجوم، في تكوين السحاب، في تسخير الطير، في تصريف الرياح، في ظاهرتي الحياة والموت، وفي سائر الظواهر النفسية والكونية الخارجة عن إرادتنا، وعن إرادة الكائنات كلها، والتي لا يستطيع العقل السليم أن يفسِّر وجودها، ولا بقاءها ولا تناسقها وتماسكها ووحدة نظامها، إلا بوجود قوة عاقلة مدبِّرة حكيمة، تقبض على زمام الأمر كله، وتوجِّه العالم كله على هذا النحو الموحد المعين، المختلف المؤتلف دون ملايين الملايين من الأوضاع الممكنة التي لا بد لها من أن تتناوب على الكون في كل لحظة لو ترك أمره لمحض المصادفة والاتفاق، أو لو ترك أمره لقوة عمياء صماء طائشة، لا عقل لها، أو لقوة مخربة مدمرة لا رحمة لها، أو لقوة عابثة لاهية لاعبة لا هدف لها.

والقرآن حين يرينا صنع الله في ملكوته لا يقف بنا عند هذه اللوحة العالمية في صورتها الحاضرة، ولكنه يوجِّه نظرنا إلى طرفي الزمان الكوني، فيطل بنا على صورة العالم في ماضيه وفي مستقبله، في بدايته وفي نهايته، كما يوجِّه نظرنا إلى طرفي الزمان الإنساني فيرينا صورة من صنيع الله في الأفراد والأمم: في ماضيها وفي مستقبلها

القريب والبعيد في إسعادها وإشقائها، في إبقائها وإفنائها، في مثوبتها وعقوبتها.

هذه النظرة الشاملة إلى صنع الله في النفس والآفاق، وهذه المعرفة بالله في مظهري عدله وفضله، في صفتي جلاله وجماله إذا وقعت موقعها من النفس تقاضتها حتمًا أن تتخذ لها موقفًا عمليًا تجاه هذه الحقيقة المقدسة العليا، وما ذلك إلا موقف التوقير والخشوع أمام هذا العدل والجلال، وموقف الولاء والحب أمام هذا الفضل والجمال، فمن عرف الله خشعت له نفسه، واطمأن له قلبه. وذلك هو روح العبادة وجوهرها، الخشوع التام عن طوع واختيار، وعن رضى ومحبة.

فإذا كان هذا الأصل النظري الأول هو معرفة الله، فالأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل هو توقير الله. ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه النظري والعملي... والقرآن يفصله تفصيلاً، وسورة الفاتحة إجمالاً في شطرها الأول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾، وهذه هي المعرفة الأساسية. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة.

وقبل أن نتنقل إلى الجانب الإنساني، الذي يتناوله الشطر الثاني من السورة، يجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذه الحبَّات الدرية التي يتألف منها هذا الجناح الأول من السورة لكي تتمتع عقولنا وقلوبنا بتذوق معانيها، واجتلاء جمال مواقعها، ولنبدأ بهذه الصفات الحسنى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾؛ شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام: المبدأ، فالواسطة، فالمعاد... الوحيد، فالنبوة، فالجزاء..

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ليس إله قبيلة أو شعب أو إله خير أو شر، أو إله نور أو ظلام فحسب، ولكن رب كل شيء: بارئه ومصوره، منقله في أطواره، مبلغه غايته، ممده بحاجاته، مبتليه أو معافيه، وبالجملة مربي كل شيء بأنواع التربية الظاهرة والباطنة،

هذا هو التوحيد الخالص، وهذا هو ركن المبدأ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ليس رحمانًا رحيمًا فحسب، ولكنه هو الرحمن الرحيم، ليس واحدًا من جملة الراحمين ولكنه هو المصدر الوحيد للرحمة. ثم هو ليس ذو رحمة واحدة، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن: رحمة وسعت كل شيء، ورحمة يختص بها من يشاء؛ فالرحمة الأولى وسعت الإنسانية جميعها، لا أقول وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادي فحسب، ولا أقول وسعتها بنعمة الهداية الفطرية وكفى، ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها وذلك بإرسال الرسل إلى كل الأمم: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]. هذه هي الرحمة الأولى؛ الرحمة الأساسية العامة، التي هو بها «رحمن» ممتلئ الخزائن بالرحمة، باسط اليدين بالنعمة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ورحمة أخرى خصوصية إضافية، علاوة يمنحها لمن يستحقها، تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء، والقيادة والإمامة والتوفيق والرشاد، والمزيد من الفضل: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]. ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١]. ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٢]. وهذه هي الرحمة التي هو بها رحيم، على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات فهو رحمة عامة للمرسل إليهم ورحمة خاصة للمرسلين، ومن اهتدى بهديهم. وهذا هو الواسطة بين المبدأ والمعاد... ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إليه وحده ترجع الأمور وبيده تقرير المصير الأخير، يقف الخلق جميعًا بين يديه مسؤولين، فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون. وهذا هو الركن الثالث والأخير؛ ركن المعاد والجزاء.



عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ومواقعها فيما بينها. فلننظر إلى موقعها مما حولها، لنرى كيف وقعت بين قضيتين، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فكانت تأييدًا لما قبلها، وتمهيدًا لما بعدها. فمنزلتها من قضية الحمد منزلة البرهان من الدعوى، ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة.

وفي الحق أنه إذا كان الله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وهو الذي كفل كل شيء وتعهده بالإمداد آنًا فآنًا حتى أبلغه مداه. وإذا كان هو وحده الذي يملك خزائن الرحمة والنعمة كلها، وهو الذي ينفق منها، وهو الذي يضاعفها لمن يشاء، وإذا كان هو وحده الذي بيده فصل القضاء، وتقرير المصير، فأي شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال؟ بل أي شيء غيره يستحق هذا الثناء والإجلال؟ الحمد والثناء كله حق مستحق خالص مخلص لله... تلك إذا قضية معها برهانها.

هذا البرهان الاستقرائي، الذي يستقصي مظاهر العظمة والرحمة كلها في الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فيحصرها في الله، هو في الوقت نفسه قوة دافعة تأخذ بأقطار نفسك وتوجهك إلى غاية معينة عملية، فإن نظرة إلى ماضيك وقد أتى عليك حِينٌ من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا فتعهدك الخلاق في مختلف أطوارك حتى بلغت أشدك وأصبحت سميعًا بصيرًا خصيمًا مبينًا مستأهلاً لخلافة الأرض، لا بد أن تتقاضاك حق الاعتراف له بالفضل والجميل، قيامًا بواجب الرضاء، ونظرة إلى حاضرك وإلى مستقبلك القريب وأنت تتقلب كل آنٍ في رحمته، وتطمع كل آن في المزيد من نعمته، لا شك تثير فيك نخوة باعثة الحب والرجاء ونظرة إلى مستقبلك البعيد وأنت واقف أمامه في ساحة القضاء، وقد علق مصيرك في كفتي ميزانه، لا بد أن تبعث في رُوعك مزيجًا من الرغبة والرهبة والاستحياء.

ماذا يكون موقفك إذًا من هذه الحقيقة المحيطة الغامرة، وأنت كلما التفت إلى

أمسك أو إلى يومك أو إلى غدك لم ترَ إلا يد جلالها أو يد جمالها؟!

النتيجة الطبيعية التي لا تستطيع دفعها عن نفسك بعد هذه المقدمات الثلاث، هي أن يضمحل في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة وظواهر زائلة، وأن ترتفع فوق العالم كله بهامتك، وأن تتحول كل رغبتك ورهبتك إلى هذا المنبع الأول والوحيد لكل قوة ورحمة، وهناك لا يسعك إلا أن ينطلق لسانك في حب خاشع قائلاً: أيها الحق الجامع المانع! لك كلي، لك صلاتي ونسكي، ولك محياي ومماتي، إياك أعبد، ولك وحدك أركع وأسجد. على أنك لو كنت أوسع أفقًا، وأيقظ قلبًا، لوجدت نفسك لست وحيدًا في هذا الموقف، ولرأيت العالم كله حولك راكعًا ساجدًا أمام هذه العظمة الباهرة. لا تقل إذا: إياك أعبد، ولكن قل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهذه هي النتيجة الحقيقية التي أعلنها القرآن الحكيم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا إياك!!

ماذا أقول؟ لا نستعين إلا بك! إني لأكاد أسمع من يهمس في أذني همسًا يقول لي: أما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فقد فقهناها، وأما ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ففي النفس منها شيء، إذ من ذا الذي يطيق هذا الاستغناء الكلي عن معونة الخلق؟ أليس الناس كلهم يعين بعضهم بعضًا، ويستعين بعضهم ببعض، أليس التعاون هو أساس الحياة؟ أليس القرآن نفسه يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

بلى أنا أستعين بك، وأنت تستعين بي، ولكننا كأمة، والناس والعالم أجمع بمن نستعين وراء طاقاتنا المحدودة، وحيلنا المعدودة؟ ثم إني حين أستعين بك وتستعين بي، فمن ذا الذي يبعث الباعثة في قلبك لمعونتي وفي قلبي لمعونتك؟ ومن ذا ييسر لي ولك وسائل هذه المعونة. ومن ذا الذي يُنجح هذه المعونة ويؤتيها ثمرتها؟ الله وحده في الحقيقة وفي النهاية هو المستعان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بإجماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله: شرك



العبادة لغير الله، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله وبإجماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرفة كلها: عقيدة الجبر المحض، الذي ينكر قدرتنا ومسؤوليتنا وبطلت عقيدة الاختيار المحض، الذي يدعي الاستغناء عن معونة ربنا فنحن نعمل ونتوكل، نعبد ونستعين.

نعبد أولاً، ونستعين ثانيًا، نؤدي واجبنا ثم نطالب بحقوقنا. ألا فليستمع أولئك الذين لا يفتأون يطالبون بحقوقهم، ولا يبدأون بأداء واجباتهم... إنهم لم يتأدبوا بأدب القرآن ألا فليصححوا موقفهم من فاتحة الكتاب، التي يرددونها في صلاتهم كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل.

هكذا عرفنا الله بصنيعه في الآفاق وفي أنفسنا، عرفناه فيما صنع، وفيما يصنع وفيما سوف يصنع عرفناه بعقولنا وقلوبنا، ثم توجهنا إليه بعزائمنا، وبرغائبنا.

هذا الجانب الإلهي نظريًا وعمليًا، يمثل نصف المهمة القرآنية، وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول.

غير أن الإنسان ليس كائنًا روحيًا محضًا، حتى تكون كل رسالته في الحياة أن يتأمل في صنع الله، وأن يمتلئ إعجابًا به، إنه كائن مزدوج: عبد الله وسيد للكون، إنه خليفته في الأرض، مسؤول عن عمله في خلافته، كما هو مسؤول عن موقف عبوديته. الله يخلق ويصنع، والإنسان يعمل ويكتسب: حياته الطبيعية تتقاضاه أن يعمل، وحياته النفسية تتقاضاه أن يعمل، وحياته في أسرته وفي بيئته وفي أمته وفي الأسرة الإنسانية وفي علاقته الروحية، كل هذه جميعًا يتقاضاه أن يعمل.

الجانب الإنساني: نظريه وعمليه:

فلننتقل إلى هذا الجانب الإنساني، إلى عمل الإنسان، هو جانب يتألف كذلك من عنصرين؛ عنصر نظري تعليمي، نرى فيه نماذج الأعمال الإنسانية في مختلف صورها، جميلها ودميمها، حميدها وذميمها، وعنصر عملي تنفيذي، هو صدى تلك

المعرفة، وثمرة تحريكها لعزائمها.

ولنبدأ بالعنصر النظري: كيف عرض القرآن علينا صورة العمل الإنساني؟

إنه يتبع في ذلك منهجًا مزدوجًا، يجمع بين القيم الذاتية والقيم العرضية للأخلاق والسلوك. منهج القيم الذاتية الذي يخاطب الضمير، يدعو إلى الفضيلة باسم الفضيلة، مصورًا ما فيها من جمال واعتدال، وينهى عن الرذيلة باسم الرذيلة، مبينًا ما فيها من دَنَس وانحراف. ومنهج القيم العرضية الذي يخاطب العاطفة، ويرغب في الفضيلة، وينفر من الرذيلة باسم المصلحة الحقيقية، ويحكم النظر إلى عواقب الأمور وآثارها في العاجل والآجل، ويضرب لذلك الأمثال الكثيرة، ويقص من أجل ذلك السير التاريخية في مختلف العصور.

والعجيب من شأن سورة الفاتحة أنها على فرط إيجازها قد انتظمت المنهجين جميعًا في كلمتين. ذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة بيَّنت لنا أولاً قيمته الذاتية، فوصفته بالاعتدال والاستقامة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم بيَّنت ما في عاقبته من نفع وجدوى، فوصفته بأنه الطريق الموصِّل إلى رضوان الله ونعمته، وأشارت في الوقت نفسه إلى مُثُله التاريخية في سيرة أهله الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..

ثم لم تكتفِ بذلك بل وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة، فبيَّنت أن الانحراف على ضربين؛ انحراف عن قصد وعلم، عنادًا واستكبارًا، واتباعًا للهوى، وهذا هو طريق ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلاً، ورأوا سبيل الغي فاتخذوه سبيلاً؛ وانحراف عن جهل وطيش، وهذا هو طريق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين لا يتوقفون عند الشك، بل يقتفون ما ليس لهم به علم، فيخبطون خبط عشواء، دون تثبُّت ولا تبصُّر، لا ريب أن كلا الضربين مذموم، وإن كان بعضها أسوأ من بعض؛ العالم المنحرف مأزور، والجاهل المنحرف غير معذور.

والعالم المستقيم هو المبرور المأجور.

هذه المشارب الثلاثة نجد دائمًا أمثلتها في الناس، لا في الخلق والسلوك فحسب، بل في كل شأن من الشؤون: في الاعتقاد والرأي والتعليم والإخبار والفتيا، والحكم، والقضاء. وهكذا جاء في الحكمة النبوية «قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار؛ فالقاضي الذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به، واللذان في النار رجل عرف الحق فقضى بخلافه، ورجل قضى للناس على جهل»[1].

من استحكمت معرفته بهذا الأصل النظري، وتبيَّنت له مسالك الهدى والاستقامة، ومشارب الاعوجاج والضلالة، ماذا يكون موقفه العلمي منها.

لا ريب أن العاقل الرشيد يلتمس من هذه الطرق أقومها، ويطلب أسلمها، ويتوجه بعزيمته إلى أحسنها. وهذا الالتماس والطلب والتوجه هو الذي ترجمته لنا سورة الفاتحة في كلمة واحدة: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أهدنا الصراط المستقيم!

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت فيها المقاصد القرآنية الأربعة: الجانب الإلهي نظريًا وعمليًا، والجانب الإنساني نظريه وعمليه... كل ذلك في أوجز عبارة وأحكم نسق.

سورة الفاتحة إذن هي خريطة القرآن وفهرست مواده، إنها جوهرة القرآن ونواته ولب لبابه. فهي بحق «أم القرآن».

كانت هذه هي النظرة الأولى، قارنًا فيها بين مواد الفاتحة ومواد القرآن.

وبقيت نظرة ثانية سريعة، نقارن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة، وأسلوب

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الأقضية، باب: في القاضي يخطئ، الحديث رقم (٣٥٧٣)، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب «الحاكم يجتهد فيصيب الحق» (٣/ ٩٣)، حديث رقم (٢٣١٥) عن بريدة رضي الله عنه، ولفظه «القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة، رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل جار في الحكم فهو في النار».

الخطاب في القرآن... ماذا نرى في هذين الأسلوبين؟

مقارنة بين أسلوب الخطاب في الفاتحة والقرآن:

نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف: فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة، التي وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة، تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء، بينما سائر السور تعبِّر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسَلة من السماء إلى الأرض. وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر؛ الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب؛ الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب.

فلننفذ بهذه النظرة إلى نهايتها، فإنها ستعود إلينا بحصيلة ثمينة من العِبَر النفيسة.

أول ما نلتقطه من هذه العِبَر أنَّ القرآن (وهو دستور الإسلام) لو جاءنا بدون الفاتحة لكان دستورًا وافدًا على الأمة، طارئًا عليها، يعرض نفسه عليها عرضًا، أو يمنح لما منحه فليكن مع ذلك حقًّا كله، وخيرًا كله، وهديًا كله، لكنه لو لم تطلبه الأمة، ولو لم تعلن حاجتها إليه، لكان لها أن تستقبله كما تستقبل البضاعة المعروضة بغير طلب، وأن تقول له زاهدة فيه: لا حاجة بي إليك. أما الآن فالموقف يختلف كل الاختلاف. إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي الذي تعلن به الأمة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور وتؤكد مطالبتها به، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب. فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطلبهم هذا قائلين ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وإذا بالقرآن يزف إليهم هديته وهدايته قائلاً لهم: دونكم الهدى الذي تطلبونه، فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وهكذا جاءهم على ظمأ وتعطش، فكان

أنفع لغلتهم. وكان أكرم في نفسه وعلى الناس من أن يتعرض للمعرضين عنه، أو أن يلزم من هم له كارهون، وكان فوق ذلك كله أقطع لحججهم ومعاذيرهم في إهماله ونسيانه لو أهملوه أو نسوه فيما بعد، وذلك أنه لم يلزمهم إلا بما التزموا، ولم يُجْنِبْهم إلا بما طلبوا، وخير الدساتير ما نبع من حاجة الأمة، وكان تحقيقًا صريحًا لمطامحها الرشيدة.

لم تكتفِ الأمة المؤمنة بأنها طالبت بهذا الدستور، ولكنها اختارت وحددت السلطة التي تقوم بوضع هذا القانون الأساسي، وتوجهت بخطابها إلى هذه السلطة نفسها، ونصت في صلب قرارها على المؤهلات الممتازة التي كانت سببًا في هذا الاختيار والتحديد، فلقد طلبت أن يكون هذا التشريع من عمل المشرع الأعظم الأكرم، المعروف بخبرته التامة في التربية العالمية ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وبعطفه الشامل على مطالب الرعية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم أعلنت في صلب قرارها أن المسؤولية النهائية لجميع السلطات التنفيذية ستكون أمام هذه السلطة التشريعية العليا: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

ثم لم تكتفِ الأمة المؤمنة بهذا كله، بل إنها وضعت الإطار الذي يلزم أن يقع هذا التشريع في داخل حدوده، ورسمت المبادئ الأساسية التي يجب أن يقوم عليها، فطالبت بأن يكون تشريعًا لا يميل مع الهوى يمنة أو يسرة، تشريعًا لا يقوم على فكرة المحاباة لفرد أو لطائفة أو لشعب، ولكن يمثّل العدل الصارم، والصراط المستقيم.

وأخيرًا لم تقنع في وصف هذا التشريع بتلك الأوصاف العامة والألقاب الكلية، بل حددت نموذجه ومثاله من الواقع التاريخي، فطالبت بأن يكون من فصيلة التشريعات الفاضلة المعروفة التي جربت فائدتها، وتحقق حسن عاقبتها، شرعة الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والرشاد.

إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية فإنه يحق لنا أن نقول: إن القرآن إذا كان هو الدستور، فالفاتحة هي أساس الدستور.. بل لو صح هذا التعبير لقلنا إنها دستور الدستور.

***



القسم الثاني

التفسير الموضوعي لسورة البقرة

١ - سورة البقرة نموذجًا على تماسك بنيان القرآن وإحكامه.

٢ - الهدف من اختيار السورة.

٣ - ضرورة إحكام النظر في السورة كلها.

٤ - القرآن وتأليفه بين المختلفات.

٥ - حسن الموقع والتجاور.

٦ - نظام عقد المعاني في سورة البقرة إجمالاً وتفصيلاً.

٧ - مقدمة السورة.

٨ - المقصد الأول من مقاصد السورة.

٩ - المقصد الثاني من مقاصد السورة.

١٠ - المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل.

١١ - المقصد الثالث من مقاصد السورة.

١٢ - المقصد الرابع من مقاصد السورة.

١٣ - الخاتمة.

١٤ - الخلاصة.

التفسير الموضوعي لسورة البقرة

سورة البقرة نموذجًا على تماسك بنيان القرآن وأحكامه

سورة البقرة هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعًا للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التنزيل نجومًا، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخيًا.

تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعًا وثمانين ومائتي آية، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفًا وثمانين نجمًا، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا(١).

الهدف من اختيار السورة: رسم خط سيرها، وإبراز وحدة نظامها المعنوي:

اعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير. ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسبابًا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمُتُّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها، مع أيها يتجه؟ ولا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول.

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضًا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز بها وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان

---

(١) ففيها ذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [الآية: ٢١٧]، وكل أولئك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية من الهجرة. وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة، وهي آخر آية نزلت في القرآن بإطلاق: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨١]، وفيها ما بين ذلك.

كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى.

ضرورة إحكام النظر في السورة كلها:

بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه -وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها- إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة؛ فقديمًا قال الأئمة[1]: «إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلامٌ واحدٌ يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية».

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضّين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها: فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد، وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم؛ وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حُلةٌ موشيةٌ دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها، فجعل ينظر فيها خيطًا خيطًا، ورقعة رقعة، لا يجاوزه ببصره موضع كفّه. فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوطٌ أُخر مختلفٌ ألوانها اختلافًا قريبًا أو بعيدًا لم يجد

---

(١) كأبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن العربي، وبرهان الدين البقاعي، وأبي إسحاق الشاطبي وغيرهم. أما النص المذكور هنا فمستنبَط من كلمات للشاطبي في الموافقات، في المسألة الثالثة عشر من الكلام على الأدلة تفصيلاً. وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضًا إجماليًا.

فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه. ولكنه لو مدَّ بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ما لم يتبين له من قبل. حتى إذا ألقى على الحُلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر. فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن.

القرآن وتأليفه بين المختلفات:

(وكلمة أخرى) تمسُّ إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضوعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجسيمة فحسب، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات، فجعل فريقٌ منهم يذهب في محاولة هذا النوع من الاتصال مذاهب من التكلف والتعسف. وفريقٌ آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب أسرع إلى القول بأنه في الموضع[1] اقتضابًا محضًا، جريًا على عادة العرب في الاقتضاب.

ألا إن هذا الرأي بشعبيته لأوْغَل في الخطأ من سابقه[2]، وإن الأخذ به على علاته في القرآن لغفلة شديدةٌ عن مستوى البلاغة التي تميز بها القرآن عن سائر الكلام.

---

(١) بل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله، نقل السيوطي في الإتقان في بحث المناسبة بين الآيات والسور – عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم. وكذلك نقل عن عز الدين بن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآي لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد، أما إذا اختلفت الأسباب فالربط بينها ضرب من التكلف؛ لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض. اهـ. وقد خالفهما الأئمة ووهموهما.

(٢) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتماسها بين المعاني المتجاورة خاصة. فإذا أضيف إلى تلك التزام طريق معين في المناسبة، وهو أن تكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقًا وحرجًا؛ ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين: التكلف أو الخروج.



فلو أن ذاهبًا ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه إذًا لجرده من أولى خصائصه، وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة. كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟

ولو أنه – من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني – ذهب يفرِّقها، ويقطع أرحامها، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها، إذًا لجرَّده من خاصته الأخرى، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالاً طفريًا يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام. والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام. كيف وهو القول الرصين المحكم؟

كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون. ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قوامًا لائتلافها. وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو «العقدة» التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسًا وأشد عناء منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد.

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارةً أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع، أو الاستشهاد أو الاستنباط. أو التكميل أو الاحتراس، إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، دعامة لاقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان

خروجًا وما هو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني. فإن لم يكن بين المعنيين نسبٌ ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد. وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع[1] يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتناكران.

وهذه كلها وجوهٌ حسنةٌ لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق.

حسن الموقع في التجاور:

على أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائمًا على حسن التجاور بين الآحاد، بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن الموقع في التحاور بين الطائفتين موجبًا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل

---

(١) ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسرارًا دقيقة لو سئل المرء البيان عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية. على أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخلى نفسه ووجدانها ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعًا لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع، بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدي لناحية محدودة أو علة معينة.
ومن طالت مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه والرديء وجد من نفسه أهلية هذا الحكم، إن لم يكن على نحو من الاستدلال المنطقي، فعلى ضرب من الاستحسان الفقهي، ولا سيما إن كان ممن بقيت في عروقهم قطرات من الدم العربي. وفي نفوسهم أثارة من الحاسة العربية، فمن أخطأه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلومن إلا نفسه، ولا يعجلن بالحكم قبل أن يأخذ أهبته. وليذكر دائمًا أنه بمقياس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف إنما يختبر ما في مزاجه اللغوي من صحة أو اعتلال، وما في دراسته اللغوية من نقص أو كمال. وأنه ليس بأذواق القاصرين من المولدين أمثاله تختبر لغة القرآن، كيف وقد درج أهلها الذين سجدوا لبلاغته. وكان فيهم الحكم الذي ترضى حكومته هذا. ولكم وقف علم التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتداء لوظيفتها. فهل وسع أحدًا من علماء التشريح إلهيين أو طبيعيين أن يحكموا بخلوها عن الحكمة والفائدة؟ كلا، فإنهم لما بهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسعهم في القليل الذي جهلوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأن له البتة حكمة لم يكشفها العلم، ثم لا يلبث أن يكشفها لمن أعانته همة البحث وأيده التوفيق.



منهما، أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها كما وصيناك به من قبل. ونحن ذاكرون لك الآن نموذجًا منه لو وضعته نصب عينيك واحتذيته في سائر السور لكان ذلك نِعْم الدليل في دراستك. وبالله التوفيق.

نظام عقد المعاني في سورة البقرة إجمالاً وتفصيلاً:

اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا الترتيب.

(المقدمة) في التعريف بشأن هذا القرآن[1]، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدًّا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.

(المقصد الأول): في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

(المقصد الثاني): في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

(المقصد الثالث): في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.

(المقصد الرابع): ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها.

(الخاتمة): في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.

---

(١) عرفت في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه، فالإشارة هنا يصح أن تتوجه إلى القرآن جملة، وأن تتوجه إلى سورة البقرة خاصة. وقد أردنا بقاءها على هذا الاحتمال اقتداء بالنص الكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضًا.

المقدمة في عشرين آية (١-٢٠):

﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)
خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ
(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ
فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
(١٩) يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

١- إيقاظ الأسماع وتوجيه للقلوب:

بُدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب بتصديرها مثلها في الإنشاء والإنشاد؛ وإنما عهدوها من القراء الكاتبين في بدء تعليمهم النهجي للناشئين (أ. ل. م).

ومهما يكن من أمر المعنى الذي قُصِدَ إليه بهذه الأحرف، والسر الذي وُضِعت هنا من أجله، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوقظ الأسماع ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب.



٢- **التنويه بالمقصود:**

وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جملٌ ثلاث:

أما أولاهن فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتابًا بالقياس إليه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

وأما الأخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان. أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل. أو ليس كمال هذا الحق أن يكون نيرًا لا يثير شبهة. أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك أن يكون ذلك الحق مما تمسُّ إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم السبل وتفرقت المسالك. فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث: فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه، بل هو الحق اللائح الذي لا شبهة باطل فيه، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾.

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه.

وكذلك المربي الصالح «يبدأ» خطابه الجليل الشأن باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم «ويثنّي» باتخاذ الوسائل المشوقة التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة.

٣- **بيان أثر القرآن في المؤمنين:**

أول ما تتشوف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهداياته هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته. فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث: فئة تؤمن به، وأخرى كافرة، وثالثة مترددة حائرة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فكيف ترى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس؟ أيجعل الحديث عنهم حديثًا مؤتنفًا ائتنافًا بحتًا؟.. أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله؟

شيءٌ من ذلك لم يكن. ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين مزجًا عجيبًا يدع أدق الناس فطنة لتصريف وجوه القول لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال. ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخيرتين، بل أعرض عنهما، كأن القرآن لم ينزل من أجلهما، ثم عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلاً: إنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾، فكانت هذه «اللام الجارة» هي المعبرة السرية التي انزلق عليها الكلام وانصب انصبابًا واحدًا إلى نهاية الحديث عن المؤمنين.

٤- الحديث عن الكافرين:

ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريبة فيه – حريًا في بادئ الرأي أن يعدَّ من المفارقات التي تثير في نفس السامع أشد العجب، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها؟!

ومن جهة أخرى فقد كان موقف هذا النبي الرحيم ﷺ في جده البالغ في دعوة أمته، وحرصه الشديد على هدايتهم، مصورًا له في عين من يراه بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين، الظان أن هذه الأمنية ستصبح في متناول يده متى أخذ في أسبابها العادية، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه الهداية إلا أن يصل صوت القرآن إلى آذانهم فإذا هم مسلمون. ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ويقول: إن الذي سينتفع بهداه إنما هم المتقون. فكان هذا التحديد مظنة لأن يبتهل الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً: «سبحانك اللهم»، ولم لا يهتدي به الناس أجمعون!

وجب إذًا أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد، مريحةً للنفس



من طلب ما لا سبيل إليه، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن، بأسلوب ينزّه القرآن نفسه عن شائبة القصور، ويرد النقص إلى قابلية القابل لا إلى فاعلية الفاعل، وهل يَغُض من مهارة الطبيب أن يُعرض المريضُ عن تناول الدواء منه فيموت بجهله؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العُمي أو المتعامون؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنى، إلى الكافرين الذين حقَّت عليهم كلمة العذاب، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر، إذًا لعطف أحدهما على الآخر، بل على وجه يبني فيه بعض الكلام على بعض، إجابة لهذا السؤال الذي نطقت به الحال، وإزالة لذلك التعجب الذي أثاره سابق المقال. وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البياني.

٥- الحديث عن المنافقين:

وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته، فالضم الشكل إلى شكله، وعطفت الطائفة الثالثة على أختها؛ لأنهم في التجافي عن الهدى مشتركون، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

٦- التقابل في الحديث عن الطوائف الثلاثة (المؤمنين، الكافرين، المنافقين):

وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل، فقد اشتمل الحديث في كل طائفة على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط: وصف الحقيقة الواقعة، فبيان السبب فيها، فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة.

«فحقيقة» الطائفة الأولى أنهم قومٌ حصَّلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي. «وسبب ذلك» استمساكهم بالهدى وإمدادهم بالتوفيق من ربهم «ومآل أمرهم الفوز والفلاح».

«وحقيقة» الطائفة الثانية أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان، وأنهم مُصِرُّون على ذلك إصرارًا لا ينفع معه إنذار. «والسبب» عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم، فلهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها. «وعاقبة أمرهم العذاب العظيم».

«وحقيقة» الطائفة الثالثة صفةٌ مركبةٌ من ظاهر خير وباطن سوء. فهم يقولون بألسنتهم: إنهم مؤمنون، وليس في قلوبهم من الإيمان شيء. ولكل من الوصفين «سببٌ» «وجزاءٌ» أما دعواهم الإيمان فسببها قصد المخادعة، وجزاء الخداع عائد إليهم. وأما إسرارهم الكفر فسببه مرض قلوبهم، وجزاؤه زيادة المرض والعذاب الأليم.

وكما بين في الطائفة الثانية أنها بلغت من الإصرار والغباوة مبلغًا لا يجدي معه الإنذار، بَيَّن في الطائفة الثالثة أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغًا لا ينفع فيه نُصح الناصحين. فهم المفسدون ويزعمون أنهم المصلحون، وهم السفهاء ويزعمون أنهم الراشدون. ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم.

ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفة الأولى بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح، ختم الكلام في شأن الطائفتين الأخريين بأن سجل عليهما[1]، وصف الضلالة والخسران.

---

(١) مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ مشاربه إلى أقرب الطائفتين في الذكر، وهم المنافقون، ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه راجع إلى الكفار مطلقًا، وهذا هو الذي عوَّلنا عليه؛ لأنه أقعد في المعنى وفي النظم. أما في المعنى فلأنه لا واسطة بين الهدى والضلالة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. وإذا كانوا كلهم عن الهدى ناكبين، وفي الضلالة مشتركين، فتخصيص الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعها إلى الجميع صريحًا تخصيص بغير موجب. وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ثم به يتم جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها، ثم تفريقها ثم جمعها. فقد رأيته يفرّق الطائفتين في أوصافهما الخاصة، ثم يجمعهما في هذا الوصف المشترك. وستراه يعود إلى تفريقهما في ضرب الأمثال، ثم يجمعهما مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

٧- التمثيل القرآني لطائفتي الكافرين والمنافقين:

على أن هذه الأوصاف التحقيقية للطائفتين لم تكن وحدها لتشفي النفس من العجب في أمرهم، فالعهد بالناس أنهم إنما يختلفون في الأمور الغامضة لا في الحقائق البينة، فاختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحه يعد شاذًّا عن العادات الجارية، محتاجًا إلى وصف تمثيلي يقربه من المشاهد المحس، حتى يطمئن القلب إلى إمكانه.

لذلك ضرب الله لكلتا(١) الطائفتين مثلاً يناسبها.

فضرب مثلاً للمصرّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم نارًا يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح

---

(١) لعلك ترى هنا شيئًا من المخالفة لكلام المفسرين، إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصة، وجعلناهما موزعين على الطائفتين، نشرًا على ترتيب اللف. ولكنك إذا رجعت بنفسك إلى أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده. فهؤلاء القوم الذين ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾. وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب، هل ترى فيها تصويرًا لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني؛ حيث يتعاقب في الظلام والنور، الوقوف والمسير. وكذلك ترى في المثل الثاني قومًا لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلوب والحواس.

نعم، يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا ضممنا إليه ضميمة. ذلك بأن تقول: إن المثل الأول يصوّر حال المنافقين في بواطنهم، وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار. والمثل الثاني يصور حالهم في ظواهرهم، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعي؛ لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا الباطن. غير أن هذه الدعوى أيضًا محل نظر، إذ ما يدرينا، لعل نوع الكفر الذي يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخيلته بخلاف النوع الأول، وهو كفر المجاهرين، فهو طبيعة واحدة مصممة، حسبما تشهد به وحدة آثاره.

بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لأمر ما سُلبوا نور أبصارهم وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة. فذلك مثل النور الذي طلع به محمد[1] ﷺ في تلك

---

(١) وهذا أيضًا غير ما ذكره المفسرون، فقد جعلوا مستوقد النار مثلاً «للمنافق الذي تكلف النطق بكلمة الإسلام خداعًا، فلم ينتفع بها إلا يسيرًا في دنياه، ثم قضى أجله وأفضى إلى عمله، فإذا هو في الظلمات والخسران المبين». هكذا اعتبروا الضمائر المجموعة في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ إلخ. عائدة إلى ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ بمراعاة معناه، بعد أن عادت إليه الضمائر المفردة بمراعاة لفظه.

ونحن لا نزعم بطلان هذا التأويل، ولا ننكر إساغة اللغة له. ولكن الوجه الذي عرضناه هاهنا في شرح المثل يجمع إلى صحته العقلية واللغوية أنه مستنبَط من النظم القرآني نفسه. ونحسبه مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليق بجزالته. فإن لم يكنه فليكن أحد الوجوه التي يحتملها القرآن.

أما كيف استنبطنا هذا المعنى من النظم فإليك بيانه:

لقد نظرنا إلى المثلين فرأينا الأسلوب فيهما يتجه اتجاهًا متوازيًا، إذ وجدنا في صدر كل منهما حديثًا عن شيء مفرد، وفي عجز كل منهما حديثًا عن جماعة، ثم نظرنا إلى المثل الثاني فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعًا إلى مرجع الضمير المفرد، بل هو راجع باتفاق المفسرين إلى أمر مفهوم من فحوى الكلام هو القوم الذين نزل عليهم الصيب (ومعلوم أن هذه التشبيهات المركبة التي ينظر فيها إلى مقابلة المجموع بالمجموع لا يعني فيها بالمقابلة اللفظية الأحادية لأبين ما قبل الكاف وما يليها على الترتيب: بل ربما يكون الاختلاف بينهما كما هنا أمرًا مطلوبًا للبلغاء في وجيز الكلام يقصدون به التنبيه من أول الأمر على ما سيحدث في التشبيه من طي وتقديم وتأخير، والتنبيه على أن المشبه به ليس هو مدخول الكاف وحده، وإنما هو قصة متعددة الفصول، هذا المدخول أحد فصولها ذلك ليبقى السامع محتفظًا بانتباهه وتشوقه إلى تمام الكلام الذي به يظهر له التطابق بين طرفي التشبيه، وبه يمكنه رد كل شيء إلى شبهه – هذا الضرب في أسلوب القرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [يونس: ٢٤]، قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩].

حينئذ عدنا إلى المثل الأول فقلنا: هل عسى أن يكون هو أيضًا سائرًا على هذا النهج حسبما يرشد إليه تعادل الأسلوبين؟ فيكون الضمير المجموع فيه ليس عائدًا إلى «الذي استوقد نارًا» بل إلى القوم الذين استوقدت النار من أجلهم، أليس السامع متى انتهى إلى كلمة (ما حوله) يزداد شعورًا بأن هنالك قومًا مشبهًا بهم؟ إذ سرعان ما ينتقل الذهن من المكان إلى السكان.. هذه الخطوة الأولى لم تلبث أن لحقتها الخطوات التالية: وهي أن النور الذي ذهب الله به إذًا كان هو نور أولئك القوم، ولم يكن هو ضوء النار التي استوقدها المستوقد فتلك النار إذًا لم تطفأ ولم يذهب ضوؤها فما يكون مضرب المثل بهذا الضياء الذي بقي هو وذهب غيره؟... ألا يكون هو ضوء الهداية الحقيقية التي أبى الله إلا أن يتمها ولو كره الكافرون. ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار؟.. ألا يكون هو الهادي الأعظم صلوات الله عليه.. فقد استوقد شعلة الهداية الإسلامية، أي عالج إيقادها أمام زوابع من الفتن وأعاصير من المقاومات العنيفة، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله رغمت بها =



الأمة الأمية على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأسًا، بل نكسوا على رؤوسهم ولم يفتحوا له عينًا بل خرّوا عليه صُمًّا وعميانًا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين بقوم جاءتهم السماء بغيث منهمر في ليلة ذات رعود وبروق. فأما الغيث فلم يُلْقُوا له بالاً، ولم ينالوا منه نيلاً. فلا شربوا منه قطرة، ولا استنبتوا به ثمرة، ولا سقوا به زرعًا ولا ضرعًا، وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم؛

= أنوف أعداء الحق، الذين أكل الجهل والحسد قلوبهم، فانطمست بصائرهم، وكانوا كلما ازدادت هي تألقًا وإشراقًا، ازدادوا هم ظلمة وانتكاسًا.

عند هذا الحد تمت أركان التشبيه، واستقام هذا المعنى الجديد على أنه احتمال يمكن فهم الآية عليه بحسب اللغة والعقل وبحسب معهود القرآن أيضًا في ضربه النور والضياء مثلاً للهدى والإيمان والظلمة والعمى مثلاً للجهل والكفران، بيد أن اتفاق التفاسير التي بأيدينا على جعل مستوقد النار مثلاً للمنافقين جعلنا نتهيب تأدبًا أن نضربه مثلاً للرسول الأمين، من غير شاهد يؤيد ذلك من الكتاب أو السنة... وما برحت هذه المخالفة التي تحيك في الصدر وتبعد اطمئنان القلب إلى هذا المعنى حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح في حديث النبي عن نفسه، حيث يقول ﷺ: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها». رواه الشيخان. نعم التمثيل به في الحديث من وجه غير الوجه الذي في الآية، ولكن هذا لا يضير، إذ المثل الواحد يُضرب لمعانٍ متعددة باعتبارات مختلفة، والذي يعنينا إنما هو وقوع التمثيل به للنبي الكريم ﷺ، وهو صريح في صدر الحديث كما نرى، فبذلك ازدادت النفس ركونًا إلى صحته.

وبعد فما بنا -علم الله- حب الخلاف ولا شهوة الإغراب، ولكنها أمانة العلم والنصيحة لكتاب الله تعالى حملتنا على أن نقول فيه أحسن ما نعلم؟ ثم شجّعتنا على أن نسجّل بالقلم هذا الذي قلناه بالفم، لنعرضه في الطرس على أنظار القارئين، كما عرضناه في الدرس على أسماع الطالبين، لعل هؤلاء واجدون فيه من مواضع النقد والتمحيص ما لم يجده أولئك. وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يمس أصلاً من أصول الدين ولا يحل حرامًا أو يحرم حلالاً لن يزال مفتوحًا لكل مسلم أعطاه الله فهمًا في كتابه، على شريطة القصد والأناة في سير العقل، ومع الاستضاءة في هذا السير بمصباحين من اللغة والشرع، على الحد الذي وصفنا، والمنهج الذي رسمنا. وبالله التوفيق.

ولذلك جعلوا يترصدونها، ويدبرون أمورهم على وفقها، لابسين لكل حالٍ لبوسها؛ سيرًا تارة، ووقوفًا تارة، واختفاء تارة أخرى.

ذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيثًا تحيا به القلوب، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة؛ ثم ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر وجعل لهم الأيام دُولاً بين السلم والحرب، وبين الغلب والنصر. فما كان حظ بعض الناس منه إلا أن لبسوا شعاره على جلودهم دون أن يشربوا حبّه في قلوبهم أو يتذوقوا ما فيه من غذاء الأرواح والعقول، بل أهمّتهم أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة، فحصروا كل تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغانم يمشون إليها، أو مغارم يتقونها، أو مآزق تقفهم منه موقف الروية والانتظار، وهكذا ساروا في التدين به سيرًا متعرّجًا متقلبًا مبنيًّا على قاعدة الربح والخسر، والسلامة الدنيوية.

فكانوا إذا رأوا عرَضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم (بروق) الأمل في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنبًا إلى جنب، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت (صواعقها) منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفرّوا من وجه العدو قائلين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أو رجعوا من بعض الطريق قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾. حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة بل اشتبهت عليهم الأمور وتلبّد الجو بالغيوم، فهنالك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولكن يلزمون شُقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

ذلك أبدًا دأب المنافقين في كل أمرهم: إن توقعوا ربحًا عاجلاً التمسوه في أيِّ



صفٌ وجدوه، وإن توقعوا أذى كذلك تنكَّروا للفئة التي يناهم في سبيلها شيء من المكروه. وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيدًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولي وجهه شطرها، هي قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم.

وليس يبالي حين يُقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعه

هنا تمَّت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه. ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن؛ فإن الشيء الذي يكون مُتبعوه هم أهل الهدى والفلاح، ومخالفوه هم أهل الضلال والخُسر لا يكون إلا حقًّا واضحًا لا ريب فيه.

فما هو ذلك الحق الذي لا يتبعه إلا مهتدٍ مفلحٌ، ولا يُعْرِض عنه إلا ضالٌّ خاسر؟ بل ما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال بالضياء الباهر والغيث الكثير؟

لا شك أن هذا كله تشويق أي تشويق لسماع الحقائق التي يدعو القرآن الناس إليها. فانظر على أي نحو ساق بيانها.

لقد كان ظاهر السياق يقضي بأن يقال: إن هذه الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه.. إلخ؛ جريًا على أسلوب الغيبة الذي جرى عليه في وصف الكتاب، وفي وصف الناس، ولكنه حوَّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

أتعرف شيئًا من سر هذا التحويل؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآن به الطوائف الثلاث «متقين وكافرين ومخادعين» قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال، فبعد أن كانوا غيبًا في

مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي عين، وفي مكان ينادون منه. فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجّه إلى الحاضرين في الحس والمشاهدة. هذا من الناحية العامة. وأما من الناحية الأخرى فإن هذه الأمثال البليغة التي ضُربت في شأن المُعرضين خاصةً قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة تبعث في نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم. حتى إنه لا يشفي صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم: أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلى طريق النجاة. وهكذا استعدت النفس أتم استعداد لسماع هذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الآيات إلى آخر المقصد الأول.

المقصد الأول من مقاصد السورة: في خمس آيات (٢١/ ٢٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

١- الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية:

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قويًّا موجهًا إلى العالم كله بثلاثة مطالب:

١- أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئًا.

٢- أن آمنوا بكتابه الذي نزله على عبده.

٣- أن اتقوا أليم عذابه، وابتغوا جزيل ثوابه.

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية، تراها قد بُسطت مُرَتَّبَة على ترتيبها الطبيعي. من المبدأ، إلى الواسطة، إلى الغاية. وترى كل واحد من الركنين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة. أما



الركن الثالث فقد جيء به مجردًا عن هذا النوع من البرهان، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان.

على أنك إذا أمعنت النظر في هذا الركن وجدته في غنى عن برهان جديد بعد تقرر سابقيه، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها.

أرأيت لو أن ملكًا عظيم السلطان نافذ الحكم وجّه إليك سفيرًا يحمل رسالة منه، وأيقنت أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه، أكان يعوزك برهانٌ جديد لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأنباء والنذر، بعدما وقر في نفسك من العلم بأنه كلام مَنْ إذا قال صَدَقَ وإذا وَعَدَ أَنْجَزَ؟

فكذلك ترى الحديث هنا عن السمعيات جيء به مفرّعًا على ما تقرر في أمر النبوات، وبضرب من التخلص هو غاية في الحسن والبراعة، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾.

عود على بدء: في أربع عشرة آية (٢٦-٣٩):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى
بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا
فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى
جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ
عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ
وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

١ - وصف طريقة القرآن في الهداية:

فكان من الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهداية، ليقول: إنها هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء، فانظر كيف مَهَّدَ لهذا الانتقال تمهيدًا يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع:

أما المقدمة فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفًا شافيًا ضرب للناس أمثالهم، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم.

وأما المقصود فقد بيَّن فيه أن الله وحده المثل الأعلى الذي لا يشاركه فيه شيءٌ من الأنداد، ثم وضع فيه الفيصل بين النبي والمتنبي بتلك المعجزة العالمية التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين، ومثل الجنة التي وُعِدَ المتقون.

فتراه قد تناول في هذه الأمثال ضروبًا شتى من الحقائق، علويةً وسفليةً، ماديةً ومعنويةً.. حتى كانت نهاية الحديث أنْ عَرَضَ ما في الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية، تلك المعاني التي قد يستحيي المرء من ذكرها، وقد يخالها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحيي من الحق، وأنه الرحيم الذي يتنزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية؛ فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون، ومما يرجون أو يحذرون.

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته، فهو يضرب الأمثال كلها، ويبين



الحقائق حُلوها ومُرها، واضعًا كل شيء في موضعه، مسمّيًا له باسمه، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

حقًّا إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل والضار والنافع شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات. كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً قد جرَّ هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته، وإلى النعي على من أعرض عنه، كذلك وصف طريقته في الهداية قد جرَّها هنا إلى مثل هذا التقسيم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾، وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وكما أن بيان أوصافهم هناك قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرّك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفزَّ النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار... ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾.. الآيات.

٢- عود الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة، ولكن في ثوب جديد:

(أما في الركن الأول): فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله، وتسمعه هنا ينهى عن الكفر بالله.

وهناك ذَكّرَهُم بنعمة إيجادهم مجملة، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل.

(وأما فى الركن الثاني): فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ﷺ، وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم، لنعلم أن نبينا لم يكن بِدعًا من الرسل، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان. وقد مهّد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك

النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري؛ إذ اختاره الله لخلافة الأرض وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم. ليكون الامتنان بذلك جاريًا مع الامتنان بالنعم المذكورة في الركن الأول على أحسن نسق، ثم اتصل من هذا التفصيل إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ومخادعته إياه بوسواسه، وما انتهى إليه أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما، وابتلاء ذريتهما بالتكاليف. وهو -كما ترى- حديثٌ يطلب بعضه بعضًا، ويأخذ بعضه بأعناق بعض.

(وأما في الركن الثالث): فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بما لهما من وصف رائع أو مروع، وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلهما ناظمًا وضع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد، ومتخلصًا أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى.

ولقد ختم الكلام هنا -كما ختمه في المقدمة- بشأن المخالفين؛ تمهيدًا للانتقال مرة إلى نداء فريق منهم ودعوتهم إلى الإسلام وهو المقصد الثاني.

المقصد الثاني من مقاصد السورة: في ثلاث وعشرين ومائة آية (٤٠-١٦٢):

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ
بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ
ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞
أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا
لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ
أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ
مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ
وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ
فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ



عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ
ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم
مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا
نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟
بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا
مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى
ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا
عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم
بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ
اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن
دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ
أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ
مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا
بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ
اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ
فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ
بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ
قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا
إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ

رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ
ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ
أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم
بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا
لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ
رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ
ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ
هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ
رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ
ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا
كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ
أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ
أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ



يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا
مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن
يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ
لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ
فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ
بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ
أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ
تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ
﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ
إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟
عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا



تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا
لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَن
يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)
أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ
فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ
الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة: ٤٠-١٦٢].

المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل:

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم. بحسبك أن تعلم هذا وذاك لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة، نعني دعوة بني إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة، ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة، والحديث عنهم تارة أخرى، بألوان تختلف هجومًا، ودفاعًا، واستمالة، واستطالة، إلى ما بعد نصف السورة.

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلةً مرحلةً ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها.

- إجمال الحديث عنهم:

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ

يَعْهَدِكُمْ وَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله: ففيها يناديهم بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

- تفصيل الحديث عنهم:

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصّلها على تدرج وبقدر معلوم فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وبيّن مقدار النعمة التي امتنّ بها عليهم في آية (٤٧) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ومقدار المخافة التي خوّفهم منها في آية أخرى (٤٨) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

(القسم الأول): يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام.

(القسم الثاني): يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.

(القسم الثالث): يذكر فيه أوّلية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.

(القسم الرابع): يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.

١- ذكر سالفة اليهود (٤٩ - ٧٤):

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ



عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا
عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا
ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا
سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا
خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ
أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا
بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ
فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩-٧٤].

استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات يُعرِّف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة. وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكّرهم بأيام الله فيهم؛ يوم أنجاهم من آل فرعون، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم واعدهم

بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه. وإنها لنعم جليلة -سابقة للذنب ولاحقة- تلين بذكراها القلوب، وتحرّك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره.

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المطمعة للشاكرين في المزيد، إلى تذكيرهم بجرائمهم وما حاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتثال والاعتبار جعل بين الحديثين برزخًا مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به، بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاتة يسيرة، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا، فبين أنه -تعالى- متَّعهم فوق هذا كله متاعًا حسنًا؛ إذ ظلل عليهم الغمام، ورزقهم من الطعام والشراب رزقًا هنيئًا من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لا كدٌّ ولا نصب. فظلموا أنفسهم وبطروا تلك النعمة وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزوًا ولعبًا، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء، فألزمهم الله ما التزموا، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وهنا مَحَّضَ الحديث لذكر المخالفات والعقوبات، فذكر أنهم باءوا بغضب من الله؛ لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا النبيين، (غير أنه استثنى المؤمنين منهم من هذا الغضب) وتمردوا على أوامر التوراة جملة حتى أُرغموا عليها، ثم تولوا عنها بعد ذلك حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت لولا فضل الله عليهم، وأنهم تباطأوا في تنفيذ أمر نبيهم، وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا في بعض تبليغه عن ربه أنه هازلٌ فيه غير جاد.

حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني (٧٤):

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم، بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال فيه هذه الآية التي ختم بها القسم الأول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، فقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كلمة حدَّدت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد



نهايته، كأنه بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع، حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر، ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة، بصيغة الجملة الاسمية في قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ دون أن يقول: فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئةً لتغيير الأسلوب فيهم، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابيًا عن الحكمة، ويصير جديرًا بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلبٌ سليم. وهكذا سينتقل الكلام من الحديث معهم في شأن سلفهم إلى الحديث معنا في شأنهم أنفسهم.

٢- ذكر اليهود المعاصرين للبعثة (٧٥-١٢١):

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا
عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ
اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن
دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن
دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ
أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ

وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ
مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟
بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ
فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ
ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ
مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ
ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ
وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ
عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا
نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟
رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ
كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ



مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾
وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ
يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ
إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ
فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا
يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ
قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ
﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ
ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ
بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥-١٢١].

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخباري، جملةٌ استفهاميةٌ يكتنفها حرفان عجيبان: «أحدهما» يُعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول، «والآخر» يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم. وتقع هي بين التاريخين القديم والحديث موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة، بين أسباب مضت وأسباب تأتي: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾. فهذه الفاء تقول لنا: أبعد كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث؟ وهذه الواو تقول هذا: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي، فيقص علينا من مساوئ أوصاف الحاضرين منهم ومنكرات أفاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سببًا لا تُبقي مطمعًا

لطامع في إيمانهم، سواء منها ما كان مختصًا بهم، وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم، أو من النصارى أو الوثنيين.

ثم لا يدع زعمًا من مزاعمهم إلا قفَّى عليه بما يليق به من الرد والتفنيد.

(وقد بدأ هذا الوصف) بتقسيمهم إلى فريقين: علماء يحرفون كلام الله ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم لئلا يكون حجة عليهم. وجهلاء أميين هم أسارى الأماني والأوهام، وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماؤهم، فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة جاهلها مضلَّلٌ مخدوعٌ يأخذ باسم الدين ما ليس بدين، وعالمها مضلِّلٌ خادعٌ يكتب الكتاب بيده ويقول هذا من عند الله؟!

(وَثَنَّى) ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة، ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة. ولقد أمر النبي ﷺ أن يُوسِع هذا الزعم دحضًا وإبطالاً، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم؛ فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا. ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذي لا يعرف شيئًا من الظلم ولا المحاباة لأحد، بل الخلق أمامه سواء: كل امرئ رهين بعمله، ومن يعمل سوءًا أو حسنًا يجز به. ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبينًا لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم: ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟ ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض، وحكَّمتم أهواءكم في الشرائع، فكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم.

(ثم أتبع ذلك سائر هناتهم) فذكر:

١ - تصامُمهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مقفلة.

٢ - كفرهم بالكتاب الجديد لأنه أنزل على غيرهم، بعد أن كانت أعناقهم مشرئبة إليه ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين.



٣- دعواهم القيام بواجبهم وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم، وتلك شنشنتهم منذ عبدوا العجل وأشربوا حبّه في قلوبهم.

٤- زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك بكراهتهم الموت وشدة حرصهم على الحياة.

٥- عداوتهم لجبريل؛ لأنه أنزل الكتاب على غيرهم، مع أنه إنما أنزل بعلم الله.

٦- تكرار نبذهم للعهود.

٧- اشتغالهم بكتب السحر وترك كتب الله وراء ظهورهم.

٨- لَيُّهم ألسنتهم في خطاب الرسول ﷺ بكلمة[1] تنطوي على الاستهزاء به والطعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له، أو يراد منها إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات كما سئل موسى من قبل (وقد سيق هذا في قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة).

٩- حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين وكراهيتهم أن ينزل الوحي على غيرهم، مع أن الله يختص بنبوته من يشاء، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها.

---

(١) هي قول «راعنا» وهي كلمة ظاهرها الأدب، ولكنها في العربية لها معانٍ أخرى حمقاء. وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها؛ فإن لفظ (رع) عند اليهود معناه شقي شرير. ولفظ (راع) معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم «راعينو»، ومعناه في الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا.. ولعلهم والله أعلم كانوا يلوون ألسنتهم في النطق بها ليقربوها من الصيغة العربية سترًا لنيتهم واكتفاء بالرمز المفهوم فيما بينهم. فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول ﷺ بقول (انظرنا) حتى لا يجد المنافقون سبيلاً إلى التلاعب بلفظٍ ذي وجهين، أو أيضًا فإن (راعنا) كلمة يقولها السائل المستقصي يطلب بها إصغاء المسؤول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته، وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال. فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا إلى السؤال، وأن يقولوا (انظرنا) وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له لا الزيادة عليه.

١٠- رغبة كثير منهم في أن يردّوا المؤمنين كفارًا.

١١- زعم كل من اليهود والنصارى أنه لا يدخل الجنة غيرهم. أماني يتمنونها بغير برهان.

١٢- طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وطعن المشركين في كلتيهما.

١٣- اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله.

١٤- اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه.

١٥- اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل - عليهم السلام - حتى يكلمهم الله بغير واسطة أو ينزل عليهم آية ملجئة.

(ثم ختم هذه الهنات) بِأَدْعَاهَا إلى اليأس من إيمانهم، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول ﷺ نفسه إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو في استتباعهم إلى هداه؟ كلا ولكن حسبه أن الراسخين في العلم منهم وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذي جاء به، والكافرون هم الخاسرون.

٣- ذكر قدامى المسلمين من لدن إبراهيم (١٢٢-١٣٤):

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن
نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ
مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ
قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي

ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٢-١٣٤].

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة، وكذلك الداعي الحكيم يبدأ بالنفوس فَيَلْوِيها عن الباطل والفساد، ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى. فهذان دَوْرَان يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية، وفي الثاني بالتكميل والتحلية، وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه، ورأيته قد أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول: أليس من الحق إذًا أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه.

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله والعلم الذي علّمه لنبيه وذكر الفريق الذي يُرجى إيمانهم به من أهل الكتاب، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، أليس هذا الاختتام نفسه مطلعًا تشرف النفس منه على هذا الافتتاح؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسمًا إلى قسمين؛ قسمٌ يتحدث فيه عن ماضي اليهود، وقسمٌ يتحدث فيه عن حاضرهم. ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين. عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم؟

ذلك هو ما تراه فيما يلي:

بل سترى ما هو أتم مقابلة ومشاكلة، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بني إسرائيل، والكلام في القسم الثاني على سنن التحدث عنهم، كما جرى هنالك في القسمين سواء.

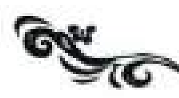
وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدر بهما أول الحديث هناك قد صدر بهما أول الحديث هنا؛ ليدعوهم إلى اعتناق الحق بمثل ما دعاهم به إلى اجتناب الباطل، وليتقرر في نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق، وبمعنى جديد هو عدلٌ لذلك المعنى القديم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ... ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾.

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذي جُرِّب من قبل فلم ينجع فيهم، بل بأسلوب قصصي جذّاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم -عليه السلام- وأبنائه وأحفاده في العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها (مكررًا على لسانهم جميعًا تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه، فتوارثها أبناؤه وأحفاده يوصي كل منهم بها بنيه، كلمة «الإسلام لله رب العالمين».

وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم -عليه السلام- وإمامته للناس لا ينسى أن يحكي كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إمامًا للناس كما جعله هو.

ثم تراه حين يروي قيام إبراهيم وابنه وإسماعيل ببناء البيت المعظم الذي جعله الله حرمًا آمنًا ومثابة للناس وقبلة لصلاتهم، لا ينسى أن يحكي تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم ويزكيهم.

ممهدًا بهذا وذاك لتقرير تلك الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذَيْنِك النبيين الجليلين. لا صلة البنوة النسبية فحسب، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية أيضًا، فهم من ذريتهما، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما، وملتهم ملتهما؛ وقبلتهم قبلتهما، ومثابتهم في حجهم مثابتهما.



ومقرِّرًا في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب، وهم عن ملتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون. فماذا يغني النسب عن الأدب؟ ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٤- ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة (١٣٥-١٦٢):

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا
آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا
أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ
اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ
اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ
لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ
قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ
أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ
مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا
قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي

أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ
وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ
رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن
شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ
﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ
وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٦٢].

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف، وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح، فأقبل يقرر -في جلاء- صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها، وفي أهم فروعها، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى، وَيَكِرُّ على كلتا المحاولتين بالهدم والاستئصال.

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قِبْلَتِهِ فانظر كيف كان ذلك تأسيسًا قويًا لما يبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم.

قال في شأن الملة: إن أهل الكتاب يدعونكم -بعد هذا البيان- أن تكونوا هُودًا أو نصارى. فقولوا لهم: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا، وعرفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية، وأنها إيمان بالله وإيمان بكل ما أنزل على النبيين، لا نفرق بين أحد منهم، هذه عقيدتنا بيضاء ناصعة، فأي ركنيها تنقمون منا؟ وفي أيها تخاصموننا؟ أفي الله وهو ربنا وربكم، أم في إبراهيم وبنيه، وهل كانوا هُودًا أو نصارى ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وكان هذا الترديد وحده كافيًا لإفحامهم وإغلاق الباب في وجوههم من هذه



الناحية؛ إذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن تقبل الجدال في شيء منها.

فانتقل عنها وشيكًا إلى إبطال محاولتهم الأخرى في مسألة (الكعبة المعظمة) التي عليها يدور العمل بشعيرتين، هما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها (الصلاة والحج)، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مثابة ومصلى. ولكن هذا لم يكن كافيًا لإسكات المجادلين الذين اتخذوا مِن تحوُّلِ المسلمين إليها وتركهم القبلة التي كانوا عليها مطعنًا على النبوة فتنوا به بعض ضعفاء المؤمنين، فمست الحاجة إلى مزيد بسط في شأنها تَتَقَرَّر به الحجة وتُدْحَض به الشبهة، ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته:

فيأمر النبي ﷺ بادئ ذي بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل جواب عزة وإباء، يرد الأمر فيه إلى مَن لا يسأل عما يفعل، قائلاً لهم: إن الجهات كلها سواء، يوجّهنا الله منها إلى ما يشاء، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

ثم أخذ يأمر النبي ﷺ تارة، والمؤمنين تارة، ويأمرهما معًا تارةً أخرى، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم، وفي كل مكان يقيمون فيه حضرًا، وفي كل مكان يخرجون منه سفرًا.

وطفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد، فيقول: إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختبارًا لإيمان المهاجرين؛ ليتبين من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوي على الحِكَم البالغة والمقاصد الجليلة، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيتها الأمة الوسطى، وهي القبلة التي ترضاها يا أيها النبي والتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفًا إلى الوحي بها، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم، وإن كانوا يكتمون ذلك حسدًا وعنادًا، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده، وأخيرًا هي القبلة التي لا يبقى لأحدٍ من المنصفين

حجة عليكم. أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم، ولكن لا تخشوهم، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم في هذه السبيل؛ فإن الموت فيها هو الحياة الباقية. ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدًّا عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صدّ عما حوله من الشعائر ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون.

أرأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل كيف رتّبها مرحلة مرحلة، وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة.

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين. فهي في جملتها مناجاة من الله للنبي والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعنيهم من أمر دينهم، ولكنه جعل لهذه النجوى طرفين، لَوَّنَ كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به، فالتقى المقصدان فيها على أمرٍ قد قُدِرَ.

ألم تَرَ كيف بدأها بأن قصَّ على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها، فجعل يمسح غبار الشُّبهة عن وجهها حتى جلاها بيضاء للناظرين. فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التي حُورب فيها الباطل في كل ميدان.

ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية، ويحرِّضهم على الاستمساك بها في غير ما آية... أفلا تكون هذه

النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة.

بلى... إن ذلك هو ما توحي به سياقة هذه النجوى المتواصلة، التي مدت في خطاب المؤمنين مدًّا. وحولت مجرى الحديث معهم رويدًا رويدًا، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها مليًّا، يسمع في طيها نداءً خفيًّا: أن فرغنا اليوم من الأعداء جهادًا، وأقبلنا على الأولياء تعليمًا وإرشادًا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتتح كتاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تك إلا طليعة من كتائب الحق، تفيد أن سيتلوها جيشه الجرار، أو شعاعةٌ من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار، ألا ترى الميدان قد أصبح خاليًا من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك. هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكزًا؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضًا أصول جامعة نظرية، تتبعها طائفةٌ من فروعها الكبرى العملية.. ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضحاها؟

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة. فلو أنها أقبلت علينا الآن عدًّا وسردًّا ما حسبنا الحديث عنها حديثًا مقتضبًا.

لكن القرآن، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس، لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفيًا بهذا التمهيد، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد. وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد. فانظر فيما يلي:

المدخل إلى المقصد الثالث: في خمس عشرة آية (١٦٣-١٧٧):

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ
يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ
بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ
(١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن
تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٧٧].

نيّف وعشر من الآيات الكريمة، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث:

(الخطوة الأولى): تقرير وحدة الخالق المعبود.

(الخطوة الثانية): تقرير وحدة الأمر المطاع.

(الخطوة الثالثة): فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة.

(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود:

لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها، فإن

ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا والمروة كان من شأنه أن يُلقي في روع الحديث العند بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ولاسيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءةً للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها؛ فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد، وألا نترك هذه الخلجات النفسية دون دفع وإبعاد، حتى لا يبقى شكٌّ في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجوههم نحو الكعبة، وتمسح الطائفين بأركانها، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار والآثار؛ تزلفًا بعبادتها أو رجاء لرحمتها أو طلبًا لشفاعتها، وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظانِّ بركته التي تنزلت فيها على عباده الصالحين من قبل، ثم تجديد ذكرى أولئك الصالحين في النفوس، وتمكين محبتهم في القلوب، باقتفاء آثارهم، والتأسي بحركاتهم وسكناتهم، حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها، وحتى تنتظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد، وتتجه إلى مقصد واحد هو أغلى المقاصد وأسماها ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أتدرون ما هو...؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروة، وليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم، ولكنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، والذي بيده القوة كلها والبأس كله: لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

هذا من جانب المقصد الذي وقع الفراغ منه.

وأما من جانب المقصد الذي أقبلنا عليه فإن هذه الخطوة كانت أساسًا وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية، لتكون توجيهًا للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يُتَلَقَّى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام. ذلك أن المرء إذا

عرف له سيدًا واحدًا وأسلم وجهه إليه وجب ألا يَصْدر إلا عن أمره، ولا يأخذ التشريع إلا من يده. ومن كانت له أربابٌ متفرقون، وتنازعت فيه شركاء متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع. فأمرٌ للآباء والعشيرة، وأمرٌ للعرف والعوائد الموروثة والمستحدثة، وأمرٌ للسادة والكبراء، وأمرٌ للشياطين والأهواء.. ولذلك عززها بالخطوة الثانية.

(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع:

وهي ركن عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن مِن أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أن لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرَّمه الله، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر. وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر غيره، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية.

«فبدأها» بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملائمتها للفطرة، إذ إنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء كلها رجس خبيث، وأحل لهم ما وراء ذلك أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تنقلب مباحات مرفوعًا عنها الحرج ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وناهيك بهذا الأسلوب تليينًا للقلوب وحملاً لها على الخضوع لأمر هذا الرب الرءوف بعباده. أفمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث أحق أن

يطاع، أم مَن ﴿يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

(ثم ختمها) بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامه ممن يكتم أمره ونهيه ويبدلهما بغير ما أمر ونهى، ويأخذ على ذلك الرشا والسحت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل في وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة.

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سيتنقل إليها الحديث عما قريب، فذكره هاهنا يعد شعارًا بقرب الشروع في المقصد الجديد، ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالاً تاريخيًا وثيقًا بعقيدة التوحيد التي هو بصددها، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنيين وكتابيين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة. فجعلوا يُحَرِّمون من الحرث والأنعام حلالها ويُحِلُّون حرامها، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يهلون بها لغير الله -يهتفون بأسماء آلهتهم- ويستحلون طعمتها بذلك، فجمعوا فيها بين مفاسد ثلاث: المعصية، والبدعة، والشرك الأكبر.

كأن باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فُتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله، ولذلك كان هو أول باب سدّه القرآن بعد باب الشرك الأكبر. فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تاليًا لذكر العقائد حتى

في السور المكية كسورة الأنعام[١]، والأعراف، ويونس، والنحل، وغيرها.

ومما زاد موقعه هنا حُسنًا أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر ملة إبراهيم، فكلاهما فرعٌ عظيم يتصل بأصل عظيم. ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره. كما يتميز بالشهادة والصلاة: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله»[٢].

على أن بدعة التحريم بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة، بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كادت تصيبهم عدوى الأمم قبلهم؛ إذ هموا أن يترهبوا، ويُحرّموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره، لا تحريمًا لما أحلَّ الله منها؟ بل زهادة فيها وحملاً للنفس على الصبر عنها بضرب من النُّذُر أو اليمين أو العزيمة المصمّمة، فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابه إغلاقًا، حتى لا يكون مدرجة لما وراءه. ونبَّههم أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحل لهم، قيامًا فيه بشريعة الشكر، كما نزلوا على حكمه فيما حرم عليهم قيامًا فيه بشريعة الصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

---

(١) قرأ في سورة الأنعام سبعًا وعشرين آية أولها قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآيات [١٣٦-١٥٣]، وفي سورة الأعراف قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ الآيتين (٣٢، ٣٣)، وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الآية: ١٦٩]، وفي سورة يونس قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [الآيتين: ٥٩، ٦٠]، وفي سورة النحل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [الآية ٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ [الآيتين: ١١٥، ١١٦].

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك، ك / الصلاة، ب / فضل استقبال القبلة يستقبل بأطراف رجليه (٣٧٨). رواه مسلم عن البراء، ك / الأضاحي، ب / وقتها (٣٦٢٦)،

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولواحقه توطئةً لخطاب المؤمنين خاصة به وبما سيتلوه من الأحكام، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان توطئة لما تلاه من خطاب بني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلبًا وقالبًا. هل ترى أحسن من هذا النسق المتقابل المتعادل؟

والآن، وقد أخذت النفس أُهبتها لِتَلَقَى سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطا إليها الخطوة الثالثة والأخيرة.

(الخطوة الأخيرة) إجمال الشرائع الدينية:

وترى فيها عجائب من صنعة النسق:

١- انظر إلى حسن التخلُّص في ربطه بين المقصد القديم، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظًا، وبه ينفصلان حكمًا.. فهو في جمعها لفظًا كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيتهما عند أول المستقبل. ولكنه في تفريقها حكمًا بأداتي النفي والاستدراك، كأنما يحول قدميك جميعًا إلى الأمام: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ...﴾.

يقول: إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات -تلك المسألة التي شغلت بال المخالفين والمؤالفين نقدًا وردًّا- ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر، بل هي شعبة واحدة من جملة الشُّعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها، نظرية وعملية، في معاملة المخلوق، وعبادة الخالق. وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها فليشتغل المؤمنون الصادقون.

٢- ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يقبل عليها دفعة واحدة، بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين، فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون

التفصيل هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان، ولشرائع الإسلام ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾.

٣- وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة، فتراه هنا يجمع بين الطرفين «الإيمان بالله واليوم الآخر» وختم بالواسطة «الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين»؛ ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية، وعن يدها تؤخذ، فأخرها لتتصل بها تلك الأحكام؛ حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائلٌ؛ ولذلك راعى ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها. فَصَدَّر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثَنَّى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثَلَّثَ بالنبيين وهم مهبط الوحي. ومن هنا اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة.

المقصد الثالث من مقاصد السورة: في ست ومائة آية (١٧٨-٢٨٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا
سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)
أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ



ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم
بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ
وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾
وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا
أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ
وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ
ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن
يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ



ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ
ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ
ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ
أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ
يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن
مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ
يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ
لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا
تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا
يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ
بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ
مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ
إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ
بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ
أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم
مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ
سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن
يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا
فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى
يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن
دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ



وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا
عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ
وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ
ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ
إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ
إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ
مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ
رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى
وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ
مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ
أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ
عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي
مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ
يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ
ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ
يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ
ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ
﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن
لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾
وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا
تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم

بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨-٢٨٣].

بعد إصلاح العقيدة... تفصيل الشريعة:

بعد إرساء الأساس، تكون إقامة البنيان؛ وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج، يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل...

نعم، لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره؛ فليبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله.. لقد أزيلت شبهة المعاندين، وأقيمت الحجة عليهم؛ فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين، وإيضاح المحجة بين يديهم.. كانت العناية من قبل موجَّهة إلى بيان (حقائق الإيمان)، فلتتوجه الآن إلى بسط (شرائع الإسلام).

وأنت فقد رأيت كيف مهَّدت السورة لهذا التحول؛ إذ وضعت برزخًا يربط أطراف الحديث، ويلتقي فيه سباقها وسياقها.. ولو أنك تَلَفَّتَ الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها: النظري، والعملي؛ ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك، هو هذا الشطر العملي.

فاعلم الآن، أن هذا الشطر العملي، الذي لمحناه من قبل مطويًا في فهرس

موجز، سنراه فيما يلي مبسوطًا في بيان مفصل.

ففي نيف ومائة آية، سنرى فنًّا جديدًا من المعاني، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم في شتى مناحي الحياة في شأن الفرد، وفي شأن الأسرة، وفي شأن الأمة.. بيانًا مؤتنفًا تارة، وجوابًا عن سؤال تارة أخرى، متناولاً في جملته عشرات من شُعب الأحكام.

هذه الحكمة العامة في تأخير إقامة البنيان، ريثما أرسيت قواعده، وفي تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها، ستبدو من ورائها حِكم جزئية، وأسرار دقيقة، لمن أقبل على هذه الفروع، ينظر إلى تلاصق لبناتها في بنيتها، وتناسق حياتها في قلادتها، ثم رجع ينظر في وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق، وهذا التفصيل اللاحق.

فلنأخذ في استعراض الحلقات الرئيسة لهذه السلسلة الجديدة:

الحلقة الأولى: خلة الصبر:

لقد ختمت آية البر كما رأيت، بخصلة من خصال البر، مُيِّزت في إعرابها تمييزًا، فكان ذلك تنويهًا بشأنها أي تنويه.. تلك هي خلة الصبر، التي شَعَّبَتْها الآية المذكورة إلى ثلاث شُعب: الصبر في البأساء والصبر في الضراء، والصبر حين البأس.. فهل تعلم أنه الآن وقد بُدئ دور التفصيل، ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث، أول ما تُعْنَى السورة بنشره من تلك الخصال، وأنها ستنشرها نشرًا مرتبًا ترتيبًا تصاعديًّا على عكس ترتيب الطي: الصبر حين البأس، ثم الصبر في الضراء، ثم الصبر في البأساء.. وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدي نفسه سيتبع في سائر الخصال: الوفاء بالعهود والعقود. ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والبذل والتضحية في سبيل الله؟.. إليك البيان مفصلاً:

الصبر حين البأس (١٧٨-١٨٢):

لا تحسبنه هنا صبرًا على الجروح والقروح في الحرب، فذلك معنى سلبي

استسلامي؛ ولا تحسبنه صبرًا في البطش والفتك بالأعداء. فذلك جهدٌ علميٌّ إيجابيٌّ حقًّا. ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب. لا إلى قوة الخُلق والأدب «ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»(١).. هكذا سيختار الله لنا من مُثُل الصبر أمثالها، ومن موازينه أوزنها في معايير القيم، ذلك هو ضبط النفس حين البأس؛ كفًّا لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام، وردعًا لها عن الإسراف في القتل. ووقوفًا بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل (القصاص ١٧٨-١٧٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

وإذ كان تداعي المعاني يسوقنا من الحديث عن القتلى، إلى الحديث عمن هم بشرف الموت، ناسب تتميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برًّا بهم (الوصية ١٨٠-١٨٢) ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

الصبر في الضراء:

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها: ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق. ولكنه الصبر على الظمأ والمخمصة في طاعة الله (الصوم ١٨٣-١٨٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ

(١) البخاري عن أبي هريرة، ك / الأدب، ب / الحذر من الغضب (٥٦٤٩)، ومسلم عن أبي هريرة، ك / البر والصلة والآداب، ب / فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء (٤٧٢٣).

تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾، وينساق الحديث عن الصوم المؤقت عن بعض الحلال، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨) ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

الصبر في البأساء:

وعلى هذا النمط نفسه، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطراري على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية، ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال؟ إنفاقًا لها في سبيل الله. والمثال الذي يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج[1]، ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعًا؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال (الحج إلى بيت الله ١٨٩-٢٠٣) ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

---

(١) بل إن شئت قلت: إنه مثلث الألوان؛ لأنه سيدخل في ثناياه الصبر حين البأس في مجاهدة أعداء الله [١٩٠-١٩٥].

الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾، ولا تنس هاهنا أن تنظر إلى العبرة اللطيفة التي انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج.. تلك هي مسألة الأهلة التي جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعًا (١٨٩).

ولنقف بك هاهنا وقفة يسيرة، نشير فيها إلى شأن عجيب من شؤون النسق القرآني في هذا الموضع:

ذلك أنه حين بدئ بذكر الحج، لم تتصل به أحكامه ولاءً، بل فصل بين الشرع في الحديث عنه وحكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في قتال الأعداء (١٩٠-١٩٥).. فاصلة يحسبها الجاهل رقعة غريبة في ثوب المعنى الجيد.. ولكن الذي يعرف تاريخ الإسلام وأسباب نزول القرآن، يعرف ما لهذه الفاصلة من



شرف الموقع وإصابة المحز؛ لا لمجرد الاقتران الزمني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة؛ ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزمًا لم ينفذ، وأملاً لم يتحقق، إذ أُحصر المسلمون يومئذ عن البيت، وهمّوا أن يبطشوا بأعدائهم الذين صدّوهم عنه؛ ولولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا مَن قاتلهم فيه، فانصرفوا راجعين، مستسلمين لأمر الله، منتظرين تحقيق وعد الله.. فكذلك فلينصرف القارئ أو المستمع هاهنا وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل، كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة وهم إليها متعطشون، على أن يعودوا إليها من عام قابل.. هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكرًا خالدًا لتلك الأحداث الأولى.. وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية نطالع فيها صورة الحقائق من كل لون، نقتبسها طورًا من تصريح تعبيره، وطورًا من نهجه وأسلوبه في تعجيل البيان أو تأخيره. ثم كانت هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درسًا عمليًّا في صبر المتعلم على أستاذه، لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه؛ ولكن يتلبث قليلاً حتى يُحدِث له منه ذِكرًا في سعته الموقوتة.. وهكذا لن يطول بنا الانتظار حتى نرى أحكام الحج والعمرة تجيء في إثر ذلك على شوق وظمأ، فتشبع وتروى بالبيان الشافي الوافي (١٩٦ – ٢٠٣). وبتمام هذا البيان تتم الحلقة الأولى من الأحكام أعني فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

استجمامة (٢٠٤-٢١٤):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ
اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ
وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

يثبت القلوب على ما مضى، ويوطئ لها السبيل على ما بقي:

وشاءت حكمة الله وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره، ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية من فورنا هذا، ولكن بعد استرواحه فيها شيءٌ من الموعظة العامة. يُثَبِّت بها القلوب على ما مضى ويوطئ لها السبيل إلى ما بقي.. وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة التي ختم بها حديث الحج، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين؛ فريقٌ يطلب خير الدنيا ولا يفكر في أمر الآخرة، وفريقٌ لا تنسيه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠-٢٠٢)، فجاءت الموعظة العامة تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين: فئةٌ لا تبالي أن تضحي في سبيل أهوائها بحياة العبادة، وعمران البلاد، وفئة على العكس من ذلك لا تضنّ أن تضحي بنفسها في سبيل مرضاة الله (٢٠٤-٢٠٧).

وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم، إلى توجيه النصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله، دون تفريق بين بعضها وبعض؛ محذرة إياهم من الزلل عنها بعد أن هدوا إليها ووقفوا عليها، مُعَزِّية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨-٢١٤). هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة.

الحلقة الثانية: الوفاء بالعهود والعقود:

ستكون الحلقة الثانية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي أجملت



في آية البر، وهي الوفاء بالعهود والعقود؛ وسنختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية: عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة، أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير، استقامت بالتدريج في المجتمع الكبير، ثم في المجتمع الأكبر؟

تفصيل الشؤون الأسرية المتشابكة (الآيات من ٢١٥ إلى ٢٣٧):

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ
قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ
اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ

لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ
مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا
تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ
ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا
تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا
إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ
أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟
لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ
ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥-٢٣٧].

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية؟ هل يصعد القرآن بنا توًا إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المتشعبة؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعة، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة، تتصل أوائلها(١) بالأحكام الماضية: الإنفاق والجهاد (٢١٥-

---

(١) ارجع البصر كرتين إلى هذا النظام الهندسي في البيان.. ثم سل نفسك هل كان في الإمكان أن يأتلف عقد نظامه لو لم تقع الأحداث التي اتخذت منها مادته، أو لو وقع بعضها وتخلف بعضها، أو لو وقعت كلها ولم تنبعث في روع القوم باعثة السؤال عن أحكامها..؟ لقد كان القدر يسير إذًا في ركاب هذا التنظيم، فأثار مادة حوادثه، وبعث حاجات النفوس إلى طلب بيانها.. ولم يبق إلا أن تقول معي: آمنت أن الذي بيده تصريف الزمان، هو الذي بيده تنزل القرآن.. ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين.



٢١٨) وتتصل أواخرها بالأحكام التالية: مخالطة اليتامى، وشرائط المصاهرة، وموانع المباشرة (٢٢٠-٢٢٢).. وهكذا نَصِل في رفق ولين، دون اقتضاب ولا ابتسار، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٣-٢٣٧) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستورًا حكيمًا مؤلفًا من شطرين؛ وشطره الأول يعالج شؤون الأسرة في أثناء اتصالها (٢٢٣-٢٣٢)، وشطره الأخير يعالج شؤونها في حال انحلالها وانفصالها (٢٣٣-٢٣٧).

فخذ هذه الحلقة الجديدة من السورة الكريمة، وتعرف أسباب نزولها، وانظر كيف كانت كل قضية منها فتيا في حادثة معينة منفصلة عن أخواتها؛ ثم عُد لتنظر في أسلوبها البياني جملة؛ وحاول أن ترى عليه مِسْحة انفصال أو انتقال، أو أن تحس فيه أثرًا لصنعة لصق، أو تكلف لحام.. واعلم منذ الآن أنك ستحاول عبثًا، فإنك لن تجد أمامك إلا سبيكة واحدة يطرد فيها عرقٌ واحد، ويجري فيها ماءٌ واحد، على رغم أنها جُمعت من معادن شتى..

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني:

انظر كيف استهل الحديث بإرساء الأساس، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤، ٢٢٥) وكيف عقَّبه بحكم فرع من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية، وهو حكم من حلف على الامتناع عن زوجته (٢٢٦-٢٢٧)، وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨).

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي، وهذا التدرج المنطقي، في شؤون كانت متفرقة، ارتجلتها الحوادث ارتجالاً، فتعال معي لأضع يدك في هذه القطعة على حرف

واحد تلمس فيه مبلغ الإحكام في التأليف بين هذه المتفرقات، حتى صارت شأنًا واحدًا ذا نسق واحد:

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء، إلى فتيا الطلاق: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين، يطل القارئ منه على أفق متلبِّد ينذر باحتمال الفراق؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريبًا، بل وجد مكانه مهيَّأ له من قبل، كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبَّانها كانت هي تلك العروة المنتظرة. وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها. وهكذا أصبح الحديثان حديثًا واحدًا.

تُرى من عَلَّم محمدًا -لو كان القرآن من عنده- أنه سوف يُستفتى يومًا ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق؟ ومن عَلَّمه أنه سيجد لهذا السؤال جوابًا، وأن هذا الجواب سيرفع في نسق مع حكم الإيلاء، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله أن يساق حكم الإيلاء، الذي وقع الاستفتاء فيه الآن على وجه يجعل آخر شِقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سوف يُسأل عنه بعد حين؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه؟.. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى..

وتمضي السورة في هذا النمط الجديد، مفصِّلة آثار الطلاق وتوابعه كلها: عدةً، ورجعةً، وخلعًا، ورضاعًا، واسترضاعًا، وخِطبةً، وصداقًا، ومتعةً.. إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧).

الحلقة الثالثة: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقة:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا

فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ
أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ
أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ
أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا
حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن
كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا
وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ
نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ
وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي
مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم
بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا
وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا
عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ
وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَدۡ تَّبَيَّنَ



ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (٢٥٦) ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ
يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧) أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ
إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ
إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨) أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ
مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٥٩) وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ
رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ
إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٢٦٠) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ
وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ
شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ
وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (٢٦٨) يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ
أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٦٩) وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ
أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ
عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (٢٧١) ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي
مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ (٢٧٢) لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ



ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

[البقرة: ٢٣٨ – ٢٧٤].

هنالك تبدأ الحلقة الثالثة:

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ (٢٣٨-٢٧٤).

لننظر: كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث، والاستجمام والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية، سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة، نقلة شبه خاطفة بل لفتة جدّ مباغتة، قد يحسبها الناظر اقتضابًا، وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي.. أما من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها، وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر من الوفاء بالعهود، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبذل المال على حبّه في سبيل الله، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدّر لها، وفق ترتيبها في الآية الجامعة.

سيقول قائل: نعم، لقد جاءت في موضعها ورتبتها، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسي، ولا تمهيد بياني.

نقول: بل كان هذا الإعداد والتمهيد، في الآية الكريمة التي ختمت بها الحلقة السابقة: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فهذه لو تدبرت معبرةٌ ذهبيةٌ وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية؛ معبرةٌ جيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة، إلى سكون المسامحة والمكارمة؛ فكانت معراجًا وسطًا صعد بنا إلى أفق

أعلى، تمهيدًا للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى.. ألا تسمع إلى هذه الكلمات: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (لا تنسوا.. الفضل.. بينكم). إن كل حرف في هذه الكلمات ينادي بأنها كلمات حبيب مودع، كان قد أقام بيننا فترة ما، ليفصل في شؤوننا؛ ثم أخذ الآن يطوي صحيفة أحكامه، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها؛ فقال لنا وهو يطويها: دعوا المشادة في هذه الشؤون الجزئية الصغرى، سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل، الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل؛ وحوّلوا أبصاركم معي إلى الشؤون الكلية الكبرى، التي هي أحق بأن يتوافر عليها العزم والقصد، وأحرى أن يشتغل بها العقل والقلب.. نعم، نعم. لقد كفاكم هذا حديثًا عن حقوق الزوج والولد، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن:

حافظوا على الصلاة.. أنفقوا في سبيل الله.. جاهدوا في سبيل الله.. «وبعد» فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصدًا أصليًا مستقلاً، أم هو جزءٌ من مقصدٍ آخر.

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال، يجمل بنا أن نرجع البصر كرةً أخرى، لننظر في جملة الخصال التي جُمعت في آية البر، والتي فصّلت في الآيات من بعدها إلى قُرب آخر السورة، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم. فماذا نرى؟

نرى التنويه بفضيلتي الإنفاق والجهاد في سبيل الله لا يزال يُعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطعه، في إجماله وفي تفصيله، ترديدًا ينادي بأنه هو المقصود الأهم، والهدف الأعظم، من التشريع في هذه السورة.. فلو أننا، في ضوء هذا الأسلوب، تمثلنا تلك البيئة وأحداثها، وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها، لتمثلنا معسكرًا ثابتًا للجهاد المزدوج، المالي والبدني، ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائدًا يقظًا حريصًا، لا يعزب عنه شأنٌ من شؤون جنوده، خاصها وعامها، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشؤون كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الوقتية، رجع بالحديث إلى مجراه العتيد، في شأن مهمتهم الرئيسية..

ضع هذه اللوحة الجندية أمام عينيك.. فلن يكون عندك عجبًا أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشؤون؛ ذلك أن بساطه كان أبدًا منشورًا، وأن داعيته كانت دائمًا قائمة؛ فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية، فإنما يجيء على أصله وسجيته؛ فلا يسأل عن علته.

ماذا نقول؟.. شأن الجهاد!! أليس الحديث سيفتح الآن بشأن الصلاة، وعدة الوفاة، لا بشأن الجهاد؟

بل نقول، ونحن نعني ما نقول: إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد، وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه، قبل أن يوجّه إليهم الأمر الصريح بالقتال..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب: ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله؟

يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها، لا في سلم ولا في حرب، لا في أمن ولا في خوف: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [٢٣٨]، وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصلاة وهيأتها: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

والصلاة كما نعلم قوةٌ معنويةٌ على العدو، وعدةٌ من عدد النصر[(١)]. لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين، قبل أن يؤمروا بالقتال أمرًا صريحًا. والصلاة في الوقت نفسه طُهرةٌ للنفس من مساوئ الأخلاق، تنقّيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا[(٢)]. لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية

(١) هكذا قال الله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾

(٢) وهكذا قال الله في وصف الإنسان: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

الآنفة، التي أمرتنا بالتسامح والتكارم في المعاملات.. هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة: دواءً وغذاءً معًا، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعًا. بل قل: إنه مثلث الفائدة؛ لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة، ليفصل إجمالها في هذا الجانب(١).

والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان؛ مخافةٌ على نفسه وعلى المجاهدين معه، من أخطار الموت أو الهزيمة؛ ومخافةٌ على أهله من الضياع والعَيْلَة لو قُتِلَ.. لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين. أما أهله فقد وصَّى الله للزوجة، إذا مات زوجها، بأن تمتع حولاً(٢) كاملاً في بيته، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا ينسى. فليقر عينًا من هذه الناحية (٢٤٠-٢٤٢).

وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾.

---

(١) إذا فهمت حسن هذه التلطف في الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد، وأدركت جمال هذه الأوضاع الهندسية، التي تناسقت بها المعاني السابقة واللاحقة، فقد زالت عنك شبهة الاقتضاب هنا في الانتقال إلى حديث الصلاة غير أننا إذا قسنا هذه النقلة إلى النقلة السابقة بين الحلقتين الأولى والثانية، ألسنا نرى هذا التمهيد قصيرًا وهذا التحول سريعًا؟ أليست النفس في سيرها هنا تدركها رجة خفيفة لهذا التحول السريع الذي تفرضه عليها حركة قائدها؟ ألا فاعلم، عَلَّمَكَ الله، أن هذه سرعة مقصودة، وأن من الخير لنا أن نحس بهذه الرجة الخفيفة من أثر التحول السريع؛ فإن لذلك مغزًى عميقًا في تربية النفوس المؤمنة.. إن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن، إذا سمع نداء الواجب الروحي وهو منهمك في معركة الحياة. فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينا: إنه ليس شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجة للتسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد، وإنما شأنه أن ينتشل نفسه من غمرتها انتشالاً فوريًا، ليسرع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس قائلاً للدنيا كلها: «دعيني أتعبد لربي». نعم هذا شأن المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

(٢) للمفسرين في هذه الآية قولان مشهوران: أحدهما أنها وصية مندوبة لا واجبة. الثاني أنها كانت واجبة في صدر الإسلام ثم نسخت بالآية السابقة (٢٣٤) التي توجب تربص أربعة أشهر وعشر لا أكثر.. وواضح أن كلا القولين مبني على أن آية الحول يسري حكمها على الأزواج عامة.. ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد: وهو أن تربُّص الحول الكامل كان خصوصية فُضِّلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين. والله أعلم.

أما خوف الهزيمة، فإن النصر بيد الله ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وتلك سُنة الله في المرسلين (٢٤٦-٢٥٣).

هكذا أُبعِدَت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين، بعد أن زُوِّدت أرواحهم بزاد التقوى، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل، لتلقّي الأوامر العليا، فليصدر إليهم الأمر صريحًا بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤-٢٤٥)[١].

ولتفصل لهم العبر التاريخية، التي تثبت أقدامهم حين البأس، والتي تزيدهم أملاً في النصر (٢٤٦-٢٥٣). والجهاد كما قلنا جهادان؛ جهادٌ بالنفس، وجهادٌ بالمال، وليس الجهاد بالمال وقفًا على شؤون الحرب، بل هو بذله في كل ما يرفه عن الأمة، ويقوي شوكة الدولة، ويحمي حمى الملة.

ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية قصيرة (٢٤٤)، ثم في آيات كثيرة (٢٤٦-٢٥٣). وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه في آية قصيرة (٢٥٥)، فمن العدل أن يأخذ تمام حظه في آيات كثيرة كذلك. وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن

---

(١) من الطرائف البيانية في أسلوب القرآن هنا أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة، لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور. ألا ترى هذا الأمر بالقتال في سبيل الله (٢٤٤) قد أحيط من جانبيه كليهما بدعائمه وبواعثه، إجمالاً قبل، وتفصيلاً بعد؟.. على أن هذا المنهج الطريف لا يخص هذا الموضع من القرآن؛ فإنك ستجد شواهده مبثوثة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز.. تدبر قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فإن كمال الدين الإسلامي باشتماله ماديًا وروحيًا على كل النظم الكفيلة بإصلاح الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والإنسانية العامة، لم يذكر من دلائله قبل إلا طرف يسير. أما بقية البرهان فقد نثرت حباته على أثر ذلك إلى تمام الآية العاشرة من السورة المذكورة.. وانظر قوله تعالى في سورة النحل: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فقد جاء وسطًا بين دلائل الوحدانية في التدبير، ودلائل الوحدانية في الإنعام والإحسان.. وتأمل قوله في السورة نفسها: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فقد جاء بعد تبيين أصول العقيدة، وقبل تبيين أصول الفضيلة العملية. ومن جملة السابق واللاحق، يتألف البرهان على صدق هذه القضية، وهي أن الكتاب تبيان لكل شيء.

قسطها، مطبوعًا بطابع الشدة تارة (٢٥٤-٢٦٠)[1]، وطابع اللين تارة (٢٦١) وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢-٢٧٤).

الآيات من (٢٧٥-٢٨٣):

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ
(٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو
عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ
وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ
بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ۞ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا
فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ
يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

ثم ينساق الحديث من فضيلة التضحية والإيثار، التي هي أسمى الفضائل الاجتماعية، إلى رذيلة الجشع والاستئثار، التي هي في الطرف المقابل أحط أنواع

---

(١) في هذه الآيات السبع تحذير شديد للبخلاء من يوم لا يُبذل فيه فداء، ولا يغني فيه خليل عن خليله، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين؛ ثم تأكيد لهذا المعنى بمحو كل شبهة يتعلق بها من يعتمد على الشفعاء، ونفي كل سلطان ونفوذ لغير الله، ورفع كل ريبة عن حقيقة يوم الدين.. وذلك كله ليكون البذل عن إيمان وعقيدة سليمة، لا رياء ولا زلفى لأحد، ولكن ابتغاء لوجه الله الواحد الأحد.

المعاملات البشرية (أعني رذيلة الربا، التي تستغل فيها حاجة الضعيف، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف الذي يبذله) (٢٧٥-٢٧٩).

وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازًا لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية.

وبين هذين الطرفين المتباعدين، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط، جاعلاً لصاحب الحق سلطانًا في المطالبة برأس ماله كله لا ينتقص منه شيء ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين؛ فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنين: إما الانتظار إلى الميسرة، وإما التنازل لهم نهائيًا عن الدين. وهذه أكرم وأفضل ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٨٠].

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني، وهو طابع القناعة والسماحة، قد يوحي إلى النفوس شيئًا من التهاون في أمر المال، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتثميره، جاءت آيتا الدين والرهان (٢٨٢-٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم، وتصوغان للمؤمنين دستورًا هو أدق الدساتير المدنية، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، تمهيدًا لإنفاقها في أحسن الوجوه.. فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثق بوثيقةٍ ما، ولم يبقَ أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة، بهذه القاعدة المثلى، التي هي أساس كل معاملة شريفة، أعني قاعدة الصدق والأمانة، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة.. آمين.

المقصد الرابع من مقاصد السورة: في آية واحدة (٢٨٤).

بعد الإيمان.. والإسلام.. يأتي الإحسان:

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

في الآية السابقة، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة؛ وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية، وهو شطرها العملي؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآية ١٢٢ وما بعدها.

وهكذا تناول البيان حتى الآن:

١- حقائق الإيمان.

٢- شرائع الإسلام.

هل بقي في بُنيان الدين شيءٌ فوق هذه الأركان؟

نعم، لقد بقيت ذروته العليا، وحليته الكبرى..

بعد الإيمان.. والإسلام.. بقي الإحسان؛ وهو كما فسَّره صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، أن تراقب الله في كل شأنك، وأن تستشعر مشاهدته لك في سرك وإعلانك، وأن تستعد لمحاسبته لك، حتى على ذات صدرك، ودخيلة نفسك.. مطلبٌ عزيزٌ لا يطيق الوفاء به كل مؤمن، ولا كل مسلم؛ وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين.. وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة، التي توَّج بها هامة السورة: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (٢٨٤).

الخاتمة: في آيتين اثنتين (٢٨٥-٢٨٦):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها، وَأَلَمَّ بعناصره جميعها: الإيمان، والإسلام، والإحسان؛ لم يبقَ بعد تممة الحديث إلا طيّ صحيفته، وإعلان ختامه؟

فهل تعرف كيف طُويت صحيفة هذه السورة، وكيف أعلن ختامها؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة؛ لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة؛ ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتحم من قوسيهما سورٌ محكمٌ يحيط بهذه السورة، فإذا هي سورةٌ حقًّا، أي بنية محبوكة مسورة.

ألم يكن مطلع السورة وعدًا كريمًا لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد؟ بلى؛ إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة: هل آمن بها أحد، وهل اتبع هداها أحد، ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع..

وهكذا سيكون مقطع السورة:

١- بلاغًا عن نجاح دعوتها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾.. ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾.

٢- وفاءً بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾.

٣- فتحًا لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين. فليبسطوا إذًا أكفهم مبتهلين: «ربنا.. ربنا.. ربنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

الخلاصة:

تلك هي سورة البقرة.. أرأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها،

وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها.. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها -كسائر النجوم في سائر السور- كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية (معجزات) ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!

***



القسم الثالث

تقدمة التلاوة

١ - سورة الفاتحة.

٢ - الحلقة الأولى من سورة البقرة.

٣ - الحلقة الثانية من سورة البقرة.

٤ - الحلقة الثالثة من سورة البقرة.

٥ - الحلقة الرابعة من سورة البقرة.

٦ - الحلقة الخامسة من سورة البقرة.

٧ - الحلقة السادسة من سورة البقرة.

المبحث الثاني
«الحياة من القرآن»
حلقات تقدمة التلاوة لفاتحة الكتاب وسورة البقرة[1]

في مقدمة الجهود الدينية والفكرية الدائبة التي تقدمها إذاعة القرآن الكريم سلسلة الأحاديث الدينية المختارة التي تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي للقرآن الكريم تحت عنوان «الحياة من القرآن». وقد قدمت «مجلة الإذاعة والتلفزيون» حلقات هذا التفسير الموضوعي العصري للقرآن الكريم واستهلتها بنموذج من أرفع نماذج التفسير العصري وأكثرها عمقًا ودقة وأصالة، حاول من خلاله العالم الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز أن يقدم لفاتحة الكتاب ولسورة البقرة من خلال الحلقات الست التي تنبض بفكره الحي، ونظرته الكلية الشاملة:

والآن، مع الحلقة الأولى من هذه الحلقات الست.

١- سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: أفضل ما تُفتتح به الأقوال والأعمال، وأنجح ما تستنجح به المقاصد والمطالب التوجه إلى الله العلي القدير، ثناءً عليه بما هو أهله، واستمدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته، وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة.

---

(١) عثرت على هذه الحلقات ضمن أوراق الشيخ منزعة من مجلة الاذاعة والتليفزيون بدون تاريخ، والراجح أنها أذيعت ونشرت أواخر عام ١٩٥٧م.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثناء على الله. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة بالله، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ استرشاد بنور الله، ومن هنا، كان الافتتاح بهذه السورة الكريمة خيرًا وتيمنًا، في الصلاة، وفي التلاوة، وفي سائر الأعمال.

ولو أمعنا النظر، لوجدنا هذه السورة على إيجازها، تنطوي فيها مقاصد القرآن كله، كأن موقعها هنا في صدر المصحف موقع الفهرس الجامع لمواد الكتاب، وكأنها لذلك سميت «أم القرآن».

فالقرآن في جملته يتناول جانبين: الجانب الإلهي، نظريًا وعمليًا، والجانب الإنساني، نظريًا وعمليًا، فهو من جهة يعرّفنا بالحق الأعلى ويدعونا لعبادته، ومن جهة أخرى يعرفنا بالفضيلة الإنسانية، ويحضنا عليها.

وكذلك نرى سورة الفاتحة، فنراها شطرين يمثلان هذين الجانبين.

استأثر صدرها بالجانب الإلهي فعرفنا الله بثلاث صفات من صفاته الحسنى، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كل واحدة من هذه الصفات الثلاث: تبني ركنًا من أركان العقيدة الثلاثة؛ فمن عرف الله بربوبيته الشاملة فقد أحرز ركن التوحيد الخالص، ومن عرفه برحمته المزدوجة الرحمة العامة التي وسعت كل شيء، والتي هو بها رحمن، والرحمة الخاصة التي يختص بها من يشاء والتي هو بها رحيم، فقد آمن بأخص أنواع هذه الرحمة، وهي نعمة الوحي والنبوة، ومن عرف الله بأنه هو صاحب الأمر كله في يوم الدين، يوم الجزاء، فقد اعترف بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، وهكذا يجد المرء نفسه، ويجد العالم معه، محاطًا من كل أقطاره بجلال هذه العظمة مطوقًا في كل أطواره بجميل هذه النعمة، فلا يسعه إذًا إلا أن يعلن بلسانه ولسان المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.. فالمؤمن الحق هو الذي يعرف أن كل معين من الخلق هو بحاجة إلى أن يُعان، وأن الله وحده في حقيقة الأمر هو المستعان.

الآن عرف المؤمن رسالته الروحية، وهي المهمة الأولى التي من أجلها خُلق، وبقي عليه أن يفكر في رسالته الإنسانية العامة، التي هي وسيلته وطريقه لتحقيق المهمة الأولى.. وهكذا أخذت السورة في شطرها الثاني ترسم لنا خطتنا، وتحرك نحوها عزائمنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق المعتدل القويم، الذي هو أقرب الطرق وأحسنها، ثم قُسِّمت البشرية بإزاء هذا الطريق إلى أصناف ثلاثة: فريق الذين أنعم الله عليهم، وهم الذين تبين لهم ما في هذا الطريق من رشد وفلاح فاعتنقوه والتزموه، وفريق الذين غضب الله عليهم، وهم الذين جادلوا في الهدى بعد ما تبين لهم، فجحدوه وتنكّبوه، وفريق الضالين الحائرين المذبذبين الذين انطمست أمامهم معالم الهدى فلم يتريثوا حتى تتبين لهم سبيله، ولكنهم خبطوا خبط عشواء، فكانوا في جهلهم موزورين غير معذورين..

اللهم أرنا الحق حقًّا، ووجهنا إليه وأرنا الباطل باطلاً، واصرفنا عنه، اللهم اجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم آمين.

❊ ❊ ❊

الحلقة الأولى من سورة البقرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: (كان المؤمنون عند نزول الفاتحة لا يزالون في بداية عهدهم بالوحي، لم يهبط عليهم من سحائب العلوم القرآنية إلا بضع قطرات: لقد عرفوا ربهم وأخلصوا له سرهم، ولكنهم كانوا يستشرفون يومئذ إلى هداية مفصلة، إلى دستور شامل يُعرّفهم مذاهب الحق والباطل، ويميز لهم وجوه الحلال والحرام، ويعرفهم سنة الله في الأولين، ويطلعهم على ملكوت الله في السماوات والأرض، كان ختام سورة الفاتحة تعبيرًا بلسان حالهم عن تعطُّشهم والتماسهم لهذا الدستور السماوي في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فجاء استهلال سورة البقرة يبشرهم أن قد استجيبت وأن الهدى الذي طلبوه هو الآن بين أيديهم: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة، الآية رقم ٢].

فالقرآن كله -بعد الفاتحة- هو الهدى المطلوب في الفاتحة، وسورة البقرة أكبر نموذج من ذلك الهدى.

مائتان وبضع وثمانون آية تنقسم إلى مقدمة، ومقصدين، وخاتمة.. في نسق بديع تتلاحق أجزاؤه وتتعانق، ولكنها لا تتداخل، ولا يبغي بعضها على بعض.

أما «المقدمة» فقوامها عشرون آية، إنما هي تنويه بشأن هذا الكتاب، وبشارة لمن يتقبله، ونعي على ما يأباه ويعرض عنه.

وأما «المقصد الأول» فيمتد في مائة وسبع وخمسين آية، مهمتها إرساء أصول الدعوة الإسلامية، وتفنيد حجة المخالفين لها.

وأما «المقصد الثاني» ففي مائة وسبع آيات، تبسط شرائع الإسلام، وتحدِّد منهاجه العملي في مختلف نواحي الحياة.

وأما «الخاتمة» فآيتان اثنتان يعلن فيهما تحقيق البشارة التي بدأت بها السورة وهي بشارة الهدى والفلاح لمن سمع وأطاع).

استهلت السورة الكريمة بكلمات تشوِّق النفوس إليها، وإلى القرآن كله أعظم تشويق.

كانت أول كلمة منها إعلانًا بأن هذا الكتاب الجديد هو الكتاب ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كأن ما عداه من الكتب ليس شيئًا بالقياس إليه، ثم اتبعت هذه القضية برهانها: أليست الكتب تتفاضل سلبيًّا بمقياس براءتها من الخطأ والباطل، وإيجابيًّا بمقدار ما تحويه من توجيه نافع؟ فما ظنك بالكتاب الذي جمع بين الحسنيين: فهو قبل كل شيء بريء من شائبة الباطل، بل من شبهة الباطل ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، وهو فوق ذلك نور و﴿هُدٗى﴾.

تُرى هل سوف يستقبله الناس كلهم بما هو أهله من القبول الحسن، أم هل يمر عليه أكثرهم وهم عنه معرضون؟

تجيبنا سورة البقرة، كما أجابتنا سورة الفاتحة، بأن البشرية ستنقسم في شأنه إلى ثلاث فصائل، وأنه لن ينتفع به إلا إحداها، أولئك الذين شرَّفهم الله بلقب ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وهم الذين جمعوا بين الإيمان الكامل والعمل الصالح، أما الجاحدون المُصِرُّون على الإنكار إصرارًا لا يُجْدِي معه إنذار، وأما المخادعون المتقلبون الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فإن القرآن سيميز كل فريق منهما بسمته وعلامته، ثم يجمعهما معًا في حزب الضلالة والخسران ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، ثم يفرق بينهما مرة أخرى، ليضرب لكل واحد منهما مثلاً فيصور طبيعته، فأما المُصِرّون المعاندون فمثلهم كمثل قوم كانوا يعيشون في ظلام

دامس، فقام فيهم رجل استوقد لهم نارًا أضاءت ما حوله، ولكنها خطفت أبصار الآخرين فذهب نورها إلى غير رجعة..

وهكذا كان النور السماوي الذي أشعله محمد -عليه الصلاة والسلام- ليبدد به ظلمات الجاهلية، فَتَفَتَّحَتْ له البصائر المستنيرة التي الْتَفَّتْ حوله، لكنه عَمِيَتْ به عيون المستكبرين، وأما المتقلبون المترددون فمثلهم كمثل قافلة كانت تسير ليلاً فأمطرتها السماء غيثًا منهمرًا، لكن معه ظلمات ورعد وبرق، فأما الغيث فلم يلقوا إليه بالاً، ولم ينالوا منه نوالاً، وأما الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم، ومدار تقلبهم واضطرابهم في تصرفاتهم؛ سيرًا تارة، ووقوفًا تارة، واستخفاءً تارة أخرى..

فذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيثًا تحيا به القلوب، ولكنه ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر، وجعل لهم الأيام دولاً بين الغلبة والنصر، فما كان من بعض القوم إلا أن انصرفت عنه قلوبهم وحصروا كل همهم فيما يحيط: بروق الآمال والمغانم تضيء لهم فيمشون إليها، نذر الهزائم والمغارم تعصف بهم عواصفها فيستخفون منها، أزمات غامضة تشتبه الأمور فيها فيقفون موقف التربص والانتظار.. ذلك دأب المنافقين في كل زمان؛ يبنون حسابهم دائمًا على قاعدة الربح والخير العاجل، أما المؤمن فإن له قبلة واحدة، هي قبلة الحق يولي وجهه شطرها، ولسان حاله يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

***

الحلقة الثانية من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كان صدر سورة البقرة إلى تمام عشرين آية من أولها، تنويهًا بشأن هذه السورة، وشأن القرآن الكريم كله، فقد أعلنت بادئ ذي بدء أن هذا الكتاب الفريد هو الحق الذي لا ريب فيه والهدى الذي لا لبس فيه، ثم أعلنت أن مَن اتبع هداه اهتدى وأفلح، ومن أعرض عنه ضل وخسر، فكان هذا كله تشويقًا أي تشويق لمعرفة الحقائق التي جاء بها.

بماذا جاء هذا الكتاب وبماذا جاءت سورة البقرة التي هي أعظم نموذج من هذا الكتاب.

الجواب في كلمتين؛ إصلاح العقيدة وإصلاح السلوك. وما صلاح العقيدة إلا لاعتناق حقائق الإيمان.. وما صلاح العمل إلا باتباع وصايا الإسلام.. وهذان هما المقصدان اللذان على محوريهما تدور سورة البقرة؛ المقصد الأول يمتد من هنا إلى ما بعد نصف السورة، والمقصد الثاني يشغل بقيتها حتى يطل بنا على خاتمتها.

فلنتابع سير البيان في شأن المقصد الأول:

إنه ينقسم إلى مرحلتين: مرحلة تأسيسية وجيزة، تحدد أصول العقيدة وتُرسي أركانها، ومرحلة مبسوطة ممدودة، تجادل المخالفين وتجاهدهم جهادًا كبيرًا.

حديثنا اليوم يستوعب المرحلة التأسيسية: تسع عشرة آية من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ



بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] نداء سماوي موجّه إلى البشر كافة يدعوهم للدخول في دين الله دخول المستنير المتبصر، العارف بمبادئ الدعوة، المقتنع بصحتها ورسوخ قواعدها، ولذلك نرى الداعي الحكيم يبدأ بتحليل هذه الدعوة إلى عناصرها الاعتقادية الثلاثة؛ توحيد المعبود والإيمان برسالته، والإيمان بضرورة الاستعداد، «ونراه لا يدع واحدًا من هذه العناصر إلا بعد أن يدعمه بدعامة قوية مقنعة».

«أما توحيد المعبود». فإن مؤهلات الألوهية لا توجد إلا في واحد لا ندّ له ذلكم هو الرب الأعلى الذي خلقنا وخلق أصولنا ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، والذي أنشأ لنا مسكننا إنشاءً فرشًا وسقفًا وبناءً ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، والذي رزقنا وأنشأ مادة رزقنا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فإذا كان هو الذي يخلق ويرزق، فكيف نسوّي به من لا يخلق ولا يرزق.. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

«وأما الإيمان بأن القرآن هو رسالة السماء: فذلك أنه لو كان من عند غير الله لاستطاع أحد من الناس أن يأتي بمثله أو بشيء من مثله، فإن لم يستطعه مستقلاً: استطاعه مستعينًا بغيره، ولكن القرآن يتحدى الناس جميعًا إن كانوا في ريب وشكٍّ من مصدره أن يستعينوا على محاكاته بكل من يحضرهم من الخلق، كائنًا من كان ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم يعلن مقدمًا عجزهم جميعًا عن معارضته ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤]، ويقول في موضع آخر: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

«وأما ضرورة الاستعداد ليوم الحساب: فإنها تتفرع عن هاتين القاعدتين؛ كما تتولد النتيجة عن مقدماتها. ذلك أننا متى عرفنا الله بكمال قدرته، وجاءنا إنذار قوي يحمل طابع سلطانه وعظمته، لا يسعنا إلا الاعتراف بأنه لا بد منجز ما وعد، وأننا لن يجيرنا من الله أحد، إلا أن نعمل عملاً نستوجب به رضاه، ونستدفع به غضبه

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

على أن الذكر الحكيم لن يكتفي بهذه الجولة الأولى التي عرض فيها أركان الإيمان مدعمة ببراهينها إنه سيعرضها توًا مرة أخرى، ولكنه قبل أن يأخذ في هذه العرضة الثانية سيقف بنا قليلاً ليلفت نظرنا إلى أسلوب هذه الهداية الشاملة، التي أرانا منها نماذج متفرقة تناولت الجليل والحقير، الخالق والمخلوق، والسماء والأرض، والنبات والحجارة، والتي ضربت المثل العليا والدنيا، النور والظلمات، والتجارة الرابحة أو الخاسرة، حتى تحدثت عن المتع الحسية التي قد يُسْتَحْيَى من الحديث عنها كالأكل والزواج، من هذه النماذج المتفرقة يخلص القرآن إلى قاعدة كلية، وهي أن هذا المنهج البياني الشامل هو منهج القرآن دائمًا في هدايته، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]؛ ذلك لأنه الحق الذي لا يستحي من الحق، ولأنه الرحيم الذي يتنزل برحمته إلى مستوى عقول البشر ليبين لهم كل ما يحتاجون إليه مما صَغُرَ أو كَبُرَ، ولقد تبين لنا فيما سبق أن الناس انقسموا في أصل الهداية إلى مؤمن وكافر، وسنرى الآن أنهم انقسموا هذا الانقسام في إدراك مغزى أمثال القرآن عامة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦].

هنا يعود الأسلوب الحكيم إلى عرض حقائق الإيمان مرة أخرى، ولكنْ في لون جديد، يُفَصِّلُ ما أَجْمَلَ أو يُجْمِلُ ما فَصَّلَ أو يتناول جوانب لم يتناولها العرض الأول: سمعناه آنفًا يأمرنا أن ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ونسمعه الآن يحذرنا ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، فهو يواجه الحق تارة ليحقه، ويواجه الباطل تارة ليبطله.. سمعناه آنفًا يذكرنا بخلق الإنسان إجمالاً ونسمعه يفصله ويكمله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].. سمعناه آنفًا يذكر خلق الأرض، وهنا يذكر بتسويتها سبع سماوات.. وهكذا.

هذا كله في عرض الركن الأول من العقيدة، وهو ركن الألوهية، فإذا انتقلنا إلى الركن الثاني، وهو الإيمان بالوحي والنبوة، برز لنا منه جانب جديد كل الجدة، فقد كانت العرضة الأولى حديثًا عن القرآن ونبي القرآن، وكانت حديثًا موضوعيًا برهانيًا.

أما هذه العرضة الثانية فستكون حديثًا تاريخيًا، عن أول نبي من البشر.

هكذا ترتبط الحلقة الأخيرة من سلسلة الوحي بأولى حلقاتها، لنعلم أن هذه الدعوة راسخة الأصول في تاريخ البشرية، وأن الإنسان كان منذ القدم مهبطًا لوحي السماء ومرآة لنورها.

وسنرى كيف يطلب البيان في التمهيد لهذا الحديث بذكر أصل نشأة آدم وكيف اختاره الله لخلافة الأرض، وكيف أهّله لهذه الخلافة، وكيف كانت هذه الخلافة تشريفًا وتكليفًا في وقت واحد.. له ولزوجه ولذريته.

وهكذا يصل بنا السياق إلى الحديث عن الركن الثالث، إذ ينتقل بنا في سهولة ويسر من التكاليف إلى الأجزية عليها.. وهنا نرى من طرافة الأسلوب عدوله عن وصف دار العقاب اكتفاءً بذكر اسمها واستغناء عن ذكر الجنة ونعيمها الحي، بذكر نعيمها الروحي الأساسي، ألا وهو الأمن الدائم، والسرور المقيم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

* * *

الحلقة الثالثة من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كانت المرحلة السابقة مرحلة تأسيسية وجيزة، كانت دعوة للناس عامة إلى الدخول في دين الله، وقد رأينا كيف فصلت الآيات الكريمة عقائد هذه الدين، وكيف أرست قواعده، وكيف بلغت بأساسه إلى أبعد أعماق التاريخ البشري إلى يوم نشأة الإنسان على هذه الأرض.

أما الآن فسنبدأ مرحلة جديدة، يراد منها دعوة بني إسرائيل خاصة، بعد دعوة الناس عامة، وإنها لمرحلة طويلة مديدة، يتدرج الحديث فيها على مدارج شتى.

وليس من العسير أن تدرك سر العناية البالغة بهذا الجانب من الدعوة، إذا عرفنا أن بني إسرائيل هم أهل الكتاب السماوي السابق أو الأسبق، وأن فيهم علماء درسوا ذلك الكتاب، فكان دخول من يدخل منهم في الإسلام مؤازرة قوية للقرآن ولنبي القرآن، كما كان تباطؤ من يتباطأ منهم في قبوله - يعد في نظر الأميين مطعنًا بالغًا في هذا الكتاب الجديد، إذ يقولون: لو كان حقًا لدخل هؤلاء العلماء وأتباعهم تحت لوائه.. ولكن قاتل الله الغرور والحسد، والحرص على الجاه، وعلى زخارف الحياة، إنها كثيرًا ما تحمل صاحبها على كتمان ما يعرف وجحد ما يعتقد.

لم يكن من الحكمة إذن، أن يُكْتَفَى في دعوة هذا الصنف من الناس ببيان الحق الذي يعرفون، بل وجب أن يضاف إلى هذا البيان ألوان من العلاج لتلك النفوس المريضة، ملاينة تارة، ومخاشنة تارة أخرى، فإن شفاها العلاج من دائها فذاك، وإلا فقد انكشف للناس مرضها، وتبين لهم سر إبائها وتمردها على الحق.

ذلك هو ما سوف تتكفل بها الآيات البينات في نسق متواصل، إلى ما بعد نصف السورة.

تبدأ هذه المرحلة بآية واحدة وجيزة هي على إيجازها جامعة لمقاصد الحديث كله، ففيها تذكير لأبناء إسرائيل بالنعم التي كانت تستوجب عليهم شكرها، ثم تحذير لهم على الوفاء بسابق العهد الذي قطعوه على أنفسهم، ثم فيها تحذير لهم شديد من عواقب النكث والغدر: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

من هذا الافتتاح الموجز، ينتقل البيان إلى التفصيل، ويبدأ بتفصيل مواد الميثاق الذي كان قد أخذ عليهم: لقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، فلا يكتموه، ولا يخلطوه بالباطل، ولا يشتروا به ثمنًا قليلاً: (ألا وإن كل ثمن في جنب مرضاة الله قليل).. وأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل ما يجيئهم وبكل مَنْ يجيئهم مصدقًا لما معهم.

لكن، كيف يقاوم المرء حبه للخير العاجل، ونزعته إلى العلو والاستئثار؟ لنستمع إلى القرآن الحكيم! إنه يقدم لنا العلاج الناجح، وإن ثقل على بعض النفوس، علاجًا مركبًا من عنصرين: عنصر الجزم والعزم في حبس النفس عن شهواتها، وعنصر الالتجاء إلى الله في أن يصرف عن النفس إغراء المغريات، وتثبيط المعوقات ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

بعد أن تُفَصِّل لهم هكذا مواد المعاهدة وبعد أن تُبيِّن لهم هكذا وسائل تنفيذها،

يبين العاقبة الرهيبة التي تنتظرهم إذا لم يوفوا بعهدهم، وسوف يكتفي عن وصف هذه العاقبة نفسها بوصف اليوم الذي ستقع فيه. إنه يوم لا كالأيام: (فالمدين قد يجد في هذه الحياة من يقضي عنه دينه، وقد يجد من يشفع له في عدم أدائه للدين، وقد يجد عوضًا عن الدين يدفعه عدلاً عنه ووفاء له) فإن لم يجد هذا ولا ذاك، فقد يتخلص من سداد الدين غلبة وقهرًا بالاستعانة بالأنصار.. أما بعد هذه الحياة فإنه سيلقى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨].

بقيت التذكرة اللينة الرقيقة التي استهلت بها هذه الدعوة: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ ماذا عسى أن تكون تلك النعمة؟ سنعرف من سياق الحديث أنها ليست نعمة واحدة، ولكنها نعم جمة، تُرى هل ينتقل بنا الأسلوب إلى ذكر هذه النعم طفرة، ثم هل يأتي عليها سردًا وعدًّا؟ كلا.. إنه يريد أن يجدها قبل أن يعدها، بل قبل أن يعد منها، إنه يردها في جملتها إلى صفة الاختصاص والامتياز، الذي فضَّلهم الله به يومئذ على العالمين. فلم يكن في زمانهم ولا فيمن قبلهم من أوتي مثل ما أوتوا، ومن بُدلت له سنن الكون بقدر ما بُدلت لهم، ومن استجيب له مقترحاته، كما استجيب لهم، ومن أغضي له عن هفواته بقدر ما أغضي لهم عن هفواتهم، فكان جديرًا بهم أن يحافظوا على هذه النعمة أن تزول، وعلى هذه الكرامة أن تهون.. فماذا فعلوا؟ بل قبل كل شيء ما كُنْهُ تلك المنن التي مُيِّزوا بها؟ فلنستمع إلى الكتاب العزيز: إنه سيجيبنا عن هذين السؤالين، يبدأ بأن يسوق لهم طائفة من النعم التاريخية الكبرى التي أوثر بها بنو إسرائيل في عهد موسى، ثم يذكّرهم بألوان من الجرائم والمنكرات التي اقترفتها تلك الأمة في ذلك العهد نفسه وفيما يليه بعد هذه النعم العظمى، ثم يصل ماضيهم بحاضرهم، فيبرز صفحات من تاريخهم الحديث في عصر النبوة المحمدية، صفحات كلها مساوئ ومثالب، تكشف عما في نفوسهم من مرض وراثي مزمن، يقطع الأمل من الاعتراف بالحق ولو كان أبلج.



هذه هي المدارج الثلاثة التي سيتدرج فيها الحديث؛ إنعام من الله عليهم، ثم إجرام من سلفهم، ثم إجرام منهم أنفسهم.. فلنبدأ بما بدأ الله به من تذكيرهم بصنف النعم والمنن:

المنة الأولى: في إنقاذهم من حكم الفراعنة، وما ناهم فيه من ذل العبودية بل من خطر الهلاك والاستئصال الذي كان يهدد نسلهم بقتل الذكور من مواليدها، واستبقاء الإناث منها، وفي نقلهم من هذا كله إلى نعمة الحياة والعزة والحرية تحت قيادة موسى عليه السلام.

المنة الثانية: في المعجزة الطبيعية التي تحققت لهم، ثم بإطباقه البحر على فرعون وجنوده، فكان منجاة لهم، مهواة لعدوهم.

المنة الثالثة: في العفو عن جريمتهم الكبرى التي اقترفوها، في غيبة موسى - عليه السلام-، باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله.

المنة الرابعة: في إنزال التوراة لهم هدًى وموعظةً وتفصيلاً لكل شيء تمسُّ حاجتهم إليه.

المنة الخامسة: في أن أعاد الحياة إلى الذين أخذتهم الصاعقة حينما طلبوا أن يروا الله جهرة.

المنة السادسة: في أن حفظ عليهم حياتهم وهم في غربتهم يكابدون عيش الصحراء التي لا زرع فيها ولا ماء، فآواهم بتظليل الغمام عليهم، ورزقهم الطعام الهنيء الذي لا كدح فيه ولا نَصَب.

أما كيف قابلوا هذه النعم وغيرها، فهذا هو موضوع الحلقة التالية؛ إن شاء الله تعالى.

***

الحلقة الرابعة من سورة البقرة

من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] إلى قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كانت الحلقة السابقة تصديرًا لألوان من النعم التاريخية الكبرى، التي أُغدقت على بني إسرائيل ماديًّا وروحيًّا، في عهد موسى -عليه السلام-.. وستكون اللوحة التالية تصويرًا لأنواع من البطر والكفر الذي قابلوا به هذه النِّعم في عهد موسى وفيما بعده.

وكما أن تفصيل النعم آنفًا قد عهد له بكلمة واحدة، وصفت تلك النعم الإلهية بأنها بلغت حد الإيثار والتفضيل لهم على العالمين، كذلك تفصيل أنواع البطر والتمرد الإسرائيلي قد مهَّد له بكلمة واحدة وصفته بأنه حد البغي والظلم، غير أن الله لا يغير ظلم الظالمين، وإنما يعود وبال الظلم على صاحبه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: ٥٧].. وهكذا كان آخر حرف في الصفحة السابقة إعلانًا عن هذه الصفحة الجديدة، وعنوانًا شاملاً تندرج تحته كل أحداثها.

على أيِّ نمطٍ سيكون سياق هذه الأحداث؟

إنه لن يتابع ترتيبها التاريخي، فإن ذلك لو فُعل لأخذت هذه الأحداث طابع الوحدة القصصية، وإذن لذهب الوهم إلى أن تلك السلسلة المنظومة في مسلك واحد ستعد جريمة واحدة، على حين أن كل فعلة منها جريمة مستقلة تستحق التأنيب والتثريب، بل تستوجب العقوبة والتأديب.. كان من الحكمة إذن ألا يُراعى

في سرد مساوئهم هذا التسلسل الزماني، ولكن نذكر منها نماذج متفرقة متأخرة تارة، ومتقدمة تارة أخرى، لكي ينطبع في ذهن القارئ والمستمع أنه متى نظر في تاريخهم القديم كيفما اتفق، طردًا أو عكسًا، فإنه على أيّ عصر اطلع، وعلى أيّ فقرة وقع، سيقع لا محالة على جسم جريمة من جرائمهم.

والعجيب أن كثيرًا من هذه الجرائم كان ارتكابهم لها عند وصول نعمة جديدة إليهم غير النعم التي أشير إليها في الحلقة السابقة.

ألا تذكر إسرائيل يوم مُكّنت من دخول الأرض المقدسة، لتنال من عيشها الرغد الوسيع، ولتنعم فيها بنعمة الاستقرار، بعد اضطرابهم أربعين سنة قضوها تائهين في الصحراء، ماذا كان ينتظر منهم يوم دخولها؟ ألم يكن حقًّا عليهم شكرًا لربهم واستغفارًا لذنبهم، أن يدخلوها كما أمرهم الله ساجدين، متطامنين متواضعين، قائلين: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وحطها عنا حطة، ولكنهم بدّلوا التواضع ترفعًا، والاستغفار استنكارًا، والجد هزلاً، فكانوا جديرين أن ينزل الله عليهم من السماء رجزًا، عذابًا بشعًا كريهًا، يرغم أنوفهم، ويزل كبرياءهم.

أوَلَا تذكر إسرائيل يوم كانت في التيه، وقد أصابها الظمأ وأعوزها الماء، فجّر الله لهم اثنتي عشرة عينًا، بعدد أسباطهم من حجر يابس ضربه موسى بعصاه، فكان لهم الري من حيث لا يحتسبون؟ ألم يكن حقًّا عليهم أن يحفظوا هذا الجميل، أو لا يعيثوا في الأرض مفسدين؟

أوَلَا تذكر إسرائيل لما تتابعت لها المعجزات في الصحراء فكان طعامهم بمعجزة وشرابهم بمعجزة، ومأواهم بمعجزة، كيف لم يقنعوا بهذا كله، بل طالبوا موسى - بغير ضرورة- ولكن نزقًا وتشهيًا -كفعل الطفل المدلل الشرس الملول- طالبوا موسى -عليه السلام- أن يُخرِج الله لهم من أرض الصحراء ما لا تخرجه لهم أرض الصحراء وإنما تنبته الحقول، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، متعللين

بأنهم لم يصبروا على ذلك اللون المكرر من الطعام لقد كانت -والله أعلم- كلمة حق أُريد بها باطل، فكان التماسهم لهذه الحبوب والبقول، ستارًا يغطي اشتياقهم إلى الأرض التي تنبتها، وحنين طباعهم إلى عيشة الذل الكادحة التي ألفوها ولكنهم أخفوا في أنفسهم ما لم يبدوه لنبيهم، فأبدى الله ما يخفونه لنبيهم، فأبدى الله ما كتموا وألزمهم ما التزموا.. اهبطوا مصرًا من الأمصار، فإن لكم ما سألتم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

أَوَلَا تذكر إسرائيل لما أبطرتها هذه النعم كيف ساقها البطر إلى العصيان وإلى تكرار العدوان، بل إلى الكفر بآيات الله وقتل أنبيائه أمثال زكريا ويحيى -عليهما السلام-، وكيف كان ذلك سببًا في تحول نظرة السماء إليها من الرضا إلى السخط ومن الإنعام إلى الانتقام؟ كلمة لو ختم الحديث عندها لأدخلت في قلوب المعاصرين منهم اليأس الأبدي من رحمة الله، ولكن الرحمة العظمى فتحت لهم في التو نافذة من الأمل في العفو إذا غيروا ما بأنفسهم، فأنبأتهم بأن من كان يهوديًا أو نصرانيًا أو صابئيًا، ثم آمن حق الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحًا كان حظه من الأمن والتكرم مثل حظ المؤمن الأصيل سواء.. ومعلوم أن الإيمان الحق بالله «كما بينته آية النساء» لا يكون مع التفريق بين الله ورسله، ولا مع الإيمان ببعض والكفر ببعض.. ومعلوم كذلك أن الإيمان الحق باليوم الآخر، لا يكون مع الأمن من مكر الله، ولا مع الاتكال على الأحساب والأنساب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: ١٩].

ثم يتابع الحديث تذكير إسرائيل بماضيها العتيد العنيد، ألا فليذكر أبناء إسرائيل يوم أخذ عليهم الميثاق أن يقوموا بما في التوراة من فرائض ويجتنبوا ما فيها من محارم، وأعطيت لهم الوعود الجميلة على الطاعة، وقدم إليهم الوعيد الشديد على المخالفة، فكأنهم تماروا بالوعيد، وتراخوا في الوفاء بالعهود، فأراهم الله آية أخرى تخويفًا لهم وتنبيهًا إلى أنه كما قدر على إكرامهم هو قادر على إنزال العذاب بهم، زلزل

من حولهم جبل الطور حتى تمايلت كتلته فوق رؤوسهم، وحتى ظنوا أنه واقع بهم، فلما رجع إلى وضعه الطبيعي ورجعوا هم إلى حياتهم العادية، عادوا إلى معصيتهم وطغيانهم، فلو أخذهم الله يومئذ بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب ولكانوا من الخاسرين الهالكين، كما فعل بالذين اعتدوا منهم بعد ذلك بالاصطياد في يوم السبت فجعلهم قردة خاسئين أذلاء صاغرين، ولكن الله بفضله ورحمته مدَّ لهم في الأجل وترك لهم فرصة أخرى للتدارك ولإصلاح العمل.

ألا وليذكر بنو إسرائيل يوم قتل فيهم قتيل لم يعرفوا قاتله، فأخذوا يتدارؤون في شأنه يتدافعون التبعة، ويلقي بعضهم على بعض التهمة، حتى احتكموا إلى موسى عليه السلام، فأوهمهم أن يذبحوا بقرة، فلم يدركوا مغزى هذا الأمر، ولا الصلة بينهم وبين ما احتكموا إليه فيه، فظنوا في بادئ الرأي أنه يسخر بهم وكان هذا منهم جهلاً بمقام النبوة الكريم. ثم لما عرفوا أن الأمر جد لا هزل تباطؤوا في الامتثال، وأثاروا في مطالبتهم بتعيين البقرة إشكالاً بعد إشكال، سؤالاً عن سنها، وسؤالا عن لونها، وسؤالاً عن عملها، وأخيرًا ذبحوها بعد لَأْيٍ، وهنالك تبين لهم السر، إذ عرفوا أن ملامسة شيء من جسم البقرة المذبوحة، كان وسيلة لاكتشاف الجاني.

هل كانت كل هذه الآيات البينات كافية في تهذيب طباعهم، وتليين قلوبهم؟

كلا، لقد قست قلوبهم بعد ذلك، فهي كالحجارة بل أشد قسوة. ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، أما قلوبهم فإنها بقيت غليظة جامدة، شرهة مستكبرة.

نعوذ بالله من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، نعوذ بالله من هؤلاء الأربع.

***

الحلقة الخامسة: من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ [البقرة: ٧٥-٩١].

استمعنا من قبل إلى الحديث مع بني إسرائيل عن تاريخهم القديم، وقد انتهى الحديث إلى إعلان تلك النتيجة الحاسمة التي برهنت عليها سيرتهم كلها وهي أن قلوبهم أصبحت غليظة قاسية فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

ترى هل من بلغ قلبه هذا الحد من اليبس والغلظة يظل أهلاً لتوجيه الخطاب إليه، أو لاستمرار الخطاب معه؟.. كلا فليتحول الأسلوب إذًا من الحديث معهم في شأن سلفهم، إلى الحديث معنا نحن في شأنهم هم، ولكن الأسلوب لن يتحول طفرة، بل سيتخذ في هذه النقلة معبرة لطيفة تربط أطراف الحديث بعضها ببعض.

تقول لنا: إن هذا الذي قصصناه عليكم من تاريخ إسرائيل في عهد موسى والذي يليه لا يُبْقِي لكم مطمعًا في أن يؤمن لكم أبناؤهم هؤلاء؛ لأنهم هم ورثة هذا الماضي المشحون بالجرائم ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]. وإذا كان قد بلغ من شأن سلفهم أن فريقًا منهم كانوا يسمعون كلام الله ويدركون معناه ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه، لا خطأ في الفهم، ولكن عمدًا وعدوانًا وتلبيسًا على الناس وهم يعلمون شناعة ما يفعلون، فكيف الظن بهؤلاء الذين بَعُدَ عهدهم بمناهل الوحي ومنابعه الأولى؟ فلا عجب أن يقتفي هؤلاء آثارهم وأن يسيروا سيرة آبائهم.



وهنا يمضي البيان قُدُمًا ليحدثنا عن هؤلاء المعاصرين للقرآن، كشفًا للغطاء عن معايبهم، وتفنيدًا للباطل من أقوالهم وعقائدهم.

سيبدأ الحديث برفع الستار عن نفاقهم وذبذبتهم: فهم يلاقون المؤمنين بوجه، ويلاقون قومهم بوجه، فإذا لقوا الذين آمنوا. قالوا: آمنا! وربما انزلق لسانهم أمام المؤمنين، فاعترفوا لهم بالأنباء والبشارات التي في كتبهم عن هذا النبي الجديد؛ ولكنهم إذا خلوا إلى أنفسهم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، يقولون: كيف نحدثهم بما فتح الله علينا، بما قضى به علينا من انتقال النبوة منا إلى بني إسماعيل؟

أليس هذا الاعتراف سلاحًا نضعه في أيديهم، وحجة يحاجوننا بها عند الله؟

منطق كمنطق الأطفال الأغرار، بل عقلية كعقلية النعام! أيحسبون أنهم متى كتموا هذه الشهادة عن الناس، فقد أخفوها عن الله؟

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

بعد تصوير هذا الموقف المضطرب من اليهود، تجاه الإسلام، يتقدم البيان خطوة ثانية ليصور لنا المجتمع اليهودي نفسه، وليقول لنا: إن هذه الأمة في تكوينها الديني تتألف من عنصرين:

١- فريق جاهل مضلل، أسير للأماني والأحلام، مستعبد للظنون والأوهام، يأخذ باسم الدين ما ليس بدين.

٢- وفريق متعلم مضلل، جريء على الحق، يفتري على الله الكذب، بقلمه وبلسانه؛ يكتب الكتاب بيده ثم يقول هذا من عند الله، وما هو من عند الله، ولكن لينال به عرضًا من أعراض الدنيا، فهو آثم مرتين: مرة فيما يكتبه، ومرة فيما يكسبه، فضلاً عن إثمه في تضليل الغافلين، فأيّ مطمع في صلاح

أمة هذا شأن عالمها، وذاك شأن جاهلها؟

ثم يأخذ الحديث في تفصيل ضلالاتهم، وجهالاتهم، ويبدأ منها بأعمقها جذرًا، وأبعدها أثرًا في أسلوب حياتهم.

تلك هي فكرتهم الخاطئة عن مبدأ المسؤولية، فهم يقولون: نحن أبناء الأنبياء، بل نحن أبناء الله وأحباؤه، فلن يضرنا ذنب، بل سيغفر لنا، وإن عوقبنا فلن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة.. ها هنا يكمن سر الداء، سر اجترائهم على الكذب والتضليل، وعلى أكل السحت، وعلى كل موبقة وإثم.

فلنستمع إلى القرآن الكريم الحكيم، وهو يُوسِع هذا الدعوى إبطالاً وتفنيدًا سيطالبهم أول كل شيء بمستندها: هل عندكم من الله وثيقة ضمان، أو عهد أمان؟ أم هو قول ترمونه على عواهنه، وتقولون على الله بغير علم!

ثم لن يكتفي بعجزهم عن تقديم البرهان على زعمهم، بل سيكر بنفسه على هذا الزعم نقضًا ودحضًا، مبينًا فساده بمخالفته لقانون العدل السماوي الذي لا يحابي أحدًا لجنسه ولا لنسبه: من يعمل سوءًا أو خيرًا يُجْزَ به.

ثم يختم الحِجَاج بأن يقلب القضية عليهم ويقيم البرهان على نقيض زعمهم، ويثبت أنهم على العكس سوف تمسهم النار طويلاً، بل سوف يكونون من أصحابها الملازمين لها، الخالدين فيها، وسوف يلاقون فيها أشد العذاب، فلا يخفف عنهم ولا هم ينصرون، ذلك بأنهم ينطبق عليهم حكم ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

وإليك البيان مفصلاً على نسق القرآن الحكيم: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[الأعراف:١٦٩]، فاتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله؟ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويحسنوا إلى الوالدين، واليتامى والمساكين، وأن يسعوا الناس بحسن أخلاقهم، إن لم يسعوهم ببرهم وعطائهم،



فتولوا عن ذلك كله وأعرضوا عنه إعراضًا كليًا، ونبذوه وراءهم ظهريًا؟

أَوَ لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يُخْرِج بعضهم بعضًا من ديارهم، حتى لقد قيل لهم: إن من قتل غيره فكأنما قتل نفسه، بل كأنما قتل الناس جميعًا.. ومع ذلك فلم يتورعوا عن قتل إخوانهم، وإخراجهم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا ومجاملة لحلفائهم العرب في المدينة من الأوس والخزرج يقتتلان قبل الإسلام، وكان من كل قبيلة حلفاؤها من اليهود يقاتلون في صفها قريظة مع الأوس والنضير مع الخزرج، وكان من غلب خربت دياره وأخرج منها، ثم من المفارقات العجيبة أن قريظة والنضير المتحاربتين كانتا بعد انتهاء القتال تشتركان في فداء الأسرى اليهود من الجانبين، بحجة أنهم مأمورون في التوراة بفداء الأسير من إسرائيل أيًا كانت قبيلته.

ألم يكونوا مأمورين كذلك بعدم قتلهم وإخراجهم؟ فيا له من تدين أعرج أبتر، كأنما يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض!!

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن يؤمنوا برسل الله جميعًا، وأن يعزروهم ويؤيدوهم.. ولكنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا، ففريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون.. فإذا قيل لهم: ما بالكم لا تؤمنون بهم، وما منهم إلا رسول مصدق لما معكم، وقد جاؤوكم بالكتب والبينات قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ مُغَلَّفَة مُغْلَقَة لا ينفذ إليها بيانهم، وما خلقها الله مُغَلَّفَة ولا مُغْلَقَة ولكنهم هم أغلقوها بكفرهم، فطبع الله عليها، فقليلاً ما يؤمنون.

هكذا أُمروا بعبادة الله وحده فأشركوا به؛

وأُمروا بفعل الخيرات، فضيّعوها؛

وأُمروا بترك المنكرات، فاقترفوها؛

وأُمروا بتأييد رسالات الله، فحاربوها؛

فهل بقي لهم منفذ إلى مغفرة الله؟!

لقد كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيآتهم من كل جانب فاستحقوا النار لا أيامًا كما زعموا، ولكن خالدين مخلدين كما قضى الله.

كانت هذه صورة من نقض أمة إسرائيل لعهودها مع الله، فلنطالع الآن صورة من نقضها لعهدها وتناقضها في موقفها قبل الإسلام، وبعده أمام الناس، في تحولها عن المبدأ الذي أعلنته قبيل الإسلام، الذي كان فيه كل خيرها وسعادتها؛ فقد كانوا في الجاهلية يساجلون الوثنيين ويهددونهم بقرب مجيء نبي يكونون أول المؤمنين به، والذي سيكون مجيئه فتحًا ونصرًا للتوحيد وحزبه، وخذلانًا وهزيمة للشرك وأهله، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وظاهروا الوثنية عليه بغير حق ولكن بغيًا وحسدًا؛ لأنه ظهر في الأمة العربية، وفي بني إسماعيل، وقد كانوا يتمنون أن يكون من بني إسرائيل، على وضوح الآيات في التوراة: أن النبي الذي سيُبْعَث، سيكون من أمة أمية، من أمة أشتات ليست لها وحدة سياسية جامعة، وظلت فترة طويلة أكثر الدهر لا تحمل رسالة السماء.. وهي أوصاف لم تكن لتنطبق على غير العرب؛ ذلك أن الله ينزل من فضله على من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

***



القسم الرابع

تفسير آيات مختارة

١- **تفسير آية السلم:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

شعار المؤمن: السمع والطاعة، للحق والعدل.

٢- **تفسير:** ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾.

٢- **الحياة الزوجية خلال ربع** ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾.

٤- **غزوة أُحد في سورة آل عمران.**

٥- **نور من سورة النساء لمحب الطهر والجمال الخلقي.**

الحلقة السادسة: من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨٩] إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ما يزال الحديث في شأن إسرائيل المعاصرة للإسلام، وقد رأينا في الحلقة السابقة صورة من غدر تلك الأمة في نقضها عهودها مع الله، وسنرى في هذه الحلقة صورة أخرى من غدرها في نقضها عهدها أمام الناس؛ وذلك بتنكُّرها للمبدأ الذي طالما أعلنته قبيل الإسلام، فلقد كان اليهود يومئذ كلما غُلبوا في حرب مع المشركين جعلوا يتوعدونهم بقرب مجيء النبي المنتظر الذي سيكونون هم أول المؤمنين به والذي سيكون مجيئه فتحًا ونصرًا للتوحيد وحزبه وهزيمة واندحارًا للشرك وأهله هكذا كانوا يعلنون من قبل فلما جاءهم ما عرفوا كانوا أول كافر به، وكانوا للمشركين ظهيرًا ونصيرًا عليه. ما سر هذا الانقلاب؟ يجيبنا القرآن الحكيم لا سبب إلا البغي والحسد، ذلك أن هذا النبي الموعود ظهر في البيئة العربية وقد كانوا يتمنون أن يكون من الأمة الإسرائيلية.

على الرغم من وضوح الآيات عندهم في التوراة أنه سيكون من أمة أمية، من أمة أشتات ليس لها وحدة سياسية، من أمة بقيت أكثر الدهر لا تحمل رسالة سماوية وكلها أوصاف لم تكن لتنطبق على غير العرب ذلك إلى أن الله من حقه أن ينزل من فضله على ما يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ولكن الحقد ما زال يغلي في صدورهم منذ رأوا راية القيادة الروحية تُنْزَع من أيديهم وشاهدوا مشعل



النبوة يتحول من بيت إسرائيل إلى بيت إسماعيل.. هذا هو السرّ الحقيقي الذي كشفه القرآن غير أنهم كانوا أعظم دهاءً من أن يعلنوا هذا السر في صراحة ووضوح، فكانوا إذا دعاهم الداعي إلى الإيمان بالقرآن ونبي القرآن ينتحلون من المعاذير ما يحول أنظار الناس عن دائهم الدفين.

هاتان مقالتان يسجلهما القرآن ها هنا، كان علماء اليهود يبررون بهما موقفهم من الإسلام ويعتذرون بهما عن عدم انضوائهم تحت راية القرآن.

المقالة الأولى:

قولهم للمسلمين إن كل أمة مسؤولة عن كتابها رهينة بما أُنزل عليها، فآمنوا أنتم بما أنزل عليكم، ونحن ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩١].

لنا توراتنا ولكم قرآنكم، ولا حجة بيننا وبينكم.

كلمة ظاهرها العدل والنصفة، ولكن القرآن المبين يكشف الغطاء عما تحتها من دعوى زائفة وحجة داحضة ومناقضة بينة ..

يقول سلمنا مؤقتًا أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فهل الإيمان به يبرر الكفر بما وراءه كيف وهو حق مثله، والحق لا يعارض الحق ولا يناقضه، بل كيف وهما ليستا حقيقتين منفصلتين، بل حق واحد متصادق متطابق، ثم كيف وهذا التصادق والتطابق حاضر الدلائل قائم الشواهد، وليست هذه الشواهد بغائبة عنكم، وإنما هي معكم وتحت أيديكم تعرفونها وتتدارسونها.

ألا ترى كيف ساقتهم هذه المحاجة إلى موقف يكاد ينطق عليهم بأنهم كاذبون في دعوى إيمانهم بما أنزل عليهم؟

لأن الذي أنزل علينا كان وفقًا وطبقًا لما أنزل عليهم صار تكذيبهم بكتابنا تكذيبًا ضمنيًّا لكتابهم.

ولكن لماذا نلجأ في تقرير عدم إيمانهم بكتابهم إلى هذه الدلالات المطوية الإلزامية.

لماذا لا نحقق عليهم عدم الإيمان بكتابهم من واقع أفعالهم وشواهد سيرتهم؟ ذلك هو ما فعله الذكر الحكيم حين أخذ يعيد إلى ذاكرتهم طرفًا من الوقائع الناطقة بكفرهم كقتل الأنبياء ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، وعبادة العجل ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]، ونقض الميثاق ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

أفهذا كله إيمان ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾ [البقرة: ٩٣]، وليس لهم أن يقولوا إنما فعل هذا آباؤنا من قبل، لا فنقض الميثاق فيهم عتيد، وله فيهم كل يوم شاهد جديد، وعبادة العجل من الذهب لا تزال ماثلة في قلوبهم سارية في دمائهم مشربة بها قلوبهم؛ وقتل الأنبياء لا يزالون له يبيتون، ولكن الله يحول بينهم وبين ما يشتهون.

فإن أصروا على دعوى الإيمان برغم هذا كله، وزعموا أن لهم عند الله منزلة الرضا والكرامة، قلنا لهم: إن هذه الثقة المطمئنة علامة بها فاق الذي يستيقن أن مصيره إلى ما يحب يتشوق الوصول إليه ويتمناه، ويود أن يطوي الزمان لتقر عينه بلقياه. فهل أنتم كذلك؟

إننا نتحداكم ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾ [البقرة: ٩٤]، ولكن هيهات أن يتمنى اليهود الموت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾ [البقرة: ٩٥]؛ إنهم بالعكس يكرهون الموت ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. أي حياة كانت ولو حياة ذلة ومهانة، ولو حياة بغير كرامة ولا ضمير، فهم أشد الناس كراهية للموت، إنهم أحرص من الذين أشركوا والذين لا يؤمنون بحساب ولا جزاء.

***

المبحث الثالث: تفسير آية السلم

شعار المؤمن: السمع والطاعة، للحق والعدل[(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

آيتان محكمتان، صدرت بهما طائفة من الآي الكريم، هي في جملتها رسالة الرحمة، توجهها السماء إلى الأرض، مناشدة إياهم أن يفيئوا من السلام إلى ظل ظليل، يمحو من بينهم أسباب النزاع والخصام، ومذكرة إياهم برباط الوحدة الإنسانية، التي تسمو على فوارق الأحساب والأنساب، والأجناب والألوان ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].

ولقد كان من بالغ الحكمة وجميل التلطف في أسلوب هذه الدعوة، أنها قبل أن ترقى إلى هذا الأفق العالمي الرفيع، صعدت إلى منتصف الطريق، فاختارت من بين الأسرة العالمية الكبرى، أسرة كبيرة هي أحق بالترابط والتراحم فيما بينها؛ تلك هي أسرة المؤمنين بالأديان السماوية، الذين يجمعهم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر، نظمتهم الآية الكريمة في سلك واحد، وجعلت تناشدهم أن يلموا شعثهم، ويضموا صفوفهم تحت لواء السلام الشامل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أول ما يعني الباحث منا هنا، هو الكشف عن حقيقة هذا السلام الشامل الذي

---

(١) نشر في مجلة الأزهر، غرة صفر ١٣٧٢هـ، ٢٠ أكتوبر ١٩٥٢م، المجلد الرابع والعشرون.

يدعو القرآن إليه أهل الإيمان.

فنحن نفهم في العادة من كلمة «السلم» معنى: كفّ الأذى، وترك الشغب والفتنة، ونبذ الحروب والخصومات، وبالجملة معنى المسالمة في معاملة الناس بعضهم بعضًا: وهذا معنى صحيح في ذاته، غير أنه لا يمثل من السلام إلا عنصره السلبي، ولا يصور منه إلا قشرته السطحية، ومظهره الخارجي، وكثيرًا ما كان هذا المظهر طلاء خادعًا، يُخفي وراءه الداء الدفين، والضغن الكمين وإنما السلام الحقيقي هو الذي يتقرر في الآراء والعقائد، قبل أن تحرر مواثيقه في صكوك المعاهدات وقبل أن تطبق قواعده في البر والبحر.

وكلنا نعلم أن القرآن الكريم ليس رسالة مدنية فحسب، وأنه ليس كل همه تنظيم صور الحياة ومظاهرها، وإنما هو قبل كل شيء تربية للعقول بالعقائد السليمة، وتزكية للقلوب بالمبادئ الفاضلة، التي متى نبتت بين الجوانح أينعت ثمراتها الطيبة على اللسان والجوارح. ليس من سنة القرآن الكريم أن يكتفي في معالجة الأمور بذلك النوع من العلاج السطحي الجانبي، ولكنه دائمًا يأتي البنيان من قواعده ويسوس الأمر من باطنه وأعماقه، يمكن للخيرات والفضائل بغرس بذورها، ويكافح الشرور والرذائل باقتلاع جذورها.

السلام الذي يدعو إليه القرآن ها هنا، هو إذًا شيء آخر، أعمق من كل هذه المظاهر المادية، أن يكون متجاوبًا حقًا وصدقًا مع المُثُل العليا التي يؤمن بها، بحيث لا يثور تمردًا على تلك المبادئ إذا خالفت هواه، ولا يعرض عنها كلما تعارضت مع ميوله ورغائبه، فالدخول في السِّلم هو الثبات تحت راية الحق في خضوع واستسلام، والانقياد لقانون العدل، في طاعة ونظام، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

هذا هو لبُّ المعنى وجوهره في لغة العرب، وهذا هو حقيقة السلم، وحقيقة



الإسلام، في لغة القرآن، وهذا هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء، وهذا هو الطريق الوحيد لنشر لواء الأمن والسلام بين الأمم والأفراد.

ذلك أنه لا يستقر أمن إلا في ظل الألفة والترابط، ولا تدوم ألفته إلا على أساس مبدأ واحد ثابت، ولا وحدة ولا ثبات إلا لمبدأ الحق الذي لا يتحول ولا يتعدد وبضدها تتميز الأشياء، فليس على وجه الأرض فتنة وخصومة، إلا كانت وليدة اختلاف، ولا اختلاف يورث الخصام إلا أن يكون مبعثه تشعب الأهواء وتناقضها، ولا تتشعب الأهواء وتتناقض إلا بمقياس بُعدها عن جادة الحق، وطريقه القويم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

هذا ولقد علمتنا التجربة والملاحظة المتكررة أن كثيرًا ممن عندهم أصل الإيمان لا يعوزهم اعتناق المبادئ، ولكن يعوزهم الثبات عليها، وأنهم لا ينقم عليهم رفض مبادئهم والارتداد عنها، بقدر ما يؤخذ عليهم تجزئة هذه المبادئ وتفتيتها، وتركهم الميول والأهواء تعترض سبيلها وتقيم الحواجز أمام تطبيقها على عمومها: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

ومن هنا يعرف السر في أن القرآن لم يكتفِ بمجرد الدخول في السلم، بل أن يكون «كافة» عامة، وأن يكون الإذعان لأمره إذعانًا كليًّا، شاملاً كاملاً، لا قيود له ولا حدود، ولا التواء فيه ولا استثناء. فتلك هي أنصاف الحلول التي يأباها القرآن، وذلك هو مناط الذم، والذي وجَّهه إلى كثير من أهل الأديان، فنحن نراه -حين يضرب للناس أمثالهم- يعرف لنا المؤمنين الصادقين بأنهم هم الذين يعتنقون الحق جملة واحدة يؤمنون بالكتاب كله ولا يفرقون بين الله ورسله، وهم الذين إذا شرعت لهم القوانين العادلة لم يتبرموا بها، ولو كان فيها ما تكرهه نفوسهم، ولم يتهربوا منها، ولو كان من ورائها نقص كل شيء من حظوظهم وأمانيهم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وبذلك يقول الرسول الكريم: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية»(١).

أما الذين في قلوبهم زيغ فقد وصفهم القرآن بأن كل شيء عندهم منقسم؛ عقائدهم، معاملاتهم، وأحكامهم، فأما في عقائدهم فإنهم يؤمنون ببعض الحق، ويكفرون ببعضه، وكلما جاءهم داعي الحق بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقًا كذبوا، وفريقًا يقتلون، وأما في معاملاتهم فإنهم إذا لزمهم الحق لم يؤدوه إلا مكرهين ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[النور: ٤٩]. وأما في حكمهم على الأشياء وعلى الناس فإنهم لا يحمدون إلا الناحية التي يهب عليهم منها ريح الغنيمة: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] على أن الذي يذعن للحق فيما يرضيه ويعرض عنه فيما يسخطه ليس في الحقيقة مذعنًا له في واحدة منها، ولكنه مستسلم لهواه في كلتا الحالتين».

ومهما يكن من أمر، فإنَّ التمرد على الحق كلاً أو بعضًا، لا يمكن أن يكون نزعة من نزعات الإيمان، وإنما هو نزغة من نزغات الشيطان، لا جرم حذرنا الله منه أشد تحذير، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فكان صدر الآية تبصيرًا بطرق الهداية وعجزها تحذيرًا من طريق الغواية.

وهكذا كل قيادة حكيمة، تبدأ بالبيان والإرشاد، وتثني بالنصح والتحذير، فإذا أصر الناس على العناد بعد أن تبين لهم الرشد من الغي، لم يَبْقَ إلا أن يؤخذوا بالحزم والعزم، وآخر الدواء الكي: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وصدق الله العظيم.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري ك، الأحكام، باب، السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية عن عبيد الله بن عمر (١٢ / ١٣٠)، حديث رقم (٧١٤٤) ولفظه «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة». انظر: فتح الباري، ط الريان الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

سورة البقرة: «سنة الهداية القرآنية»

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢]

سنة الهداية القرآنية أنها في دعوتها إلى الحق والخير لا تأخذ النفوس بأسلوب الشدة وحده لكي لا يصيبها الكبت من فرط الحظر ولا بأسلوب اللين وحده لكي لا يفسدها الاسترسال في الأمل، ولكنها تداول دائمًا بين هذين العلاجين تلطيفًا لأثر كل واحد منهما بالعلاج المضاد له حتى يتم الاعتدال والتوازن بين القوى النفسية المختلفة من هذا المنهج القرآني الحكيم نرى مثلاً واضحًا في دعوته إلى الفريضة الاجتماعية العظمى فريضة البذل والإنفاق، لقد سمعنا منه فيها أسلوب المناشدة الرقيقة الرفيقة، ثم سمعنا منه أسلوب التحريض الشديد الأكيد، والآن سنستمع إليه وهو يعود إلى النغمة الأولى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾، وبعد فليت شعري لمن أعد هذا الوعد الجميل؟ من هم الذين يُنْعَتُون بالإنفاق في سبيل الله؟ ما الشرائط والآداب التي يجب مراعاتها في الإنفاق لمن يستحق هذا اللقب الكريم؟

وتجيبنا الآيات البينات بالتفصيل الدقيق لهذه الآداب والشرائط، آداب تتصل بالمنفق نفسه بحقيقة الباعث له على العطاء بأسلوبه عند العطاء وموكبه بعد العطاء وآداب تتصل بالمال المبذول وبحق اختياره وآداب في طريقة توصيل العطية وآداب في الوجوه والأبواب التي يُصرَف فيه العطاء، فأما البواعث على العطاء فإنها تتنوع في نظر القرآن إلى نوعين؛ فهناك بواعث تلقائية خالصة مجردة عن شوائب الغرض وإليها الإشارة بقوله عز شأنه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ﴾، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تمكينًا لملكة البر والجود في نفوسهم وتحقيقًا لمعنى

الرضا والطمأنينة فيها، فهذه الروح الطيبة التي تمد العمل الصالح قل أو كثر يبارك الله ثمرتها في الدنيا والآخرة، ويكون مثلها كما قال الله مثل الحديقة الخصبة التي سقاها الغيث بوابله الكثير أو بللها برذاذ من طله ونداه، فإنها على الحالين تخرج ثمرتها أضعافًا مضاعفة، وهناك بواعث نفعية متطلعة إلى العاجلة ملتفتة إلى جانب الخلق طلبًا لحمدهم واكتسابًا لثنائهم، وهذه هي التي يمحق الله ثمرتها ويمحو بركتها كما ينزل السيل الجارف على حجر أملس فيكتسح ما عليه من تراب أو كما تهب العاصفة النارية على الزروع الناضجة والثمار اليانعة فتحرقها وتبيدها، فكذلك الرياء في إحباطه ثمرات الأعمال بإبدال الآمال فيها حسرات، ذلك أن المرائي لا يلبث أن يهتك الله ستر ريائه فيمقته الخلق من حيث كان يطمع في رضاهم، وأما أسلوب العطاء فالقرآن يرشدنا إلى أن الأدب فيه أن يكون مشفوعًا بالقول المعروف والاعتذار الجميل عن جهد المضل وألا يتبع بالمن والفخر وبالهمز واللمز، فإن ذلك يبطل معنى الإحسان كما يبطله الرياء، وأما مادة العطية فالقرآن يدعونا إلى انتخابها من خير المال وأجوده ويحذرنا أن نجعلها من سقط المتاع الذي لو قُدِّم إلينا نحن ما أخذناه إلا مغمضين على كره ومضض، هكذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾، ويقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وأما طريقة توصيل العطية فالقرآن يعلمنا أن الأفضل الإسرار بها لتكون أبعد عن رياء المعطي وأبعد عن حرج شعور الآخر، ولكنه لا يرى بأسًا عند خلوص النية أن تكون العطية علانية، وأما الوجوه التي ينفق فيها المال فإن القرآن لا يكتفي منا أن نلتمس بأموالنا مواضع الحاجات والاستحقاق، بل ينبهنا إلى أن نبدأ بأحقها وأولاها، ويشير إلى أن أحق المستحقين من بين طبقات الأمة لهذا المرفد والمعونة هم فئة المجاهدين الذين حبسوا أنفسهم للدفاع عن كيان الدولة وكيان الملة، أو الذين أصابتهم الجراح في هذا السبيل فتركتهم لا يستطيعون السعي على معاشهم، هذا هو موجز الوصايا التي ستفصلها آي الذكر الحكيم، فلنستمع إليها، ولنتأدب بآدابها لنكون من أهل الإحسان في الإحسان والله المستعان.

***

سورة البقرة.. ﴿وَالْوَٰلِدَٰتُ﴾

هذا الشطر الثاني يتناول اللواحق والتوابع التي تجيء بعد انفطام الجنين بالطلاق أو الموت، ولكي نضم أطراف الحديث بعضها إلى بعض يجمل بنا أن نتذكر الخطوط الرئيسية التي تألف منها الشطر الأول والأعراض التي وُضعت لعلاجها، فالأصل في الحياة الزوجية أن تكون حياة سكن ومودة وتعاون على أسباب السعادة المشتركة وأن تكون أساسًا لبناء أسرة مستقرة نامية مزدهرة، ولكن الحياة في كل ميادينها لا تخلو من الأخطاء والهفوات؛ ولذلك لا تخلو من فترات تتقلب فيها القلوب بين الخلطاء، وترى الناس بإزاء هذه الأعراض صنفين؛ فأما النفوس الكريمة فإنها تغسل عنها هذه الغشاوات العابرة بماء الصفح والإغضاء، وأما النفوس الشحيحة الضيقة العطن فإنها تمد في حبل النزاع، وقد تتطور الأمور فيها سراعًا فيتحول العبد الأليف إلى القول العنيف والإعراض المحدود إلى الهجرة الممدودة، وقد يفتها الشقاق إلى الفراق، ماذا صنع القرآن في علاج هذه الأزمات، إنه لم ينتظر أن تمضي السلسلة إلى نهايتها، بل أخذ يعالجها حلقة حلقة، وكان أول شيء أنه حَظَرَ علينا كثرة الحلف واليمين، ولا سيما الحلف على قطع ما أمر الله به أن يوصل، فإذا صدرت اليمين وكانت قَسَمًا على هجران الزوجة فقد وضع حدًّا لهذا الهجران فجعل أقصاه لا يزيد على أربعة أشهر، دعانا في رفق إلى أن نجعل الفيئة والصلح نهايتها، فإذا ضعفت الإرادة أمام نزعة الشر وأفضى الأمر إلى إيقاع الطلاق فقد جعل للحالف مهلة فسيحة يراجع فيها نفسه ويرد فيها الزوجة إلى عصمته، فإذا تجددت أسباب النزاع مرة أخرى وطوعت له نفسه أن يوقع طلاقًا ثانيًا فقد بسطت له الرحمة السماوية يدها بمهلة ثانية يراجع فيها نفسه، من هذا كله يتبين لنا مبلغ حرص الشريعة الرحيمة على توثيق هذه الرابطة المقدسة وعلى الحيلولة دون

انفصامها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فإذا فرض أن الزوج بعد هذا كله اختار أسوأ الحلين وجعل فراقه نهائيًا حاكمًا فقد وقع نصف المأساة، ولكن بقي نصفها الثاني، نعم بقي النظر فيما يؤدي إليه هذا الوضع من خصومات ومنازعات وفيما يتقرر على أثره من حقوق وواجبات، وبقي النظر في نزعة الزوجة إلى المسارعة بعقد علاقات جديدة وتناسي تلك الصلات والذكريات، بل بقي النظر قبل ذلك فيما عساه أن يكون قد زاد من لبنات جديدة في بنيان الأسرة، بقي النظر في شأن الأولاد في ذلك الجيل الناشئ الضعيف الذي قد يصبح عرضة للضياع بسب الإهمال، بسبب العناد والتشفي، بسبب الخروج من تلك البيئة الموحدة إلى بيئة ممزقة، محروقة من تعاون الأبوة الكريمة والأمومة الرحيمة، هذه هي الشؤون التي سيتناولها الشطر الثاني من دستور الأسرة فلنستمع إلى الوصايا الربانية في مختلف هذه الشؤون، الوصية الأولى في شأن حماية النسل والعناية بشأن الطفل، إنها تلاحق الأبوين بالنصح والإرشاد وتستثير ما فيها من كامن العطف والحنان.

أيتها الأم: لا يحملنك فراق زوجك على أن تسيئي إلى تغذية ولدك أو تقصري عن كفايته.

أيها الأب: لا يحملنك فراق زوجتك على قطع النفقة عنها وترك معاناتها على القيام بحقوق ولدك، أيها الأبوان إن ولدكما هو ثمرة الوئام بينكما، فليكن بيتكما رسول رحمة وسلامة لا أداة مضارة وعناد، فإن تنازعتما في تحديد أمد رضاعته فليكن حتم النزاع بينكما بمده إلى الأجل الأقصى سنتين كاملتين، أما إذا اتفقتما على أجل معين قبل السنتين فلا جناح عليكما في فطامه عند الأجل الذي تتراضيان عليه بعد التشاور مع أهل الخبرة والصحة والتربية لمصلحة الرضيع، هذا هو جوهر الوصية الأولى.

الوصية الثانية فِيشَأْنِ العدة والخطبة.

والوصية الثالثة في شأن المتعة والصداق وبعد أن يقرر القرآن فيهما قانون

الحق والعدل يتبعه بقانون أسمى هو قانون البر والفضل مرغبًا صاحب الحق في التنازل عنه ومرغبًا من يؤدي الحق في أن يزيد عليه وأن يعفو أقرب للتقوى، ثم يختم الدستور كله بوصية إنسانية جامعة مناشدًا فيها الناس كافة أن يكون تعاملهم على أساس الإحسان والمفارقة لا على أساس المشادة والمخاصمة. ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ ألا إنها نعمة الوصية، وإنها والله لوصية مودع، سيتحول الحديث بعدها من تنظيم شؤوننا الجزئية الصغرى إلى توجيه شؤوننا الكلية الكبرى، إلى مناجاة الله والجهاد في سبيل الله فليكن الغد موعدنا ..

اللقاء

انطوت صفحة الشؤون الجزئية الصغرى، وأشرقت جبهة الشؤون الكلية الكبرى، استمعنا بالأمس إلى فرائض القرآن في حق الزوج والولد، وسنستمع اليوم إلى فريضته في حق الله والوطن. إن هذه الشؤون العليا هي الهدف الأعظم من التشريع في هذه الصورة. يعرف ذلك من يتابع سير البيان في أحكامها، فعندما جمعت آية البر خصال الفضائل كانت أول فضيلة عملية فيها هي بذل المال في مصالح الأمة، وآخر فضيلة منها هي فضيلة الصبر في البأساء والضراء، وحين البأس وضعت النقط على حروفها وميزتها في إعرابها، ثم ما زالت الآيات بعد ذلك تردد نداءها حينًا بعد حين ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا هو الجو الذي هيأته السورة لأحكامها، وهذا هو الأديم الذي نسجت عليه وصاياها، نحن إذن في ميدان جهاد.

إننا في جبهة قتال نتلقى فيها التعليمات المتنوعة في مختلف الشؤون، وقد رجع الحديث الآن إلى محوره الأصلي فلنستمع إلى القائد الأعظم إنه ينادي جنوده نداء يحضهم به على الصلاة ونداء يحرضهم فيه على القتال والإنفاق في سبيل الله، أيها المجاهدون لا يشغلنكم جهاد عدوكم عن ذكر ربكم، إنه عُدتكم التي بها تطمئن قلوبكم، استعينوا بالصبر والصلاة، حافظوا على الصلوات في وقتها، لا تضيعوها

في حال أمنكم ولا في حال خوفكم، ثم أيها المجاهدون نبئوني عن كل ما يشغل بالكم، كل ما يساوركم من الهموم، أتخشون الهزيمة، أم ترهبون الموت أم تخافون الضياع والعيلة على أهليكم وأزواجكم من بعدكم؟ كلا لا تهنوا ولا تخافوا ولا تحزنوا، أما أزواجكم فقد وصى الله لهن بأن يمتعن حولاً كاملاً في بيوتكم، تراها - والله أعلم- كانت نافلة جعلت لزوجات المجاهدين فُضِّلْنَ بها على زوجات القاعدين اللاتي لا يتربصن إلا أربعة أشهر وعشرًا، وكذلك مطلقاتكم سيتقرر لهن في المتعة حق لا يُنْسَى، فاطمأنوا إذن من هذا الجانب، أما خشية الموت على أنفسكم فهل ظننتم أنه ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل؟ ألا تعلمون أن أجلكم سيوافيكم ولو كنتم في بروج مشيدة، أَوَ لا تعلمون أن الذي يفر من الموت قد يلاقيه، وأن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة، وأما خشية الهزيمة لجيشكم فهل حسبتم أن الفوز منوط بكثرة العدد؟ ووفرة العدد؟ ألم تعلموا أن النصر مع الصبر، وأنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وتسوق الآيات من نبأ الأولين ما يثبت هذه الحقائق كلها، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وإن الذي يبدو لنا -والله أعلم- هو أن الآيتين تشيران إلى نبأ واحد ذكر مجملاً ثم مفصّلاً، إنهم قوم من بني إسرائيل قبيل ظهور داود -عليه السلام- كانت قد غلبتهم الجبابرة على بلادهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم فخرجوا منها لا عن قلة عدد ولا عن تفرق كلمة، فقد كانوا ألوفًا كثيرة متكتلة، ولكنه الجبن والوهن وكراهة الموت وحب الحياة، فلما طال عليهم الأمد وشعروا بذلة هذا الطرد قال الله لهم موتوا توهب لكم الحياة، بعد هذا كله على يد فئة قليلة منهم تطهرت نفوسهم من داء الخور والتردد مُلِئَتْ قلوبهم ثقة بالله وحرصًا على الاستشهاد في سبيله.

***

سورة البقرة.. آية الدَّيْن والرهان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لقد رأينا كيف أفاض القرآن الكريم في الدعوة إلى إنفاق المال وبذله في سبيل الله، ثم رأينا في الطرف الآخر كيف شدد النعي والنكير على من يكتسب شيئًا من المال ابتداءً من الضعفاء والمحتاجين باسم الربا والفائدة لما عليهم من الديون، بين هذين الطرفين يضع القرآن ميزان العدل جاعلاً لصاحب الحق سلطانًا في المطالبة برأس ماله كله لا ينتقص منه شيء، ولكنه في الوقت نفسه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق في إيذاء المعسرين، ويأمرنا بأن نغدق عليهم إحدى الرحمتين؛ إما رحمة سلبية بالكف عن مطالبتهم حتى يتبدلوا من عسرهم يسرًا، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وإما رحمة إيجابية بالتنازل لهم عن ديونهم، وهذه أسمى وأفضل، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون.

هكذا اشتملت الآيات الكريمة على حكم النماذج الأربعة من المعاملات، غير أن الطابع البارز في هذا التشريع وهو طابع القناعة والسماحة يكاد ينزع من النفوس قيمة المال ويثنيها عن الاهتمام بأمره، فهل هي دعوة إلى الزهد في القيم المادية إلى حد عدم العناية بكسبها وتثميرها؟ أو عدم المبالاة وصيانتها وحفظها هيهات هيهات.

إن المال في نظر القرآن هو قوام الحياة يأمرنا أن نسعى في طلبه ويحذرنا أن نعهد بتدبيره إلى السفهاء، إن القرآن يدعو إلى كسب المال من حله وإنفاقه في محله، وكيف ينفق المال في مصارفه من لم يلتمسه من موارده ولم يصفّه من متالفه، مَنْ كان في شك من هذه الحقائق فليستمع إلى الآيتين التاليتين؛ آية المداينة وآية البرهان، إن فيهما

دستورًا من أدق الدساتير المدنية في حفظ الحقوق والأموال، بل هو أدقها على الإطلاق، نعم لقد رأينا الشعوب الأمية فرأيناها تعوّل في إثبات الحقوق بينها على شهادة العيان وحدها، ورأينا الأمم المتحضرة فرأيناها تعتمد في معظم الأمر على الوثائق الكتابية وحدها، ثم رأينا دستور القرآن فإذا هو يطالبنا بالكتابة والإشهاد جميعًا، فاكتبوا واستشهدوا شهيدين، فهذه واحدة، ثم يأمرنا بأن نجعل التوثيق بالكتابة شاملاً لا للديون الكبيرة فحسب، بل للحقوق كلها صغيرها وكبيرها على السواء هذه ثانية، ثم يندبنا إلى عدم إهمال الكتابة والإشهاد حتى في المبايعات الفورية الفاخرة الثمن وهو إرشاد واضح لأرباب الأعمال المالية إلى العناية بدقة حسابهم وضبط صادراتهم ووارداتهم يومًا فيومًا، بل ساعة فساعة، هذه ثالثة.

ثم ينبهنا إلى أنه منعًا لكل خلاف ونزاع لا يكون الكاتب هو أحد الطرفين، بل شخصًا ثالث بينهما عدلاً منصفًا عالمًا بقواعد المعاملات.. وشرائطها وأصول الكتابة وصنعتها الصحيحة الواضحة. أليس هذا هو نظام التوثيق أمام كاتب العقود الخبير بهذه الشؤون؛ هذه رابعة، ثم يأمرنا في حال السفر الذي يتعسر فيه العثور على هؤلاء الكتاب أن يلجأ المتداينان إلى الاستيثاق بالرهون، وكأنها يرشدنا بكلمة السفر إلى أنه في حال الحذر لا ينبغي أن تخلو الجماعة من هذا الجهاز الحسابي الدقيق، ولن أحصي ما في الآيتين الحكيمتين من دروب الإرشاد والتوجيه الحكيم؛ لأنها أكثر من أن تُحصى.

والآن وقد أشرفنا على الختام أحب أن نقف ها هنا وقفة قصيرة نحصي فيها هذه المراحل التي قطعناها من هذه السورة والخطوات اليسيرة التي بقيت لنا فيها، لقد تناول الشطر الأول في هذه السورة أصول الإيمان ومبادئ العقيدة، وكان الشطر الثاني تفريعًا على الشطر الأول بتفصيل آداب الإسلام وفضائله العلمية، فهل بقي شيء من أمر الدين وراء هذين الشطرين؟ نعم لقد بقي ركن ثالث هو روح الأعمال وحياتها، بقيت مراقبة الله في كل عمل ومحاسبة النفس على أعمالها قبل



أن تحاسب نعمه، بعد الإيمان والإسلام يبقى الإحسان وهذا هو الذي توجت به السورة هامتها في آية واحدة قبل أن تطوي صفحتها ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، وتطوي السورة أخيرًا بأسلوب رد العضد على الصدر ذلك أنها كانت قد بدأت بوعد الهدى والفلاح لمن سيؤمن بها ويعمل بما فيها، الآن تختم بتحقيق هذا الوعد لمن آمن بها وعمل بما فيها، جعلنا الله وإياكم من أهل هذه الخواتيم الحسنى. آمين.

* * *

حديث سورة آل عمران عن غزوة أُحد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه الآية الكريمة التي استمعنا إليها آنفًا في آيات أخرى تسبقها وآيات تلحقها ستون آية من سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

نزلت كلها بعد غزوة أُحد؛ تسجيلاً لوقائعها، وتفسيرًا لأسبابها ونتائجها، وغزوة أحد هي ثانية الغزوتين الشهيرتين في صدر الجهاد الإسلامي، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى (غزوة بدر) تغمر قلوبهم عند ذكراها موجة من البهجة والغبطة؛ لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذُلهم واستضعافهم وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم، نصر القلة على الكثرة ونصر الضعف على القوة، بل نصر قوة الحق والإيمان على قوة الجبروت والطغيان، ولكنهم حين يذكرون الغزوة الثانية (غزوة أحد) يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزنًا وأسفًا لما أصابهم فيها من قرح، ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء، ولو فقه الناس لكان اغتباطهم بيوم أُحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر، ذلك أن يوم بدر كان لونًا واحدًا من الحظ وكانت فيه عبرة واحدة من معجزة النصر، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطوارًا ثلاثة، وكان لكل طور منها سره وعبرته، لقد كان أوله نصرًا ظاهرًا كيوم بدر، بل كان النصر فيه أظهر وأظهر؛ كان المشركون يوم بدر ألفًا وكان المسلمون يومئذ نيفًا وثلاثمائة؛ أي أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم، أما في يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف وكان المسلمون عند خروجهم ألفًا، ولكنهم نقص عددهم في



الطريق حيث تخلف عنهم عبد الله بن أُبَيّ في ثلاثمائة من المنافقين، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضًا ولكن الله ثبتهما، فأصبح جيش المسلمين سبعمائة؛ أي أقل من الربع، ومع ذلك فقد اكتسحوا الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحًا وتقتيلاً.

هذه هي الجولة الأولى أشارت إليها الآية العزيزة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ تحسونهم؛ أي تحشونهم حش الأعشاب وتحصدونهم حصد الهشيم وتستأصلونهم بإذن الله وتنكيله، فلننظر الآن كيف تحول الموقف، لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم -صلوات الله عليه- حين بوَّأ المؤمنين مقاعد للقتال وخصص لكل طائفة منهم محلاً لا تتخطاه جعل فريقًا من الرماة فوق الجبل يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه وأصدر أمره إلى هذا الفريق أن يثبتوا في مراكزهم أيًا كانت النتيجة قائلاً لهم: «لا تبرحوا مكانكم نصرنا أو هزمنا حتى لو تخطفتنا الطير»، ولكن الذي حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم واندفعت كتلة جيش المسلمين وراءهم تجمع الغنائم والأسلاب.

ظنت فرقة الرماة أن قد وضعت الحرب أوزارها وأنه لن يكون للمشركين رجعة، فاندفعت هي بدورها تجمع الغنائم، وهكذا تركت في ظهر الجيش ثغرة فطن لها فرسان المشركين فتسللوا منها وتتابع القوم وراءهم هناك أُخِذَ المسلمون على غرة من خلفهم فأصابهم الفشل والاضطراب والخور، وفر أكثرهم مصعدين في الوادي؛ أي: منحدرين فيه لا يلوون على شيء، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا حوله، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات حتى نادى منادٍ أن محمدًا كان من بين القتلى، فتراكمت بذلك دروب الغم والهم على المسلمين، غَمٌّ على ما فاتهم من النصر بعد إحرازه، وغَمٌّ على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل، وغَمٌّ على تركهم الرسول من خلفهم وإيثارهم أنفسهم على نفسه، وتلك هي الجولة الثانية التي يقول الله في شأنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ



صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، ويقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين، وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذي يقترن في نفوسهم بذكرى هذه الموقعة؛ لأنها في نظرهم قد انتهت بكارثة، هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها أثرها وهي جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل في صهر النفوس وشحذ العزائم ورفع الروح المعنوية في الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان، ولعمري لقد كان للوحي القرآني أكبر نصيب في إعلاء هذه الروح، نعم لقد حزن المسلمون في أول الأمر لما أصابهم، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارًا تحرق القلوب، ولكنها كانت نورًا يضيء الطريق، لقد كانت نارًا وحسرات في قلوب المنافقين وضعاف النفوس، أولئك الذين أهمتهم أنفسهم فجعلوا يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ولكنها عادت بردًا وسلامًا في قلوب المؤمنين، إذ مسح على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

وما إن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم ويواجهونه مطابقين بين خسائرهم وأرباحهم ويتأهبون في الوقت نفسه للكر على عدوهم، لئن كان قد جرح منهم كثير لقد جرحوا هم أيضًا كثيرًا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ولئن كانوا قد استشهد منهم اليوم سبعون لقد قتلوا في الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

وفي الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم، وأنه كان لشؤم معصية بعضهم لأمر القائد وتطلع بعضهم إلى عَرَض الدنيا، ولكن ها هم أولاء



يضمدون الآن جروحهم، ويستعدون في عزم وحزم لملاقاة عدوهم لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم أن وَلّى الأعداء راجعين إلى ديارهم، تلك هي الجولة الثالثة التي أشارت إليها الآيات الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

ويتساءل الناس بعد ذلك: لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة؟ فيجيب القرآن: لأنه لو دام النصر هكذا لدخل الناس في الإسلام ظاهرًا لا اقتناعًا بالأصل، ولكن انضمامًا إلى صف المنتصرين وإذًا لا يتميز المؤمن من المنافق، ولا يستبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده في السراء والضراء، ولو دام النصر هكذا لَدَاخَلَ نفوسَ المسلمين شيءٌ من الزهو والغرور، وما نال المجاهدون رتبة التضحية ودرجة الشهادة وما انكشفت رؤوس الجريمة والفساد السفاكون لدماء أولياء الله المستحقون لمقت الله، هكذا يقول الله جلت حكمته: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

أما بعد؛ يا معشر المجاهدين الذين أصابهم القرح في فلسطين؛ هذا مَثَلٌ خالد من أمثلة الشدائد المحمودة العاقبة ضعوه دائمًا نُصْب أعينكم، واذكروا دائمًا أن ما أصابكم لم يكن خاتمة، وإنما كان حلقة عارضة في سلسلة من الانتصارات الماضية والمستقبلة، وما عليكم اليوم إلا أن تتأهبوا لجولتكم الثالثة أسوة بأهل أحد ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

نور من سورة النساء لمحبي الطهر والجمال الخلقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ما أكثر البقع واللمع في ثوب أخلاقنا، وما أطول الطريق على محبي الطهر والجمال الخلقي حين يتعهدون هذه البقع واللمع بالإزالة والتنقية واحدة بعد واحدة.

كانت أولى حملات التطهير التي ندبنا إليها القرآن المجيد حملة المكافحة لمداد الجمع والمنع، جمع الأموال واكتنازها ومنعها عن الخروج من يد صاحبها، فما زالت الآيات الحكيمة تعالج من النفوس أبوابها المغلقة حتى فتحت أَغْلَاقَها وعُقَدَهَا الموثقة حتى حلت وثاقها، كرهت إلينا خلة الضن والإمساك وحببت إلينا شيمة البذل والإنفاق، وما برحت تحبينا في هذه وتبغضنا في تلك حتى خشينا أن يكون الانطلاق في بذل المال انطلاقًا إلى غير مدى، وأن يكون الزهد فيه زهدًا على غير هدى، وإذا بالحكمة القرآنية تضع الأمور في نصابها، وإذا هي حين فتحت الكنوز أقامت الحراس على أبوابها ضبطًا لوردها وصدرها وتنظيمًا لوجوه توزيعها، توزيعًا بالقسط يوفر على النفس حظها المقسوم ويؤدي للغير حقه المعلوم لا حرمان لا تقصير ولا إضاعة ولا تبذير وكان بين ذلك قوامًا، هذه الوصية الثنائية هل تراها وصية عامة شاملة؟ هل كل فرد من الناس أهل لأن يوجه إليه خطابها؟ لننظر أليس في الناس المرزوق والمحروم، أليس فيهم الواجد والفاقد، فمن لم يجد ما ينفقه أو يمسكه كيف يقال له: لا تمسك ولا تقتر ولا تسرف ولا تبذر إنها إذًا وصية لشطر واحد من شطري الأمة، فما خطب شطرها الثاني؟

إنها وصية لأرباب الأموال، فما بال مَنْ لا مال له، هل أعد القرآن لهم وصية مقابلة لهم، وإنها بدورها لوصية ثنائية تهدي كذلك إلى طهارة مزدوجة. وصية لمن لم يَجِدْ أن يَجِدَّ



لِيَجِدَ، ثم وصية له ألا يتطلع لما في يد الواجدين، دعوة إلى شرف العمل الكاسب الذي يغني صاحبه وينشر الغنى مِنْ حوله على العاجزين، ثم دعوة إلى أشرف نوعي الغني وأكرمها فـ«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنه غنى النفس»، والتسامي عن موقف الحاجة والضراعة وعن ذل السؤال والالتماس، بل عن التمني والتشهي لما في أيدي الناس، بهاتين الوصيتين الذهبيتين جاء الذكر الحكيم في آية ما أحرانا أن نتدبرها وأن نزن أنفسنا بميزانها ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء].

يقول الله -تعالى- لهؤلاء الذين يمدون أعينهم إلى ما عند غيرهم إنكم في التماس الخير لأنفسكم تتركون الفساح الواسعة الأمينة وتميلون إلى المسارب الضيقة الموحشة أنكم تتركون البحر وتستقون من الغدير، ما لكم ولما في أيدي الناس فإنما من عندي نالوا من قبل، وإنما أبوابه مفتحة لكم ولهم، تحركوا عن هذا الطريق فإنه طريق شائك غير مسلوك، وقد مهدت لكم بدله طريقين مسلوكين، فدلوا وجوهكم شطرهما دونكم الأرض الواسعة جعلنا لكم ميدان الكسب والعمل فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقي، ودونكم السماء الرفيعة جعلتها لكم قبلة الدعاء والأمل؛ فإياي فادعوا واسألوني من فضلي، تلك وصية الله، فماذا كان موقفنا منها؟

وآسفاه! لقد وقف أكثرنا منها موقف الإباء العنيد، لا إلى ميدان الأعمال يبرزون، ولا إلى قبلة الآمال يتوجهون، ولكنهم يحطون أنظارهم عند طرف أنوفهم يفتحون أعينهم على رزق الجار والقريب والصاحب والزميل يحصونه ويعدون عدًّا، يقولون: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ ألست أحق من فلان هذا العيي الغبي؟ ألست أفصح منه لسانًا، وأرحب جنانًا، وأكبر سنًّا، وأوسع علمًا، وأشرف بيتًا؟ ولكنه على رغم ذلك أكثر مني ملأ وأعز سلطانًا والدنيا عليه أشد إقبالاً! يا ليتني مكانه وله مكاني! هكذا يصنع أكثر الناس، هكذا يصنع الفاقد للشيء، يفني عمره للتطلع إلى حظ أخيه، وهكذا يصنع المقل يضيع وقته في حساب رزق المجتهد، ولعله لو دقق الحساب لوجد نفسه قد أوتي من العلم والحكمة ومن

الصحة والقوة أو من الشرف والكرامة ما هو أعز قدرًا وأغلى ثمنًا، ولكنه ينسى الكنز الذي في يده ويتلفت إلى الزخرف الذي في يد صاحبه، وَهَبْهُ لم يؤت من هذه الحظوظ الأدبية وما يعادل تلك الحظوظ المادية أو يزيد فهل حسب أن سعة الرزق عند الآخرين تضيق عليه هو رزقه؟ هل يخشى أن سعة الرزق عند الآخرين تنتقص من ينابيع الثروة شيئًا فشيئًا فهو ينافسهم فيها ويزاحمهم عليها قبل أن يستنفذوها؟ يا هذا! إن خزائن الله لا تنفذ وإن معين نعمته لا ينضب، فما بالك تزاحم الخلق على شربهم من هذا الحوض الضيق المورود من هذا الحوض الضيق المحدود، وأمامك ذلك المنهل العذب المورود الذي لا ساحل له ولا حدود؟! هل نسيت مقالة الله عز وجل في حديثه القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

ألا من كان ملتمسًا في رزقه الفضل إذن من الله وحده فليلتمسه، ومن كان مطالبًا فيه بالحق والعدل فليطلبه من نفسه من جده وجهده من كد يمينه وعرق جبينه، هكذا يقرر القرآن حق العمل، أعني حق كل عامل في ملك ثمرة عمله ونتاج كسبه يقرره القرآن حقًّا طبيعيًّا، بل لا يقرر حقًّا طبيعيًّا سواه حتى الميراث لا يقرره حقًّا طبيعيًّا، وإنما هو حق وضعي ومنحة إلهية وصية من الله فريضة من الله، نعم: قرر القرآن حق العمل هذه واحدة، ثم قرره حقًّا عامًّا يستوي فيه الذكر والأنثى هذه ثانية، ولكنه مع ذلك يقرره حقًّا جزئيًّا؛ للفرد الكاسب منه نصيب، وللأمة منه نصيب، فهذه ثالثةُ مبادئٍ ثلاثةٍ سبق القرآن بها أحدث النظريات الاقتصادية وأعدل المبادئ الاشتراكية ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾.

هما إذن خطتان لا ثالثة لهما؛ طريق مسدود، وطريقان مفتوحان، لا تسأل الناس، ولا تحسد الناس، ولا تَتَمَنَّ ما في أيدي الناس، هذا هو الطريق المحظور، ولكن عليك الأمل، وفي الله الأمل، وهذان هما الطريقان المفتوحان.

***



القسم الخامس

نور من سورة المائدة

١ - مقاييس الكمال في وضع التشريعات.

٢ - الوسائل المستفيضة للعزائم.

٢ - تفسير آية القسط، خلاصة الدستور الإسلامي.

٤ - حول عجائب الطباع.. ومفارقات الأخلاق.

٥ - معنى الإحسان.

سورة المائدة

مقاييس الكمال في وضع التشريعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

التي أحاطت بهذه الآية والتي صدرت بها هذه السورة الكريمة، وقبل كل شيء نحب أن نعرف مقاييس الكمال في وضع التشريعات إنها ترجع إلى مقياسين؛ مقياس في امتداد التشريع لمعرفة مدى تناوله لمختلف الشؤون، ومقياس في عمق التشريع وهو فهم لمعرفة قيمة تعاليمه، وحسبنا الآن أن نعرض الآيات الكريمة على هذين المقياسين لتعرف أول الأمر كيف أن هذه الآية القليلة لم تدع شأنًا من شؤون الإنسان في خاصة نفسه أو في محيط أسرته أو في علاقته بالناس أو في علاقته بربه إلا أخذت منه بطرف، وضعت له نظامًا يلائمه، ولنعرف ثانيًا أن هذا النظام الذي وضعته يتسم في كل مجال بالرفق واليسر، ويقضي في كل شأن بالعدل والبر.

سورة المائدة من أواخر السور نزولاً، بل وفيها آخر آية من أي التشريع، نزلت تلك الآية الخاتمة في يوم عرفة من حجة الوداع وكان يوم جمعة، فكان يومها كما قال عمر عيدين خالدين من أعياد الإسلام، عيدًا أسبوعيًا وعيدًا سنويًا، وكان نزولها إعلانًا ببشرتين عظيمتين؛ بشرى هزيمة الشرك واضمحلال أمره اضمحلالاً أيأس المعاندين من إطفاء نور الإسلام ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾، وإنها لبشرى للإنسانية كلها أن تتم تلك الرسالة الكاملة التي ختمت بها رسالات السماء كما ختم بصاحبها عقد الأنبياء، وحقًّا إنها لشريعة كاملة هل نريد برهانًا على ذلك.

وإليك البيان: هل رأيت في مجال التشريعات شأنًا أهون حظًّا أيسر من شأن



السلوك الفردي في أمر الطعام والشراب، حتى هذا قد وضعت له الآيات ميزان الاختبار وقاعدة الاختيار، بل إنها بدأت به باعتباره أول خطوة في طريق الحياة، وكانت في شأنه حكيمة رحيمة جعلت الأصل الأول فيه هو الحل والإباحة، وجعلت الحظر هو الاستثناء؛ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، ثم جعلت مدار الحل فيه على خلوه من الدنس الحسي والمعنوي ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤]، ولم تحرم منه إلا ما خبث في حسه أو في معناه، وحرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، فإذا جاوزنا دائرة الفرد إلى دائرة الأسرة وجدنا التوجيه الحكيم في تكوينها لا على قاعدة المال والجمال ولا على مبدأ الأحساب والأنساب، ولكن على قاعدة العفاف والإحصان.

ضربت الشريعة مثلاً كريمًا من سماحة الشريعة وسعة صدرها بإباحتها لنا مصاهرة أهل الكتاب؛ أعني التزوج من نسائهم على هذه القاعدة الخلقية نفسها ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فإذا انتقلنا من حظيرة الأسرة إلى ميدان الخلطة والعشرة وجدناه قد أسس على قاعدة التعامل الشريف بين الإنسان وأخيه الإنسان ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وإذا نظرنا إلى الأمة في جملتها وجدنا الطابع العام الذي رسمته الشريعة لها قائمًا على تعظيم حرمات الله وتقديس شعائره الظاهرة التي منها تتألف شخصية الأمة وبها يتم تجانسها ووحدتها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ثم إذا حولنا نظرنا من داخل الأمة إلى خارجها إلى العلاقة بينها وبين سائر الأمم وجدنا الشريعة تبنيها على أكرم المباني الإنسانية وأبعدها عن الحزازات القومية، بل عن العصبيات الدينية نفسها ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا﴾.

وأخيرًا إذا ارتفعنا إلى الأفق الروحي الأسمى وتطلعنا إلى علاقة الإنسان بربه رأينا كيف تحتفل الآيات بكبرى الشرائع الروحية - فريضة الصلاة، وكيف تأمرنا أن نتأهب لها بأنواع الطهارة ليلتقي نقاء الظاهر بنقاء الباطن في هذه المناجاة الرفيعة



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، ولا تكتفي الآيات بهذا التشريع المفصل حتى تلخصه مرتين، في عبارتين موجزتين:

واحدة في افتتاح الحديث عنوانًا لما سيُتلَى من التفاصيل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وواحدة في ختام الحديث تحصيلاً لما تُلِي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ﴾.

فالله ما أوفى هذا البيان مجملاً ومفصلاً! ولله ما أحكمه أولاً ووسطًا وآخرًا!

* * *

سورة المائدة

١- الوسائل المستنهضة للعزائم

استمعنا من قبل إلى صدر سورة المائدة ووعينا ما في فاتحته من المناشدة للمؤمنين أن يوفوا بما عاهدوا الله عليه من اتباع أحكامه والوقوف عند حلاله وحرامه، ثم رأينا أنه كيف في آيات قليلة أحاط بأطراف هذه الأحكام التي تناولت مختلف وجوه الحياة فردية وأسرية ومدنية وقومية وعالمية وروحانية، إن الذي يصغي بانتباه إلى تلك المناشدة الوجيزة وإلى هذا الإلمام السريع بأطراف التشريع ليحس إحساسًا قويًا بأنه في حفل وداع، وأن تلك كلها نصيحة مودِّع مُشفِق حريص على تسجيل وصيته في قلوب أحبابه قبل مفارقتهم، ولكن شأن الناصح المشفق أنه لا يكتفي بصياغة الوصايا وتحديد الواجبات دون أن يلحقها بوسائل الاستنهاض التي تبعث العزائم على الاستمساك بها وتمنع الهمم من التراخي فيها، هذه الوسائل المستنهضة هي التي سنستمع إليها اليوم في آي الذكر الحكيم، إنه سيدعم وصاياه السالفة بنوعين من الدعائم؛ دعائم نازعة باعثة محركة على الطاعة، ودعائم وازعة مانعة محذرة من المخالفة.

أما الدعائم الأولى فإنها تلمس في قلوب المؤمنين شعور الاعتراف بالجميل، وقد اختيرت مادتها من تاريخ الأمة الإسلامية نفسها، لقد كان المسلمون في أول الأمر قليلاً مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم الله وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات، وكم من مرة همَّ أعداؤهم أن يبسطوا إليهم أيديهم بالسوء فكفَّ الله أيدي أعدائهم عنهم، بهذا وذاك قد أصبحوا مدينين بواجب الطاعة لهذا المنعم وواجب الوفاء بعهده شكرًا له على نعمته واستدامة لها واستزادة

منها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١].

وأما الدعائم الثانية فإنها تثير في النفوس غريزة الحذر والتبصر في العواقب وتبعث فيها نزعة الاعتبار بالحوادث، وقد اختيرت مادتها من تاريخ الأمم الأخرى الذين أخذت عليهم المواثيق فنقضوها ولم يوفوا بها فكانت عاقبة أمرهم خسرًا ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ثم تضرب الآيات مثلاً من أمثلة النقض للمواثيق بما كان من قوم موسى حين دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة فاتحين وأخذ عليهم الميثاق وبعث منهم اثني عشر نقيبًا كافلين لهم وشاهدين عليهم، ووعدهم بنصر الله لهم إذا عزَّرُوا رسله وآزروهم ونصروهم، ولكنهم قعد بهم الخوف من الجبارين فقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فما كان جزاؤهم إلا أن حَرَّمَ الله عليهم دخولها أربعين سنة يتيهون في الأرض، هكذا فليحذر المؤمنون ألا يوفوا بعهودهم لئلا يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم، فالعاقل من اتعظ بغيره.

أما بعد: فإن دعوة الإسلام ليست حريصة على أبنائها وحدهم وإن كانت بهم أشد رأفة ورحمة، إنها حريصة على الإنسانية كلها يعز عليها أن يقع أحد من الخلق في الشقوة والعنت، من كان في شك من هذا فليقرأ الآية قبل الأخيرة من سورة التوبة، من أجل ذلك نرى الآيات الكريمة تلتفت في الأثناء إلى أهل الكتاب المعاصرين لنزول القرآن لتمحضهم النصح ولتمنعهم عن الانحدار في التيار الذي انحدر فيه المعرضون الناكبون ولتفتح أعينهم على النور الجديد الذي يهدي إلى سبيل السلام وعلى الكتاب الجديد الذي يُخْرِج الناس من الظلمات إلى النور حتى لا يكون لأحد منهم حجة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ألا فقد جاءهم البشير والنذير والكتاب المنير.

***

٢- خلاصة الدستور الإسلامي

تفسير آية القسط[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، قال الله -تعالى- وهو أحكم القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨].

هذه الآية الكريمة، إحدى جوامع الكلم القرآنية، بل هي خلاصة الدستور الإسلامي كله، ذلك أننا لو أحصينا أوامر الشريعة ووصاياها، لوجدناها ترجع إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول: أداء الحقوق الإلهية وهو معنى قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨].

الأصل الثاني: رعاية الحقوق الإنسانية وإليه الإشارة بقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، إلى ختام الآية، فمن أوفى بهذين الأصلين فقد جمع الدين كله، وحاز البر جملة.

فلننظر الآن إلى تحليل النص الذي انطوى فيه الدستور الحكيم، لنرى كيف رسم للمؤمنين حياة مثالية تقتضيهم من العزيمة أمضاها، ومن الهمة أبعدها وأسماها.

فهو حين يطالبنا بحق الله، لا يأمرنا بمجرد أدائه على أي وجه كان، فالمنافقون قد

---

(١) أذيع في صباح الأربعاء ١٢ / ١١ / ١٩٥٢م.

يؤدون فروضهم، ولكن كسالى متثاقلين، أما المؤمنين -حسبما يقرره القرآن المجيد- فشأنهم أنهم يؤدون واجباتهم قائمين على أقدامهم، بكل ما في كلمة (القيام) من معانٍ نبيلة، ففي القيام معنى النهضة والوثبة التي نطرح بها رداء الغفلة والكسل، وفيه معنى الجد واحتمال المسؤولية في الأمر الذي نقوم به، وفيه معنى الإجلال والتعظيم للذي نقوم له، وفيه معنى الاعتدال والاستقامة ليكون الذي نؤديه معتدلاً مستويًا، لا نقص فيه ولا انحراف، وفيه إلى ذلك كله معنى الحيوية والروحانية؛ لكيلا تكون أعمالنا صورة آلية كالجثة الراقدة الهامدة، التي لا روح فيها ولا حياة.

ترى لو جمعنا هذه الفضائل كلها عند النهوض إلى عمل من أعمالنا، هل بذلك قد بلغنا المثل الأعلى الذي يوجهنا إليه دستور الإسلام. هيهات، هيهات، إن القرآن لا يكتفي بتحقيق هذه الصفات في بداية سيرنا، أو في بعض شأننا دون بعض، إنه لا يرضى لنا بنهضة جادة تعقبها فترة خامدة، ولا يحب منا أن تكون حرارة عزائمنا كنار الهشيم سريعة الوقود سريعة الخمود أليس ذلك -وا أسفاه- هو الشأن في أكثر عزائمنا وهممنا. إنما هي صحوة تغمرها الفترات وخطوة لا تتلوها خطوات، وهذا -والله- هو سر فشلنا وإخفاقنا في عامة شؤوننا.

فلنستمع إلى نداء السماء إنها لا تقول لنا كونوا قائمين لله، بل تقول: ﴿كُونُوا قَوَّٰمِينَ﴾ [المائدة: ٨] مثابرين على القيام، صابرين على عنائه، مجددين العزم في الثبات عليه مكافحين للنزعات المضادة، التي تميل بنا إلى التراخي والقعود.

فمثل المؤمن في التزام أوامر الله، والقيام على حدود الله، كمثل الجندي الحارس على ثغر من الثغور، إنه دائم اليقظة دائب الحركة، شديد الحذر من الغفلة.

ألا ترى هؤلاء الحراس الأمناء آخذين دائمًا حذرهم وأسلحتهم.. حتى إذا غلب النعاس بعضهم في طرفة عين تصايحوا، فإذا هم مستيقظون.. كذلك الذين اتقوا: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، القوّام لله إذا هو -كما قال العلماء- من كان قوله لله، وفعله لله، وحركته لله، وسكونه لله،

وحبه لمن يحب في الله، وبغضه لمن يبغض في الله، أين من هذا الأدب القرآني أولئك المتحركون بالأهواء، القوامون للكبراء، والحقراء المتبسمون في وجوه الأبرار والأشرار على السواء؟ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨].

وبعد، فقد بدأنا حديثنا هذا بتقسيم الحقوق إلى «إلهية وإنسانية»، وأنت فلا يذهبن بك الظن إلى أن هذه قسمة انفصال، ولا تحسبن أن حق الله إنما يتناول سلوك المرء في نفسه أو فيما بينه وبين ربه في عقيدته أو في عبادته أو في سيرته الخاصة وإنه لا شأن له بمعاملة الناس فيما بينهم.. ذلك ظن خاطئ باطل، فإن حق الله عام شامل وأمره بالصدق والعدل أمر محتوم، كأمره بالصلاة والصيام، ونهيه عن الغيبة وقول الزور نهي حاسم، كنهيه عن الكفر وعبادة الأوثان، وإنما معنى هذا التقسيم أن من أعمالنا ما يتعلق بها حق واحد، وهو حق خالص، وذلك هو قسم السلوك الشخصي، ومنها ما يتعلق به حقان اثنان؛ إذ يضاف إلى حق الله حق آخر للإنسان. وذلك هو كل ما كان من أعمالنا يتعدى أثره الغير إلى الخير نفعًا أو ضرًّا، إحسانًا أو إساءة، ولقد علمتنا الشريعة الإسلامية أن التقصير في الجانب الإلهي من هذه الحقوق تمحوه التوبة وقد تكفره الحسنات والقربات، أما التفريط في الجانب الإنساني منها فلا تكفره صلاة ولا صوم ولا تمحوه توبة ولا استغفار، يمحوه رد المظالم إلى أهلها والتقدم إليها بالترضية الشافية الكافية التي يستحقونها.. قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، ولا تجدي فيه المعاذير، ولا تروج فيه شقاشق الألسنة ولا زخارف الأقلام.

هذه المنزلة الخطيرة التي يتميز بها الجانب الاجتماعي في الإسلامي من بين سائر جوانبه ها نحن أولاً نلمس أثرها البارز، ونسمع صداها القوي في الآية الكريمة، ألم تر أنها حين ناشدتنا أن نوفي حقوق الله عامة، دعتنا إليها مرة واحدة في كلمة واحدة.

ولكن انظر إليها حين تصدت لحقوق الإنسان خاصة، كيف أكدت وكررت وكيف أمرت ثم نهت ثم أمرت، ثم تلطفت ورغَّبت، ثم خوَّفت، وحذَّرت، وإنه لو كانت لنا من الوقت فسحة لفصلنا لك هذه الدقائق تفصيلاً: «فليكن حسبك من

الآن هذه الإشارة الوجيزة» غير أن الذي يلفت نظرنا بوجه خاص، هو أن الآية الكريمة حين أخذت في تطبيق هذه القاعدة اختارت له مثالاً، يُعَدُّ رمزًا لما وراءه ودليلاً على ما دونه، مثالاً هو في الحقيقة أولى الأمثلة باهتمام المشرعين ألا وهو العدل في معاملة من لا تحبهم، فالناس في العادة يطبقون قانون العدالة تطبيقًا أعرج فيفيد منه أولياؤهم ويحرم منه أعداؤهم، أما القانون الذي أرسلته السماء رحمة للعالمين، فإنه يوجّه كل عناية لهذا الجانب المهمش، فهو ينهانا أن تكون الكراهية والبغضاء التي نُضمِرها لأحد من الناس حاملة لنا على ارتكاب الجَوْر في أحكامنا عليهم وجريمة التحريف لشهاداتنا في حقهم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فإذا كان هذا منطق العدالة في الأعداء فكيف بها في الأولياء؟! إن دستور الرحمة لا ينتظر منا الجواب على هذا السؤال، بل يدعو فيكرّر الأمر الصريح بذلك العدل الشامل للأعداء والأولياء على السواء، ثم يرغّب في إقامة هذا العدل ترغيبًا روحيًّا أخلاقيًّا، مُبينًا فيه أثر العادة في تكوين الأخلاق وأثر التدريب في تربية الملكات، مُنبهًا إلى أن المرء الذي لا يزال يتحرى العدل في أحكامه ينتهي بأن يصبح العدل له طبيعة ثانية فتنبعث إليه همته طوعًا لا كرهًا، وتلك هي حقيقة التقوى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وأخيرًا فإنه يحذر الذين تتحكم أهواؤهم في أحكامهم، مذكرًا إياهم بمراقبة الله الذي يعلم سرهم وعلانيتهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فهل نحن منتهون؟!

❋ ❋ ❋

٤- حول عجائب الطباع.. ومفارقات الأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وسلام على عباده الصالحين، أما بعد:

فإن من عجائب الطباع ومن مفارقات الأخلاق أن فريقًا من الناس إذا قيل لهم هيا إلى السعادة والمجد، انفروا في سبيل الله، جاهدوا أعداء الله، افتتحوا كنوز الله، اثّاقلوا إلى الأرض وقعد بهم الجبن والخور، وإذا قيل لهم لا تسفكوا دماءكم فيما بينكم ولا تقتلوا أولياء الله طوّعت لهم أنفسهم قتل إخوانهم وقتل الصالحين المصلحين من بينهم حسدًا لهم وبغيًا عليهم، هكذا إحجام حين يجب الإقدام، وإقدام حين يجب الإحجام.

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه   وليس إلى داعي الندى بسريع

ذلك مثل بني إسرائيل، فيما يقصه الله علينا من أنبائهم، ذكَّرهم موسى -عليه السلام- بنعمة الله عليهم؛ إذ كانوا عبيدًا مستضعفين، فأصبحوا ملوكًا أثرياء أقوياء مخدومين، ثم قال لهم: أدوا شكر هذه النعمة يزدكم الله منها، وادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم، فـ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[المائدة: ٢٢]، فـ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، فانظر إلى هذا الجبن عن أمر الله كيف ينقلب بعد ذلك توحشًا وتعطشًا إلى الدماء المحرمة وإقدامًا على قتل الأنفس البريئة وعلى الإفساد في الأرض، بل على قتل النبيين والصالحين، ذلك بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التي غلَّظ فيها إثم

جريمة القتل وعظَّم فيها فضل استحياء الأنفس واستنقاذها، فـ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ولكنه الحقد والحسد يدفع بصاحبه إلى الجريمة الرخيصة، ويشجّعه على الغنيمة الباردة، وكذلك الحسود الجبان حين لا يخشى العائدة يبطش بالأبرياء المسالمين، ولا يبالي بقطع هذه الرحم الإنسانية التي أمر الله بها أن توصل، ولا يبالي أن يدنس بهذه الدماء الذكية أرض الله التي أمر أن تطهر، ثم لا يبالي أن ترتفع دعوة المظلوم فتفتح لها أبواب السماء ويتلقاها الوعد الكريم بنصر الله لها ولو بعد حين، ألا لا يفرح الظالم بهذا الانتصار المؤقت، فإنه سيصبح من الخاسرين النادمين، كما خسر وندم ابن آدم الأول حين طوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله لا لذنبٍ جناه، ولكن حسدًا له؛ لأن الله تقبل منه قربانه، فكان جزاء لقاتل كما قال محمد -صلوات الله عليه-: «إنه ما من نفس تُقتل ظلمًا إلى يوم القيامة إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول مَن سنَّ القتل»، ولأن «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء».

ألا ولا تقر أعين المفسدين في الأرض القاطعين للطريق، المعتدين على الأنفس والأموال، فقد أعد الله لهم في الآخرة عذابًا عظيمًا، وأعد لهم في الدنيا ألوان العذاب والخزي، القتل والصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض إلا أن يتوبوا قبل أن تقبض عليهم يد الدولة، أما السارقون الذين يأخذون المال خفية غير مستندين إلى قوة باطشة يروّعون بها الآمنين فجزاؤهم أن تُقطع أيديهم نكالاً من الله ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٩]، نسأل الله مغفرته ورحمته آمين. انتهى.

بعد أن وصَّى الله المؤمنين أن يوفوا بما عاهدوا الله عليه من السمع والطاعة لأوامره وبعد أن ساق لهم العبرة التاريخية التي تدفعهم إلى الوفاء بهذا العهد والتي تمنعهم من نكثه ونقضه، وبعد أن اتصل حديث العبرة عن السابقين من أهل



الكتاب بالحديث عن المعاصرين منهم لنزول الوحي الذين اتبعوا سنة أسلافهم في خيانة العهد وفي الإسراف في الفساد ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، عند هذا الحد أصبحت نفوس المستمعين للقرآن كأنها تتساءل ماذا عسى أن يكون موقف الرسول والمؤمنين بإزاء أولئك المعاصرين لهم؟

لمعرفة الجواب عن هذا التساؤل نستمع إلى ما سَيُتْلَى من آي الذكر الحكيم، إنها توجه خطابها إلى الأمة تارة وإلى الرسول تارة أخرى ترشدهم إلى الموقف الحكيم الذي يجب أن يتخذوه، يتوجه الخطاب الأول إلى المؤمنين فيأمرهم أن يصرفوا همتهم كلها إلى تقوى الله والتماس القرب منه والجهاد في سبيله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥]، كأنه يقول لهم التمسوا الفلاح والنصر بأعمالكم وجهادكم لا بأمانيكم ولا بأنسابكم لا تكونوا كالذين أهملوا تزكية أنفسهم زعمًا أنهم أبناء الله وأحباؤه، أو اتكالاً على أنهم من نسل رسله وأنبيائه، أو اغترارًا بأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وكأنه من جهة أخرى يقول لهم إنكم إن حفظتم الله يحفظكم ولن تكونوا بحاجة إلى مصارعة أعدائكم، كما قال -تعالى- في موضع آخر ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ويتوجه الخطاب الثاني إلى الرسول الرحيم الحريص على هداية قومه الأسيف على إعراضهم، يتوجه الخطاب إليه لِيُلَطِّفَ من حزنه ولِيَحُدَّ من أمله في هداية هؤلاء المفتونين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وهنا تصف الآيات فنونًا من الأفاعيل التي تدل على إصرارهم وتبرر اليأس من إصلاحهم، من ذلك تواصيهم فيما بينهم بتحريف آيات الله وقبولهم الرشوة لترويج هذا التحريف، ومن ذلك تحاكمهم إلى الرسول في بعض الأمر لا إيمانًا برسالته، ولكن التماسًا لحكم قد يكون أوفق بأغراضهم وأخف من الحكم الذي

يجدونه في كتابهم، فإذا وجدوا حكم الله في الكتابين واحدًا رفضوا حكمه واتبعوا أهواءهم، ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [المائدة: ٤٣]، ويصدر الأمر المؤكد إلى الرسول الخاتم بأنه حين يحكم إلى هؤلاء المتحاكمين إليه يجب أن يحكم بينهم بالقسط وبما أنزل الله لا بما يوافق أهواءهم، وكذلك كانت الكتب السابقة توجب على أهلها الحكم بما فيها وتعلق أن مَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، الظالمون، الفاسقون.

إنها ألقاب متعادلة القيمة في لغة القرآن، يعبر القرآن بها تارة عن الشرك ونحوه من العقائد المخرجة من الملة، وتارة يصف الكبائر التي دون الشرك، وفصل الخطاب في موضوعنا هو أن الحكم حكمان؛ حكم بالقلب، وحكم باللسان، فالذين يحكمون بغير ما أنزل الله فريقان؛ منهم فريق يؤمن بعدالة الحكم السماوي، يحكم بذلك عقله وقلبه، ولكنه لأمر ما يتركه ويحكم لسانه وقلمه بغيره، فهذا لا يخرجه عمله عن الإيمان، ولكنه ظالم لنفسه عاصٍ لربه مُخِلّ بشكره على نعمة هدايته، ومنهم فريق لا يؤمن بعدالة الحكم المنزل، بل يرى أن حكمًا وضعيًّا مخالفًا له قد يكون أقرب منه إلى إقامة الحق والعدل فيؤثره على حكم الله منشرح الصدر بهذا الإيثار، فهذا هو الذي تنطبق عليه حقيقة الخروج عن الملة.

وإنما ينشأ هذا الظن الباطل من عدم دراسة الشرائع السماوية أو من دراستها دراسة سطحية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

نقول إنما ينشأ هذا الظن الباطل من عدم دراسة الشرائع السماوية أو من دراستها دراسة سطحية، ولو أن الناس تفقهوا فيها لأدركوا عمق أسرارها ولبهرهم سمو أهدافها ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وتمضي الآيات الكريمة على نهجها في التوجيه والإرشاد تارة للأمة وتارة

للرسول نفسه لتحديد موقفهم من أهل الكتاب، كان الخطاب الأول موجهًا إلى المؤمنين يوصيهم بصرفهم لتقوى الله والتقرب إليه، وكان الخطاب الثاني موجهًا إلى الرسول الرحيم تثبيتًا لقلبه وتخفيفًا لأحزانه التي يثيرها في نفسه انصراف المعاندين والمترددين عن دعوة الحق، والآن يعود دور المؤمنين فيوجّه إليهم الخطاب في لهجة أقوى وأسرع لتنقية صفوفهم من شوائب الملَق والنفاق؛ نعم، لقد كانت الوصية الأولى أن يؤمنوا ويتوجهوا إلى الله وحده تنبيهًا برفق إلى عدم التزلف إلى الناس وخاصة إلى الأعداء، أما الوصية في هذه المرَّة فإنها تصيب الهدف مباشرة بغير إيماء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [المائدة: ٥١].

أما بعد: فإن هذا النهي ليس كما قد يظن نهيًا عن كل من التعاون بين المؤمنين وغيرهم، فإن التعاون على الخير والبر من أعظم المبادئ الإنسانية التي نادى بها القرآن ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وليس نهيًا عن كل مشاركة بينهم في الأعمال والمصالح الخاصة أو العامة، فإن حق الجوار والمواطنة في نظر الإسلام لا يبيح هذا التقاطع والتدابر، ولا يبيح هذا التقطيع لوحدة المجتمع بتلك التكتلات والعصبيات، ولقد كان الإسلام أول دعوة دينية أقامت الدولة فيها على فكرة الوطن المشترك الذي يؤوي تحت جناحه العطوف كل الأجناس والألوان والأديان.

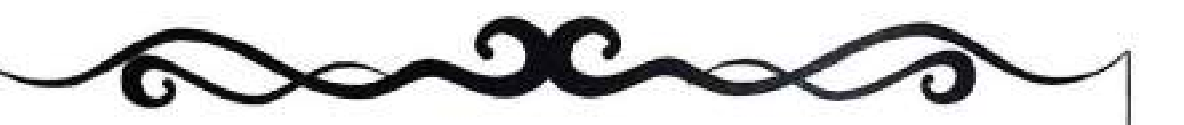
وأخيرًا فإن هذا النهي ليس نهيًا عن كل محالفة وميثاق يُعقد بين المسلمين وغيرهم، فكتاب الله وسنة رسوله مشحونان بهذه المحالفات والمعاهدات مع التعظيم لأمرها والتحريض على الوفاء بها، وإنما هي نهي عن جريمة شنعاء نكراء تفُتُّ في عَضُد الجماعة وتهدم كيانها، وقد صرح القرآن في غير موضع لِكُنْهِ هذه الجريمة وحدودها إنها جريمة موالاة الأعداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

هي موادة من حادَّ الله ورسوله، هي اتخاذ الكافرين أولياء لا مع المؤمنين بل من دون المؤمنين، هي موافقة من قاتل المسلمين وأخرجهم من ديارهم وظاهر على إخراجهم، هي الإلقاء بالمودة إلى من أخرج الرسول والمؤمنين لا لذنب ارتكبوه سوى أنهم آمنوا بالله ربهم، هذا النهي البليغ والتحذير الشديد هو إذن نهي عن موالاة الأعداء على حساب الأمة بإفشاء أسرارها لهم أو بمعاونتهم على هضم حقوقها أو بتثبيت أقدامهم على أرضها، إنه نهي عن جريمة الخيانة العظمى التي لا تجتمع والإيمان في قلب واحد، لا جرم جعلها القرآن من علامات النفاق ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، واعتبر مرتكبها منفصلاً عن جسم الأم داخلاً في تعداد أعدائها ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

بل إنه سماه مرتدًّا خاسرًا محبط العمل ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ [المائدة: ٥٣]، ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وفي الحق أن الأرواح جنود مجندة، وشبه الشيء منجذِب إليه، فهذه الموالاة والمصافاة دليل على تشابه القلوب ووحدة الأهداف، ومن كان مؤمنًا حقًّا كان الله ورسوله والمؤمنون أحق بولايته، أما إن كان يخشى الدائرة على المؤمنين أو يبتغي العزة عند الآخرين فليعلم أن العزة لله جميعًا، وأن حزب الله هو الغالبون، ومهما يكن من أمر فالعجب أن يوالي المؤمن قومًا يتخذون دينه هزوا ولعبًا ويتخذون صلاته تفكهة وسخرية؛ إذ لو كانت له عقيدة لَغَارَ عليها كما يَغَارُ على عرضه.

وهنا ينتقل دور الخطاب فيوجه الأمر إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يتولى بنفسه الرد على استهزاءاتهم وسخرياتهم بما يبيض وجه الدعوة الإسلامية وبما يعكس عليهم القضية، ولعمري ما كان أجدرهم بألا يفتحوا هذا الباب على أنفسهم، فإن من كان بيته من زجاج ليس له أن يرمي الجبل بالحجارة؛ لئلا تعود عليه شظاياها فيتهشم بيته.

***



القسم السادس

أنوار السـور

١- نور من سورة الأنفال (الفصل بين المسلمين وغير المسلمين).

٢- نور من سورة الحجر (موقف المستهزئين بالدعوة المحمدية).

٣- نور من سورة النحل (مقاصد الدعوة المحمدية في مكة).

٤- نور من سورة يس (أصول العقيدة الإسلامية).

٥- نور من سورة غافر (الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر).

٦- نور من سورة القمر (الإنذارات، وعاقبة الإعراض عن النذر).

٧- نور من سورة الواقعة (أحوال النشأة الآخرة والعبرة من شئون الحياة الحاضرة).

نور من سورة الأنفال

الفصل في القضايا بين المسلمين وغير المسلمين واعتماد المسلمين سياسة الاستعداد الكامل لدرء العدوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نعود بالذاكرة إلى عام الهجرة بعد قدوم النبي إلى المدينة لنذكر الميثاق العظيم الذي وضعه -عليه السلام- لهذه الدولة الناشئة، لقد نصَّ الميثاقُ فيما يتصل بيهود المدينة على أن لهم دينَهم وللمسلمين دينَهم، وعلى أن بينهم النصحَ والنصيحةَ والبرَّ والنصرَ على من حارب، فماذا صنع اليهودُ في هذا العهد؟ إنه منذ نشبت الحرب بين قريش والمسلمين بدأت إسرائيلُ تنقضُ عهدَها وتدبِّرُ كيدَها، بل منهم من كان يمدُّ قريشًا بالسلام في غزوة بدر، وكانوا في هذا الموقف فريقين؛ فريقًا ظهر منه العدوان، وفريقًا بدت منهم أماراتُ الغدر ولم يقعْ منهم عدوان بالفعل، فجاء القرآن مبينًا لأتباعه الموقف الصحيح تجاه الفريقين، بعد بيان ما فُعل بأشياعهم من قريش، فأما المجاهرون بالعدوان فقد أمر بقتالهم والتنكيل بهم ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

وأما الفريقُ الآخر فقد نهانا عن مباغتتهم، وأمَرَنا أن نعلق إليهم فسخ العقد في الوقت المناسب إعلانًا صريحًا يجعل الطرفين سواءً في معرفة حقيقة الموقف وفي الاستعداد له، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

فالله ما أبعد المدى بين هذا الموقف النبيل من الإسلام وبين موقفِ الغادرين الذين يطعنون خصومَهم من الخلف وفي جنح الظلام.

ثم ترشدنا الآياتُ الحكيمةُ إلى سياسةٍ حازمةٍ ثابتةٍ نسلكها بإزاء هؤلاء، وهؤلاء بإزاء غيرهم من الخصوم والأعداء، مَنْ عرفنا منهم ومن لم نعرف، تلك هي سياسة الاستعداد الكامل المتواصل ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قوة مادية ومعنوية، لا تعتدوا بها على من سالمكم، ولا لتفتكوا بمن لا يعتنق دينكم، ولكن ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، إنه إذن ليس إعدادًا للحرب ولكنه استعدادٌ لمنع الحرب. إنه سعي إلى السلم من بابها، سلم لا يطلبها المسلمون عن ضعف ويلتمسونها بالاستجداء ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥]، بل سلم تطلب منهم فيقبلونها بكرم الشرفاء وعزة الأقوياء ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ لكن كيف تقبل الصلح من الأعداء كلما طلبوه وقد تكون دعوتهم إليه خدعة ماكرة، لنستمع إلى الجواب الكريم يوجهه الله لنبيه، ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ يقول: فتقبل منهم الصلح غيرَ مبالٍ بنيَّتهم الخفيةِ طالما لم تبدُ منهم أمارة الغدر؛ إرشاد بالغ الغاية في الرحمة والمسالمة هل يسري حكمه على المسلمين بعد عصر النبوة؟!

نعم: إذا كانوا كما أمر الله على تمام اليقظة والحذر وكانوا قد أخذوا لكل احتمال أُهْبَته، فأصبح زمام الموقف في أيديهم، ولأمر ما جاء هذا الإرشاد عقب آية الاستعداد ثم تبعته آية التحريض ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾، وهو تحريض ينفخ في صدور المؤمنين من روح التضحية والقوة المعنوية ما يجعلهم أرجحَ من عدوهم ولو كانوا أقلَّ منه عددًا، ففي صدر الإسلام كان الواحد كفئًا لعشرة، ثم كثروا فتواكلوا، فأصبح الواحد منهم كفئًا لاثنين على الأقل.

قلنا: إن سورة الأنفال نزلت للفصل في قضيتين أثارتها غزوة بدر، وإن فاتحة السورة فصلت في أولى القضيتين وهي قضية الغنائم.

فها هي ذي خاتمة السورة تريد أن تفصل في قضية الأسرى. بعد أن هيأت لها

الجو الملائم بهذا التحريض على القتال، تبدأ الآيات بالعتب مرتين على المجاهدين، تأخذ عليهم أنهم تسرعوا بأخذ بعض الأسرى في أثناء القتال، وقد كان ينبغي الانتظار إلى نهاية المعركة حتى يبطشوا برؤوس الشرك حتى يظهر تمكنهم من ناصية الموقف ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثم تأخذ عليهم أنهم حين تشاوروا في هؤلاء الأسرى كان الرأي الغالب يميل إلى استبقائهم وقبول الفداء منهم، وكان هذا من عامة الجند تطلعًا إلى المال ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، وإن كان كبار الصحابة لم يبتغوا به إلا صلة الأرحام وقوة الإسلام، وبعد هذا العتب المزدوج بيَّن الله لهم حل ما أخذوا ثم بشَّر بعض الأسرى الذين أخذ منهم الفداء وكانوا في باطن الأمر مؤمنين ولم يعلنوا إسلامهم بشَّرهم بأنه سيعوِّضهم خيرًا عما أُخذ منهم، ثم حرَّضهم على الهجرة مع الرسول ليكون منهم مع المهاجرين والأنصار صلة واحدة تقاوم الفتنة والفساد الكبير الذي ينشره الكفار في الأرض بتكفلهم وموالاة بعضهم لبعض، وأنذرهم بأنهم إن رضوا بالمقام في مكة ولم يهاجروا فلن يكون لهم حق على المؤمنين إلا في مناصرة جزئية، وبيَّن لهم أن هذا الولاء العام القائم بين المهاجرين والأنصار لن يمنع من قيام ولاء بين الأهل والأقارب من كل أسرة في الميراث وغيره.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

***

سورة الحجر

بيان موقف المستهزئين بالدعوة المحمدية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بدأت سورة الحجر بأن عرضت موقفًا عجبًا من مواقفِ المستهزئين بالدعوة المحمدية؛ ذلك هو التماسهم رؤيةَ الملائكة التي نزلت بهذه الدعوة ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

وقد عقب القرآن على هذا الالتماس بأنه تعلُّلٌ غيرُ جدي ولا مجدٍ؛ لأن نزعة الشك أو التشكيك التي أعرضوا عنها لن تزول عنهم حتى لو رأوا الآيات التي التمسوها، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وبعد أن دعاهم القرآن إلى النظر في الآيات العديدة في السماء وفي الأرض وفي خلق الإنسان، وبعد أن نبَّههم برفق إلى أن انصرافَهم عن الدعوة وركونَهم إلى هذه الحياة وزينتِها إنما هو خضوع بإيحاد خفي من عدوهم المبين الذين أقسم أمام الله أن يزين لهم في الأرض وأن يضلهم أجمعين، بعد هذا وذاك سجلت لكل من الفريقينِ -فريقِ الفارين وفريقِ المتقين- عاقبتَه المعدة في الدار الآخرة، تلك هي خلاصة ما سبقت تلاوته من هذه السورة الكريمة، والآيات التي سنستمع إليها الآن إنما هي استمرار لهذا النسق بعد أن تبينت عاقبة الفريقين في الدار الأخرى؛ أخذت تبين عاقبتهما في هذه الدنيا، ثم تبين للرسول ما يجب أن يكون عليه موقفه في هذا الشأن وفي سائر الشؤون، تبدأ الآيات الحكيمة ببلاغ سماوي قوي يهز النفوس هزًّا

ويملأها في وقت واحد رغبًا ورهبًا، ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

فالله ما أجمعَ هذا الأسلوبَ! وما أشدَّ أخذه بمجامع القلوب!، وتنساق الآيات من هذا الإجمال إلى التفصيل، وتسرد الشواهدَ التاريخيةَ التي تحقق فيها ذلك الوعد والتي نفذ فيها هذا الوعيد، ومن تمام الحكمة والبراعة في اختيار هذه الشواهد أنها صدرت بما هو أمسُّ بموضوعِ السورة، أعني اقتراح رؤية الملائكة، ذلك هو حادث نزول الملائكة ضيفًا على إبراهيم وعلى لوط وفي إحدى أيديهم بشارة النعمة لأولياء الله، وفي اليد الأخرى نذير النقمة لأعدائه، جاءوا إبراهيم بالبشرى الصادقة فبشَّروه بغلام عليم، وجاءوا لوطًا بما يشفي صدرَه من عدوه إنذارًا صادقًا بأن دابرهم مقطوعٌ مصبحين، فما هو إلا أن مضى سوادُ الليل حتى أخذتهم الصيحةُ مشرقين، وهؤلاء الملائكة أنفسُهم هم الذين أخذوا بيد لوط وأتباعه المؤمنين، ورسموا لهم سبيلَ النجاة من الخطر قبل نزول الصاعقة بقليل ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

فبهذا كلِّهِ فليعتبرْ قومُ محمدٍ وليكُفُّوا عن اقتراحِ نزولِ الملائكة، لقد عرفوا الآن بماذا تتنزل الملائكة على المكذبين، ثم ليعتبروا بأصحابِ الأيكة قومِ شعيبٍ، وكيف انتقم الله لشعيبٍ منهم، وليعتبروا بأصحابِ الحجرِ قومِ صالحٍ أخذتهم الصيحةُ وهم ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين، وهؤلاء وهؤلاء، قد عرف العرب ديارهم ويمرون عليها في رحلاتهم إلى الشام في سبيل مقيم، وفي إمام مبين، طريق ثابت واضح المعالم.

وفي الختام يتوجَّه الوحي إلى النبي عليه السلام ليرسمَ له الخطة الشاملة التي يسير عليها في شئونه كلِّها في موقفه بإزاء العالم وزخارفه، وبإزاء القرآن ودعوته، وبإزاء المؤمنين بها، وبإزاء المعرضين عنها وأخيرًا في صلته بربه، أما زينةُ الدنيا

وزخارفُها ففيها يقول الله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

وكيف يتطلع إلى هذا العَرَض الزائل وقد أتاه الله مفتاحَ الخير والسعادة الحقيقية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

روى البخاري في التاريخ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعطاه الله حِفْظَ كتابِهِ، فظنَّ أنَّ أحدًا أُعطيَ أفضلَ مما أُعطي، فقد غَمَطَ أعْظَمَ النِّعَمِ».

وأما الرسالة التي نيطت به فواجبه أن يجهر بها غيرَ مبالٍ بتكذيبِ المكذبين، واثقًا بأن الله سيكفيه شرَّهم، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

وأما أُمَّتُه المؤمنةُ فعليه الرفقُ بها وليخفض الجناح لها، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما المعرضون المعارضون فسبيلُه فيهم أن يصفحَ الصَّفحَ الجميلَ، وأن يُعْرِضَ عنهم ولا يحزنَ عليهم، وأما واجبُه نحو ربِّه فهو أن يقبلَ على عبادته والتقربِ إليه.

❃ ❃ ❃

نور من سورة النحل

مقاصد الدعوة المحمدية في مكة

بسم الله الرحمن الرحيم، ما أحسنَ هذا الانتقالَ من سورةِ الحجر إلى سورة النحل، واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين، أتى أمر الله، اختتمت سورة الحجر بهذه الوصية الذهبية التي تهدى لكل من ألمَّ به ضيقٌ نفسيٌّ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾، واليقين كما يكون برؤية الحقائق عيانًا عند الموت، يكون برؤية شيءٍ من وعد الله محققًا واقعًا في هذه الحياة، وهكذا أشارت هذه الخاتمة إلى أن ساعة نصر المؤمنين والانتقام من المكذبين آتيةٌ لا ريبَ فيها، فجاءت فاتحةُ سورةِ النحل مبشرةً بأن هذه الساعةَ قريبةٌ جدَّ القرب، كانت قد ألمت بالفعل ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

سورة النحل

سورة النحلِ من السور الجامعة لمقاصدِ الدعوة المكية، فلنعرف خطَّ سيرِها في بيان هذه المقاصد، إنها ستقوم أول كل شيء بإرساء الأصول الاعتقادية، ثم تبني عليها أصولَ مكارمِ الأخلاق، ثم تتبعها بنظراتٍ عامةٍ في تأييدِ الدعوة وتثبيتِ قلوب المؤمنين عليها، وتحذير المعرضين عنها، ثم تُختم بأدب الداعي ﷺ ورسم المنهج الحكيم له في دعوته، تبدأ السورة بصيغة موجزة، تنظيم أركان العقيدة الثلاثة على هذا الترتيب: التوحيد، النبوة، الجزاء.

التوحيد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾؛ النبوة، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الجزاء، ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾. ثم أخذت في بسط هذه



الأركان الثلاثة واحدًا بعد واحد مبتدئةً بأولها وأولاها؛ توحيدِ المعبود، ولما كان توحيد المعبود عقيدةً مركبةً من عقيدتين؛ استحقاق الله -عزَّ شأنُه- للعبادة، وعدم استحقاق شيء غيره لها، كان من حقِّ كلِّ قضية منهما أن يقام عليها دليلٌ مستقلٌ؛ وذلك هو ما تكفلَّت به الآياتُ الحكيمة في نسق منطقي رائع.

أما أن الله سبحانه أهل لأن يُتَّقى ويُعْبَد، فقد برهنت عليه من طرقٍ ثلاثةٍ؛ عظمة قدرته، وعظمة نعمته، وشمول علمه وإحاطته، عظمة قدرته ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾، وعظمة إحسانه وإنعامه بكل ما ينفع الإنسان من الحيوان والماء والنبات إلى سائر الكائنات الحية، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾، ومن نعمة الحيوان تنساق إلى نعمة الماء والنبات، و﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾، ثم من هذا إلى سائر النعم الكونية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، وأخيرًا سعة علمه وشمول إحاطته ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ هنا اجتمعت صفاتُ الألوهية لله.

وأما أنَّ شيئًا غير الله لا يستحق هذه الألوهية، فقد برهنت عليه بمقارنةٍ واضحةٍ بين هذه الصفات وبين أضدادها؛ كأنها تقول: أمَّا وقد عرفتم هذه الصفات الحسنى في جانب الله، فأيُّ شيء منها في جنب غير الله ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

هكذا تمَّ الدليل بمقدمتين، ولم يبقَ إلا إعلانُ نتيجته، وها هي الحقيقة يعلنها القرآن قويةً جليةً ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، يا سبحان الله! وكيف إذا حاد المشركون عن هذه الحقيقة الجلية؟ يجيب القرآن بأنهم لم يؤتوا من جهة خفاء الحق وغموضه، ولكنهم

أوتوا من قبل كبريائهم وإغماضهم، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

والآن تنتقل الآيات إلى الركن الثاني من أركان العقيدة، وهو ركن الوحي والنبوة مغتنمة مناسبة الحديث عن هؤلاء المتكبرين، تنبّه أنهم غلوا في هذا الإنكار والاستكبار إلى حدّ أنهم لم يقفوا من الدعوة موقفًا سلبيًّا محايدًا؛ بل أخذوا يحاربونها بتعتيمها على الناس وتضليلهم عن طريقها؛ فإذا جاءهم وفد يسألهم عن محمد ودعوته، وعن شأن الكتاب الذي جاء به، قالوا لهم: إنه لم يأتِ بجديد، إنه أساطيرُ الأولين، وسلكوا في ذلك مسالكَ من البتر والتضليل، ألم يعلموا أنه قد مكر الذين من قبلهم، فأحبط الله مكرهم وعذّبهم في الدنيا وأخزاهم في الآخرة، كذلك سيكون جزاءُ الظالمين، وستكون العاقبة الحسنى للمتقين.

***



نور من سورة يس
(أصول العقيدة الإسلامية)

سورة يس من السور المكية، الجامعةِ لمبادئِ العقيدة الإسلامية، وما أكثَرَ السُّورَ الكريمةَ التي تتناولُ أصولَ العقيدة، وتُعنى بإرساءِ قواعدِها، ولكنها على كثرتها وكثرةِ تقلُّبِنَا النَّظرَ في مناهجها، لا نكادُ نجدُ سورتين منها تتحدان مشربًا ولا أسلوبًا، ولا مادةً ولا ترتيبًا، بل نرى لكل سورة لونَها ومزاجَها، ومادَّتَها ومنهاجَها، فتبارك الله الذي لا تنفد كلماته، ولا يُمَلُّ حديثه، ولا تُحصَى آياته!!

أول ما يبدو لنا من طرافة المنهج في سورة يس، أنها بدل أن تتناول أركان العقيدة على ترتيبها الوجودي المعهود (الله - الرسول - اليوم الآخر) تقدم شأن الرسالة، فتجعله في مكان الصدارة، ثم تتبعه بالركنين الآخرين، سالكةً في ذلك سبيلَ الترتيب الظهوري التعليمي، فعنصر الرسالة هو أول ما يظهر أمامنا على منصة التعليم والإرشاد، ومنه نتلقى سائر العناصر، ونتبين سائر المعالم، فهو حلقة الاتصال بين الماضي والمستقبل، وهو رأس الزاوية التي يُرى من خلالها طرفا المبدأ والمعاد والإيمان برسالة الرسول ﷺ فيطوى فيه لا محالة الإيمان بالطرفين وبكل ما جاء به، ولا كذلك الإيمان بأحد الطرفين أو كليهما، فهو إذًا جماع العقيدة وواسطة عقدها، ولعله إلى هذا المعنى يشير إلى ما ورد في الأثر: «إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن يس».

ولنأخذ الآن في عرض أجزاء السورة الكريمة: فأول ما يطالعنا منها ذلك القسم العظيم: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس: ٢-٤].

فهذا هو تسجيل الركن الأول، وتجيء الآية التالية مباشرة فتعين الجهة العليا التي صدرت عنها هذه الرسالة (وهذا هو الركن الثاني) ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس: ٥]، ثم تجيء الآية التالية مباشرةً فتبين المهمة التي تنطوي عليها تلك الرسالة، مهمة الإنذار للغافلين، بما أعد لهم في العاقبة، وهو الركن الثالث والأخير: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦].

ولا تكتفي السورة في مستهلها بهذا الإجمال في بيان المهمة، بل تتلطف في حصر حدودها وحدود مسؤولياتها، بالداعي الكريم، وتخفيفًا عن كاهله بإزاء ما سيلاقيه من الصعاب.. أرأيت الراعي الصالح حين يَرِدُ بأنعامه مناهلَ الماء، ويحاولُ حملها على الارتواء، فتستعصي وتأبى، وتظل مقمحةَ الرؤوس صلبة كأنها مشدودة بلجام، متصلبة الأعناق كأن فيها أغلالاً كاسية إلى الأذقان، تحول بينها وبين الانعطاف على الحياض، ثم تظل متجمدة لا تبرح مكانها، وكأن أمامها ستارًا، وخلفها سدًّا، أرأيت لو هلكت هذه الأنعام ظمأ بعد أن بذل راعيها جهده في سقيها، (أفيُلقى عليه) تبعة نفوقها؟! ذلك مثل فريق من الناس بل مثل أكثر الناس في استعصائهم على دعوة الرشاد، فلن يكون عليك أيها الرسول حساب هؤلاء ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ [يس: ٧].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: ١١]. أما أولئك الموتى فإن الله وحده هو القادر على أن يحييهم وسيتولى هو محاسبتَهم على ما قدَّموا من عمل، وما خلَّفوا من آثار ومثل وسنن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس: ١٢].

اثنتا عشرة آية تستهل بها هكذا سورة يس، كأنها نصُّ خطاب الاعتماد ورد به الرسول ﷺ ليتقدم به أمام أمته مختومًا بخاتم مرسِله، ومبينًا فيه كُنْه مهمته وحدودها، وموقفه من العقبات التي تعترض طريقها، فبقدر ما كان محمد ﷺ حريصًا على هداية قومه، كانوا هم حراصًا على الفرار منه والإعراض عنه.

على أن هذا الإلحاح في الطلب من جانب، واللجاج في الهرب من الجانب الآخر، لم يكن فيه محمد ﷺ وقومُه بدعًا من الرُّسل والأقوام، فما من رسولٍ أتى قومَه بمثل ما جاء محمد ﷺ إلا كُذِّبَ وعُودِيَ وحُورِبَ.. وهنا تقرِّب السورة أقرب الأمثلة التاريخية التي يرجى أن يكون فيها الرسول ﷺ وأصحابُه خيرَ أسوةٍ، وأن يكون فيها للمكذبين أسوأ عبرة، تلك هي قصة الحواريين أصحاب عيسى - عليه السلام- الذين أُرسلوا بمثل دعوة محمد إلى أصحاب القرية (وهي بإجماع المفسرين مدينة أنطاكية عاصمة البلاد السورية القديمة) أرسل الله إليهم على لسان عيسى اثنين من الحواريين، فكذبوهما فعززهما بثالث، فما زادهم إلا تكذيبًا للرسل وتهديدًا لهم بالرجم إن لم يكفُّوا عن دعوتهم، ثم جاءهم رجل من أقصى المدينة يعلن إيمانَه بالمرسلين وينصحُ لقومِه باتباعهم، فكان جوابَ قومه أن قتلوه.. فماذا كان مصير الفريقين؟

تجيبنا الآيات الكريمة: أما هو فقيل له: ادخل الجنة، وجعله الله من المكرمين، وأما قومه فإنهم لم يُمْهَلُوا أكثر من ذلك، فلم ينزل الله ملكًا من السماء بالوحي على رسول الله إليهم، ولم ينزل جندًا من السماء لتنفيذ هلاكهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩].

فهلا اعتبر قومُ محمَّدٍ واتقوا أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأصحابِ تلك القرية!!

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، لكن الموعد الحشر ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٢].

قلنا: إن ركن النبوة والرسالة كان هو الركنَ الذي أحلته سورة يس مكان صدارتها، ووهبته أول قسط من عنايتها.. وقد قررت فيه رسالة محمد -صلوات الله وسلامه عليه- بشهادة شاهد لا يحتاج إلى تزكية، شهادة القرآن الحكيم الذي يحمل في تفسيره برهان صدقه وصدق من جاء به، ثم أحاطت الرسول ﷺ بنوعَيْنِ

من أنواع التسلية والتعزية عما تصادِفُه دعوتُه من نفور القلوب الميتة، وإعراض العقول المتحجرة؛ نوع استمدته من طبيعة الداعي وطبيعة المدعوين، ذلك أنه ليس على الرسول ﷺ وهو من البشر إحياء الموتى، وإنما ذلك إلى الله -عز وجل- إذا شاء، ونوع اقتبسته من عبر التاريخ القريب؛ ذلك هو نبأ الرسل من الحواريين، وما لاقته دعوتهم من تكذيب، وما لاقاه أتباعُهم من قتل وتعذيب، ثم ما صار إليه أمر الفريقين كلٌّ بحسب ما هو أهله.

هنا تم الحديث عن الركن الأول..

والآن تأخذ الآيات في تقرير الركنين الآخرين، بادئةً بأولها وأَوْلَاهما، فتبسط لنا شيئًا من آيات الله في الأرض ونباتها، وآياته في السماء وأفلاكها، وآياته في البحار وفلكها.. كلُّها آياتُ إنعامٍ وإحسانٍ، ولكنها في الوقت نفسه آياتٌ في العظمة والسلطان، وآياتٌ في إحكام التدبير ودقة الحساب، ثم آيات مباشرة أو غير مباشرة على صحَّة البعث وصدق يوم الحساب: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣].

لعمري إن كل واحدة منها آية في جملتها للعامة والدهماء، ولكن صياغتها على أدقِّ وجوهِ التعبير العلمي تجعل للعلماء في كل آية منها آيات.. فهل عرف علماء النبات منذ كم قرن كشف لنا القرآن ما اكتشفوه هم من اشتمال النبات على أعضاء تناسلية؛ أعضاء تذكير، وأعضاء تأنيث، وأن ظهور الثمرة إنما يكون بالتزاوج بينهما، إما مباشرة في النبتة التي تحتوي الجنسين، وإما بالتلقيح بالرياح أو غيرها في النبتة التي تحتوي أحد الجنسين فحسب ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]. وهل عرف علماء المغناطيس والكهرباء منذ كم قرن نبَّه القرآن على آثار هذا التزاوج والتوالد بين تلك القوى الخفية، حين يلتقي التياران الموجب والسالب؟!

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦].

وهل عرف علماء الفلك منذ كم قرن أشار القرآن إلى هذا الكشف الجديد في سير الشمس (حتى على فرض أن الأرض تدور حولها)، وهو أن الشمس والكواكب التي تدور في فلكها تجري كلها قافلة واحدة، سائرة في اتجاه معين نحو نجوم المجرة السماوية؟!! ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس: ٣٨].

وهل عرف علماء وصف الأرض والسماء منذ كم قرن نبَّه القرآن على كروية الأرض بإثبات أن الليل والنهار والشمس والقمر ليس أحدهما سابقًا للآخر، بل هي مقترنة الوجود في كل لحظة، لكن على سطحين مختلفين من الأرض، فحيث يكون هنا الليل يكون هناك النهار، وبالعكس؟!! ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

حقًّا إن في ذلك كلِّه لآياتٍ، ولكنَّ أكثرَ الناس في غمرة ساهون ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، ويا ليت الأمر وقف بهم عند حدِّ تعطيلهم قوى الفكر والنظر، ثم انتفعوا بها لهم من مشاعرِ الخوف والحذر، وغرائزِ الحرص واتقاء الخطر، ولكن هاهم أولاء إذا نجاهم الله من البحر، وقيل لهم ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ [يس: ٤٥]؛ أن يخسف بكم جانب البر ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيغرقكم فيه، أو اتقوا ما بين أيديكم من شقاء الدنيا، وما يليه من عذاب الآخرة، لم يتقوا ولكن أعرضوا، وذلك دأبهم أمام دعوة الداعين ووعظ الواعظين ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: ٤٦].

ثم يا ليتهم إذ تجردوا من فضيلة الفكر والنظر، ومن غريزة التبصر والحذر، بقيت لهم عاطفة الإنسان على أخيه الإنسان، ولكنهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يس: ٤٧]،

ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس: ٤٨].

وهنا الحديث عن الركن الثاني تقريرًا للإلهيات ودلالاتها وإبطالاً للوثنيات وضلالاتها، وكان ختم الحديث بهذا الاستفهام التهكمي من جانب المشركين فتحًا للحديث عن الركن الثالث والأخير؛ ركن الحساب والجزاء، وهكذا تأخذ الآيات في وصف مقدماته من النفخ في الصور، وقيام الناس من القبور وحشرهم جميعًا في موقف القضاء العادل حيث لا تظلم نفس شيئًا ثم تأخذ في وصف ما يستقبل به الكافرون من تأنيب وتحسير وتنديم، ثم تصلية جحيم، وما يستقبل به المؤمنون من تكريم ونعيم وتحية رب كريم: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس ٥٨].

عرضت علينا سورة يس من أمر النبوة وأعبائها، وأمر الألوهية وآلائها، وأمور القيامة وأنبائها، ما يشاء الله لها أن تعرضه؛ عرضت علينا ذلك كله مرتين؛ مرةً في افتتاح السورة، رمزًا وحيًا وعنوانًا مطويًا، ثم مرةً في امتداد السورة حديثًا مرتلاً وقولاً مفصلاً.

والآن وهي على وشك الرحيل، تريد أن تعرض علينا عرضة ثالثة بين الإجمال والتفصيل تحت خلال جديدة، وفي ألوان غضة طريفة.

وكان حديثها آنفًا عن الرسول ﷺ تقريرًا لرسالته، وتحديدًا لمهمته، أما هنا فستحدثنا عن خلقه وشيمته، تبرئةً له من نزعة الشعر ونزغته.

سيقول قائل: ولم ذلك؟ وكيف ارتجل الكلام ارتجالاً؟

نقول: لا ارتجال، فلقد كان في سياق الحديث الأخير ما يثير هذه التهمة، ويستوجب هذا الدفاع.. ألم نسمع إليه إذ يقول على لسان رب العزة في وصف القيامة وأهوالها: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الآيات [يس: ٦٥] ترى ما هذا! أيد تتكلم، وأرجل تشهد، أليس هذا ضربًا من خيال الشعراء الذين يستنطقون الجماد، ويستبكون الخيام والأوتاد؟!

كلا! ذلك عن الجاهلين؟ فالشعراء يتبعهم الغاوون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥ : ٢٢٦]. وما كان ذلك من شيمة محمد في صبًا ولا شبابٍ ولا كهولةٍ ولا مشيب ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١٣، ١٤]، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

وكان الحديث آنفًا عن الألوهية الحقَّة، تقريرًا لآلائها، وتحريرًا للنفوس على استشعار خوفها ورجائها، أما هنا فسيكون الحديث عن الألوهية الباطلة، تعجيبًا من عقول متبعيها وإبانة لانطماس نفوسهم وانتكاس رءوسهم، نعم ألم تر كيف كرَّم الله الإنسان وفضَّله على سائر الحيوان، وكيف جعل له الأنعام مقهورةً مسخرةً مملوكة مذللة، فانظر كيف خلع المشركون هذه الكرامة فجعلوا أنفسهم عبادًا مسخرين، لا لهذه الأنعام، بل لما هو أذلُّ منها: للأحجار والأصنام، يرجون معونتها ونصرتها، وهي لا تنصرهم ولا تعينهم، ولا تستطيع لهم معونةً ولا نصرًا ولكنهم هم الذين يعنون بها ويخدمونها ويدبرون شئونها: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

وكان الحديث آنفًا عن البعث وصفًا لأحواله وتصويرًا لعجائبه وأهواله، أما هنا فسيكون الحديث عن البعث إقامة لحجته، وإقحامًا لمنكري حقيقته، يقول الإنسان: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٩].

فإن كان عندكم بدعًا أن تعود الحياة بحرارتها وحركتها ومرونتها إلى هذه العظام في برودها وسكونها ويبوستها، فهلا كان عندكم بدعًا مما هو أعجب من ذلك قد احتكم إلى بعض التي تورون بها ناركم عودان آخران يقطران ماء تتخذان من شجرتين: ذكرٍ وأنثى، فتحك بعضهما إلى بعض، فإذا هما يرميان بالشرر، ألا إن

الذي سيعيد حرارة الحياة إلى برودة هذه العظام هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]، ولقد علمتم أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١-٨٣] صدق الله العظيم.

***



نور من سورة غافر

عرض لقضية النزاع والصراع
بين دعاة الحق والباطل والخير والشر

سورة المؤمن «غافر»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمن هي عرض لقضية النزاع والصراع بين دعاة الحق والخير، وبين جند الشر والباطل، وإنها لقضية أزلية خالدة، لا يزال التاريخ يُبدئ فيها ويعيد، حتى يرثَ الله الأرضَ ومَن عليها، والعجيب في أمر هذا الصراع المتجدِّد أنه على الرغم من تفاوت القوتين، وعلى الرغم من عدم التكافؤ بين السلاحين يتقرَّر النصر في النهاية دائمًا لقضية المتقين الصابرين، وتدور الدائرة على الفجرة المعاندين.

تلك هي الحلقة المفرغة، والحركة الدورية المنتظمة، والتي عقدت هذه السورة الكريمة.

١ - لتصويرها.

٢ - ولإبراز شواهدها.

٣ - ولاستخلاص العبرة من تلك الشواهد.

تبدأ السورة بعرض موجز لهذه الحقيقة التاريخية المستمرة ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٤، ٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي

---

(١) أذيع في صباح السبت ١٥ / ٤ / ١٩٥٣م.

ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ [غافر: ٢١].

ثم تأخذ السورة في تطبيق هذه القاعدة الكلية، فتختار مثالاً من بين أمثلتها العديدة؛ ذلك هو موقف فرعون وملئه حين جاءهم موسى بالآيات البينات فلم ينقضوا حجته بحجة مثلها، ولكنهم أخذوا يتشاورون كيف يستخدمون سلاح القوة والعنف، فأما البطانة والحاشية فقد اتجه تدبيرُهم إلى الانتقام من أتباع موسى، قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]، وأما فرعون فكان أشدَّ رعونةً وأضيقَ صدرًا من أن تعطشه للدماء لم يكن ليرويه إلا اقتلاع الشجرة من منبتها ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وإن تَعْجَبْ لشيء فاعجب لهذا الاتهام: إلى موسى يُنْسَبُ شيء من الفساد؟ أهكذا تقلب الحقائق وتسمى الأشياء باسم أضدادها؟ نعم إنه الهوى، يزين الضلال في عين صاحبه، فيجعله هدًى ورشادًا ويشوّه الهدى فيصوره شرًّا وفسادًا، وكذلك كلُّ ثورة إصلاحية يسميها الطغاة الجبابرة تمردًا وخروجًا عن الطاعة ومحاولة لقلب نظام الحكم وإثارة للقلاقل والفتن، ولنقف هاهنا وقفة يسيرة ننبّه فيها إلى سرِّ هذا التشابه اللفظي في أساليب الدعوة ومناهجها عند الفريقين. إن السورة لتسمعنا منهما صوتًا واحدًا، هو شعار مشترك بينهما يردده داعي الهدى وداعي الضلال على السواء، كلاهما يقول: اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد؛ ذلك لكيلا تخدعنا الأسماء والألقاب، ولا نبني أحكامنا على زخارف الأماني والوعود، ولكن على الحقائق العملية الماثلة، إنما تتشابه الأقوال، ولكنه لا يستوي الخبيث والطيب، وإن سيرة كل امرئ في ماضيه وحاضره ومستقبله لهي الفيصل بين الصادق والكاذب ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

ونعود إلى سياق الحديث عن خصومة فرعون لموسى، فنقول: إن السورة بعد أن عرضت علينا منظر هذين المعسكرين، وبعد أن صوّرت اشتداد الأزمة بينهما،

قدمت إلينا لوحةً ثالثةً، تلطِّف من حدة الموقف.

ها هو ذا طرف ثالث يتدخل بين الطرفين بأسلوب طريف من الإقناع وتهدئة الخواطر، وقد بلغ من طرفة هذا الأسلوب أن السورة اسمها من اسم صاحبها (سورة المؤمن) تلك هي المحاورة البارعة، بل المحاجة البليغة التي على لسان رجل من قوم فرعون، شرح الله صدره للإيمان ولكنه لم يجرؤ على إعلانه، فوقف وقفةَ المحايد المنصف، وجعل يناشد قومه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

يقول: إن ذنب هذا الرجل هو أنه قال: ربي الله، وأقام الأدلَّةَ على دعواه، وهذا ذنب لا يستوجب القتل، ولكن تعالوا بنا ننظر في مصلحتنا نحن، تعالوا نقدر حساب أرباحنا وخسائرنا في قبوله دعوته أو رفضها على احتمال صدقه وكذبه، فإن العاقل إذا خير بين طريقين أحدهما تكتنفه المخاوفُ والشكوكُ، والآخر محقق الأمن والسلامة، فإنه يؤثر طريق السلامة المحققة، ويتجنب طريق الريبة والمخاطرة، ذلك مثل شأننا مع هذا الرجل.

إنه يزعم أنه يحمل رسالةً إلهيةً، ويتوعد مخالفيها بعقوبة السماء، فإن فرضنا أنه كاذب فلن يعود إثمُ كذبه إلا على نفسه، أما نحن فإن لم نفد منه خيرًا، فلن يحيق بنا ضير في اتباعه، وعلى العكس من ذلك؛ لو تبين أنه صادق في دعواه، إذن لكان علينا الخسر كل الخسر، فقضية الحذر والتبصر توجب علينا إذن أن نسمع له ونطيع.

هكذا قدمها لهم عملية حسابية هينةً توحيها الفطرةُ السليمةُ، ويؤيدها الإدراكُ الرشيدُ[١]، ثم يتابع المؤمن نصحَه لقومه، فيحذرهم أول الأمر من احتمال زوال ملكهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]،

---

(١) وقد اقتبسها بعض الفلاسفة والحكماء، وسارت كذلك على ألسنة الشعراء:

قال المنجـــم والطبيب كلاهما ... لا تُحشَرُ الأجسادُ؛ قلتُ: إليكما

إن صَحَّ قولُكما، فلستُ بخاسرٍ ... أو صَحَّ قولي، فالخَســارُ عليكما

ثم يشفق عليهم ثانيًا من أن تنزل بهم الكوارث الكونية التي حلت بالأمم قبلهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر: ٣٠]، ويشفق عليهم أخيرًا من عذاب يوم القيامة: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٢]. كل ذلك في قالب من التفكير والتقدير، ولا تبدو عليه مسحة من الجزم واليقين، وإنما هو حساب لضروب الإمكان وتقليب لوجوه الاحتمال.

لقد كان حتى هذه اللحظة يغالب عاطفته، ويحاول كتمان إيمانه، ولكنه لم يطق الصبر طويلاً على هذا الكتمان، فلنستمع إليه حين يتحول أسلوبه من الشك إلى اليقين، ها هو ذا ينضم الآن علنًا إلى صف المؤمنين الموقنين، بل يرتقي منبر الدعاة المرشدين ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١].

هنالك أصبح مثل موسى غرضًا لسهام الكيد والاضطهاد من الفراعنة ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٥] عذاب الدنيا بالغرق، وعذاب الآخر بالحرق.

نعم.. تلك هي العاقبة للظالمين ولو بعد حين؛ كما أن النصر عاقبة المصلحين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، أما النصر يوم يقوم الأشهاد فبالدرجات العلى والنعيم المقيم، ورؤية الأعداء هناك يتقلبون في الخزي والعذاب، وأما النصر في الحياة الدنيا فإنه ضروب وفنون: أبهره وأحلاه ما يتحقق في حياة المصلحين أنفسهم، باستخلافهم في الأرض والتمكين لهم من أعدائهم كما تم لداود وسليمان ولمحمد -صلوات الله وسلامه عليهم- أجمعين، وأدقه وأصفاه ما كان بعد استشهادهم أو وفاتهم بالانتقام من عدوهم، وباستقرار دعوتهم، وبانتشارها بعدها كما وقع لزكريا ويحيى عليهما السلام.

ألا فلتقر أرواح الشهداء الذين لم يذوقوا طعم الانتصار في حياتهم، فإن شجرة



الإصلاح إذا سُقيت بدمائهم نمت وترعرعت وآتت أكلها، وذلك نصر أيُّ نصر ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وقبل أن تختتم السورة نراها تستخرج العبرة التي ينبغي أن يقتبسها منها النبي المجاهد -عليه الصلاة والسلام-، فها هي ذي تؤكد له قبل الوعد الكريم، بأن عاقبته ستكون كعاقبة إخوانه الأنبياء، وأن النصر سيكون حليفَه كما كان حليفَهم، جزاءً لصبره على مقاومة الشدائد ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]؛ اللهم نصرك الذي وعدتنا، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.. آمين.

* * *

نور من سورة القمر

الإنذارات الثلاثة وعاقبة الإعراض عن النذر

هل سمعت الإنذار البليغ الذي اختتمت به سورة النجم، ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨]؛ ها هي ذي سورة القمر تتناوله ببيانه وتحليله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

أما الساعة فقد اقتربت حقًّا منذ بُعث خاتم النبيين ونزلت خاتمة الرسالات السماوية فلم يبقَ دونها كتاب ولا نبي آخر غير أن الأيام في عمر الدنيا لا تقاس بأيامنا ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وأما القمر فجمهور المفسرين على أن الآية المجيدة تخبرنا بحادث فلكي وتقص علينا نبأ انشقاق قمري وقع بالفعل في النبوة قبل الهجرة، وأنه حدث ذلك حين طلب بعضُ المشركين آيةً كونيةً، فأراهم الله هذه الآية، ولكنهم أصروا على عنادهم قائلين: لقد سحركم محمد، وحكى الله عنهم ذلك بقوله في الآية التالية: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾.

ومن المفسرين من ذهب إلى أن الآية إنما تنبئ بقرب انشقاق القمر يوم القيامة على حدِّ قوله -تعالى- أتى أمر الله؛ أي أزف مجيئه، وقد زعموا أن الأخبار التي وردت بانشقاق القمر رواية آحاد لا يثبت بها مثل هذا الحادث الجلل الذي تتوافر الدواعي على نقله، بل الذي تستنكره العقول في زعمهم؛ لأنه لو كان لاختل به نظام الأرض والعالم، إلا أنه لو سار هذا الاستنكار في عصر ما، ما ساغ مثله في هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم الفلكية واخترعت فيه آلات التصوير للكواكب وأخذت فيه للقمر صور كثيرة تدل بوضوح على حدوث الانشقاق فيه غيرَ مرة، سواء بفعل العوامل الداخلية كالانفجارات ونحوها، أو بعض العوامل الخارجية

كمرور النجوم ذوات الأذناب بالقرب منه بحيث تحدث في سطحه صدعًا غائرًا كالوادي المظلم على حين يبقى حافتاه يزين أو بغير.

ذلك من الأسباب، ثم لا يخفى أن الشق قد يكون أهونَ من الفلق، فيكون انفراجًا سطحيًا بغير انفصال كلي، فلو بقي القمر مشقوقًا هكذا أبدَ الدهر لم يختل للعالم نظام، وإذا كان الشق نفسه معجزة للقدرة البشرية، فإن الإخبار به قبيل وقوعه في ذاك العصر وفي تلك البيئة يعدُّ معجزةً للعالم البشري، والحادث بعد هذا كله قد ثبت بالنقل الصحيح بل المتواتر على ما حققه المنقبون من علماء الرواية، غير أنه تواتر لا يكفر منكره؛ لأنه من دقائقِ العلم، وليس من ضروريات الدين، كما أن الحادث لم يكن متوقعًا للناس حتى يتأهب جمهورهم لمشاهدته ونقله.

آيات السماء وأكثر الناس عنها نيام، ونعود إلى سياق السورة الكريمة وما فيها من الأنباء والنذر، فنقول: إنها تنتظم ثلاثة دروب من الإنذار.

الإنذار الأول: بالساعة وأهوالها في مطلع أمرها قبل الحساب والجزاء، وذلك يوم يدعو الداعي إلى شيء نُكُر منكر وفظيع، خشعًا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر.

الإنذار الثاني: بمصير المكذبين الأولين قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ ومن قرأت عليه أنباءهم من العبرة للحاضرين ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٣-٤٥]، وذلك بعد نزول الآية ببضع سنين، فكان هذا عَلَمًا من أعلام النبوة الباهرة.

الإنذار الثالث: بالساعة في نهاية أمرها بعد تقرر المصير، وبعد استقرار كل في مقره الأخير؛ إذ يُسحب المجرمون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر، وإذ يقيم المتقون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، تلكم النذر، فهل تغني النذر؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

نور من سورة الواقعة
وأحوال النشأة الآخرة
وعرض مواطن العبرة من شئون الحياة الحاضرة

من أحب أن يستمع إلى صدر سورة الواقعة، فليذكر قبل ذلك النصف الثاني من سورة الرحمن، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢]، هذه اللبنات الأخيرة من سورة الرحمن تتلقاها سورة الواقعة، فتصبّها في قوالبَ جديدةٍ تتخذ منها قاعدتها وأساسها، ثم ترفع فوقها من البنيان ما كان اتخذ أساسًا في سورة الرحمن.

نعم لقد بدأت سورة الرحمن بأوصاف النشأة الأولى، ثم اتبعتها بأحوال يوم الدين، أما سورة الواقعة فتستهل بالمنهج المقابل كأنها رد العجز على الصدر تبدأ بأحوال النشأة الآخرة، ثم تعود إلى عرض مواطنِ العبرة من شؤون الحياة الحاضرة، والطريف أنه في كلا المقامين لا يرى أثر لقول مردّد، ولا يبدو طابع لحديث معاد، وإنها هو أبدًا رزق جديد وعلم مفيد، ما كنه الأحداث العجيبة في يوم القيامة.

أجابتنا سورة الرحمن بوصف الوقائع التي يتبدّد بها نظام العالم العلوي، فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان، أما سورة الواقعة فتجيبنا بوصف الوقائع التي ينقلب بها نظام العالم الأرضي، ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦].

وإلام تفضي تلك الأحداث فيما يتصل بمصائر الناس؟ الجواب يتلخص في كلمتين: إنها ترفع أقوامًا وتضع آخرين، هكذا وصفت السورة وقعة الواقعة بأنها خافضة رافعة، إذن سيكون الناس يومئذ طبقتين: ناجين وهالكين، أليس كذلك؟ الجواب: ليس ذلك فحسب، بل ثلاث طبقات؛ إذ الناجون أنفسهم صنفان أومأت



إلى ذلك سورة الرحمن حين جعلت جنتين أدنى من جنتين، أما سورة الواقعة فقد صرحت بذلك من أول الأمر، وكنتم أزواجًا ثلاثة ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾، وهنا يسأل السائل: كم تكون النسبة العددية إجمالاً بين هذه الفرق الثلاث؟

لقد دلَّت نصوص القرآن في غير موضع على أن أصحاب الشمال هم في كل عصر الأكثرون عددًا، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أما النسبة بين الفريقين الآخرين فتنبئنا عنها سورة الواقعة؛ إذ تقرر أن أهل السبق والامتياز كانوا كثيرًا في أنفسهم في عصر النبوة والذي يليه، ولكنهم يقلون في آخر الزمان ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

كما تقرَّر أن فئة الأبرار المقتصدين يُرى منها في كل عصر عدد كثير، ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وعلى إثر هذا التقسيم تعمد الآيات إلى تصوير لون الحياة عند كل فريق، فتقدم لنا لوحاتٍ ثلاثة، كانت سورة الرحمن قد أبرزت جانبًا منها، غير أن اللون الواضح هناك كان هو لون البيئة؛ البيئة المكانية والبيئة الإنسانية، فتجيء سورة الواقعة لتكمل اللوحات الثلاث بتقديم صورة لألوان الطعام والشراب في كل منزلة من هذه المنازل، ومن تمام التناسق بين أجزاء السورة أنها حين تنتقل من ذكر تفاصيلِ الجزاء إلى تقرير أصل الجزاء وإلى الاستدلال عليه بالدلائلِ المنشورة أمامنا في هذه الحياة، سيكون من أهم عناصر هذا الاستدلال لفت النظر إلى آية الله في تكوين أصل الطعام وأصل الشراب؛ وذلك بإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء في آيات أخرى هي في وقت واحد دلائلُ على البعث ودلائلُ على التوحيد، وهكذا تنتظم السورة بركني المبدأ والمعاد، ولا تلم إلا إلمامًا عابرًا بالركن الثالث.

وهو مبدأ الوحي والنبوة؛ إذ تقسم بالقرآن الكريم الذي لا يمسه إلا المطهرون على صحَّة هاتين الحقيقتين، ثم تختم السورة بإقامة دليل حاسم على صحتهما، دليل

عملي تتحدى فيه المنكرين إن كانوا قادرين على الخروج من سلطان الله أو على الفرار من دينونته وجزائه أن يقاوموا سلطان الموت وأن يراجعوا روح المحتضر إلى هذه الحياة ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إلا أنه لا قِبَلَ لمخلوقٍ بالوقوف أمام هذا التحدي، ألا فلتخشعْ قلوبُنا بذكر الله، ولتنطلقْ ألسنتنا بتمجيد اسم الله ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تمت مجموعة السور المكية التي صدر بها المفصل، وتبدأ الآن مجموعة من السور المدنية، تتقدم في طليعتها سورة الحديد، وعلى الرغم من أن سورة الحديد تنتسب إلى مجموعة جديدة، فقد روعي فيها ما روعي في السور السابقة من التعانق في خاتمة كل منها وفاتحة السورة التي بعدها، وفاتحة كل منها وخاتمة السورة التي قبلها، ألا ترى كيف ختمت سورة الواقعة بالتسبيح، وكيف تبدأ سورة الحديد بالتسبيح؟ به ختمت سورة الواقعة أمرًا ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وبه تفتح سورة الحديد خبرًا ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

ختمت سورة الواقعة بإعلان أن عجز الناس وخضوعهم أمام ذلك التحدي البليغ بسلطان الموت القاهر جدير بأن يطلق ألسنتهم بتسبيح الله، وتبدأ سورة الحديد ببيان أن تجمع السلطان كل في يد الله الذي يحيي ويميت أطلق من قبل ألسنة الكائنات كلها في السماوات والأرض بتسبيح الله. قالت سورة الواقعة: لقد عرفت عجزك أيها الإنسان، فسبح، وتقول سورة الحديد: لقد سبحت أمامك الكائنات كلها، فمالك أنت لا تسبح، هكذا تظاهرت على دعوتك شتى الدواعي والدلائل والبواعث والتجارب النفسية والتأملات والاعتبارات الكونية، ثم تمضي السورة قائلة: إنه ليست ظاهرة الحياة والموت وحدها تدعوك لتسبيح الذي يحيي ويميت، بل كذلك سائر آياته الكبرى وصفاته المثلى، وبوجه أخص إحاطته الشاملة الكاملة إحاطة زمنية، هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وإحاطة مكانية هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وإحاطة علمية ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، وإحاطة

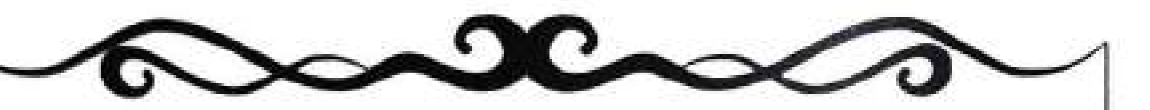


تدبيرية ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦]، وأخيرًا إحاطة في فصل القضاء وتوزيع الجزاء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

ماذا يراد من وراء هذا التعريف بالله وصفاته؟ ما الذي تبتغيه السورة الكريمة من تربية القلوب على هذه المهابة والإجلال لذي العظمة والجلال؟ أهو تمكين العقيدة من النفوس وتجديد الإيمان في القلوب؟ ليس هذا فحسب، أهو إلى ذلك التحريض على التخلق بالأخلاق الفاضلة، والحكم بالأحكام العادلة؟ ليس هذا وذاك فحسب؛ وإلا فبماذا تزيد السور المدنية على السورة المكية؟ إن أبرز طابع للسور المدنية هو أنها لا تقف عند الأهداف الأولية للتشريع؛ إنها لا تكتفي بتربية الفرد ولا بتكوين الجماعات المحصورة، ولكنها تبني أمةً، وتقيم دولةً، فعلام تبني الأمم بعد إصلاح عقيدتها وتطهير أخلاقها؟ على قوة المال، وعلام تقوم الدول بعد كفالة أمنها وتوفير أسباب استقرارها ورخائها؟ على قوة الدفاع وحسن التأهب للقتال.

وتلك هي الأهداف العليا التي نزلت من أجلها سورة الحديد ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾.

في هذه الكلمات اليسيرة يتركز المقصد الأعظم من سورة الحديد، الدعوة إلى البذل في سبيل الله، وإلى التضحية في سبيل الله، الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال فريضة محكمة، وسنة عامة دائمة لا تنقطع قبل الفتح ولا بعد الفتح، وإن كان أجر الذين احتملوا أعباءها قبل الفتح أعظمَ وأكرمَ؛ لأنهم بذلوا حين بخل الناس، وأقدموا حين أحجم الناس، ولأنهم هم الذين وضعوا الأساس للبانين، ومهّدوا الطريق للسالكين، فوالله لو أن أحدنا أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه، غير أن فضل السابق لا يمنع أجر اللاحق، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ أما كيف تعالج النفوس لكي تجود وتسخو بهذه التضحية المزدوجة، فذلك ما تكفلت به السورة في امتداد سيرها.



القسم السابع

نور من سورة الملك

ومقاصد الدعوة الإسلامية

١ - التعريف بالله وصفاته.

٢ - الندب إلى خشيته والتحذير من عاقبة الكفر به.

٣ - التعريف باليوم الآخر.

٤ - التعريف بالله وآياته.

٥ - تقرير اليوم الآخر.

٦ - الخاتمة.

سورة الملك ومقاصد الدعوة الإسلامية

هذه السورة المجيدة تتناول في شطرها الأول: من أولها إلى قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢] مقصدَيْن عظيمَيْن من مقاصدِ الدعوة الإسلامية.

١- التعريف بالله وصفاته.

٢- الندب إلى خشيته والتحذير من عاقبة الكفر به.

وهكذا تنتظم العقيدة بطرفيها: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، على أن هذين الأصلين يرجعان عند التحقيق إلى أصلٍ واحد هو التعريفُ بالله مُبْدِئًا ومعيدًا، معطيًا ومانعًا، مرغوبًا ومرهوبًا، ثم تعود السورة في شطرها الثاني من قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ﴾ [١٣] إلى آخر السورة تتناول هذين المعنيين أنفسهما بهذا الترتيب نفسه، ولكن في لون جديد.

المقصد الأول: التعريف بالله وصفاته: الجولة الأولى في اثنتي عشرة آية (١-
١٢): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ
هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ
سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ
﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١-١٢].

استهلّت السورة الكريمة بكلمة من التمجيد لا يصح في لغة العرب ولا في

منطق الأشياء إسنادها إلى غير الله، تلك هي كلمة (تبارك) فهي كلمة تخبر عن موصوفها بأنه دائمًا تزايدت عظمتُه، وتسامَى كمالُه على وجه الاستمرار، بحيث كلما وصل الفكر إلى تصور درجة من العظمة، زادت عليها عظمة صاحبها، وكلما ارتسم في الخيال نوعٌ من الكمال، تسامى فوقه كمال موصوفها، فهو إذًا لا نهائي العظمة والكمال، وليس ذلك إلا الله سبحانه.

وأخذت السورة تفصل من صفات الله الحسنى ما يُعَدُّ في جملتِه وتفصيلِه برهانًا على هذه العظمة وهذا الكمال المتزايدَيْن اللانهائيين.

الصفة الأولى: صفة الانفراد بالملك الكامل والحكم الشامل، فهو وحدَه الذي بيده الملكُ، القابضُ على صولجان الحكم، الذي يدبّر الأمر في السماوات والأرض، فلا يخرج شيءٌ عن سلطانه، ولا يشذُّ شيءٌ عن أمره وقهره.

الصفة الثانية: صفة الانفراد بشمول القدرة، وهي صفة مغايرة للصفة الأولى، فتدبير الملك إنما هو تصرُّف بالأمر والنهي في الوجود، ولا شأن له في أصل الوجود، وإنما تكون الألوهية العظمى لمن جمع إلى سلطانِ التصرُّف بالأمر في كل شيء سلطانَ التصرُّف بالخلق في كل شيء، وتلك هي الصفة التي أفادتها الآية الكريمة بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وهكذا تمت له الألوهية بصفتيها ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولَمَّا كانت الصفةُ الثانيةُ وهي صفة القدرة تتجلى آثارها في عالَمَيْن: عالمِ الإنسان، وعالمِ الطبيعة، وهما المشار إليهما في القرآن الكريم بعالمِ الأنفس، وعالمِ الآفاق، أخذت الآيات التالية تعرضُ علينا مثلاً من تلك الآثار في كلِّ المجالين، وبدأت بما هو أحقهما بالعناية والتقديم في هذا الموضوع، وهو عالم الأنفس؛ لأنه يتجلَّى فيه صفة ثالثة من صفات الألوهية الحقَّة تكمل الصفتين السابقتين لها، فإن الألوهية الحقَّة ليست سلطانًا شاملاً واقتدارًا محيطًا فحسب؛ ولكنها فوقَ ذلك صلة

من العناية والرعاية، والمحاسبة والمسؤولية بين العابد والمعبود، فلا بد أن يكون من مظاهر سلطانها واقتدارها مظهر خاص بالإنسان الذي هو هدف الخطاب ومناط التكليف، مظهر يدل على اتجاه معبوده إليه، واهتمامه بشأنه وشعوره بعبادته، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، فانظر كيف تبرَّأ المعبودُ من عابِدِه لَمَّا لم يشعرْ بعبادة هذا العابد، ولم يكن بينهما موالاة وتجاوب؟! فدلَّ هذا كله على أن الألوهية الحقة لا بد لها من عنصر ثالث وراء سلطان القدر والحكم، وهو عنصر الصلة الشعورية المتبادلة بينها وبين عابدها، هذا العنصر الثالث الذي أبرزته الآية الثانية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

ويقول: إن هذا المقتدر الشامل القدرة ليس كلُّ شأنه أن يصنعَ الأعاجيبَ منطويًا على نفسه في ملكوته الأعلى، وليس كلُّ مقصده أن يعرضَ هذه الصفة لمجرد إثارة الإعجاب بمهارته، ولكنه يتوجَّه إلى الإنسان نفسِه فيحدث فيه آثاره إيجادًا وإعدامًا وإماتةً وإحياءً؛ قاصدًا من ذلك إلى غايةٍ معينةٍ، وهي إيقاظُ وعي الإنسان، ولفْتُ نظرِه إلى مصدرِ هذه الآثار التي يحس بها في نفسه ليتبين: هل يعقل الإنسان مغزى هذه الصفة وسِرَّ ما ينطوي فيها من خطاب وإشارة؟! فهو يتوجه إلينا ليرى هل نتوجه إليه، ويلفتنا بتصرفاته في شئوننا لينظر هل نقبل عليه وهل نسارع إلى تلبية ندائه، ونقف عند حدود أمره ونهيه، ثم ليجازينا بعد ذلك على وفق أعمالنا.

فهذه الآية الثانية تشتمل إذن على ثلاث نقاط:

١- الفعل الذي قصد به الاختبار ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

٢- مادة الاختبار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

٣- عاقبة الاختبار ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].



فأمَّا الفعل الذي قصد به الاختبار فهو خلقُ ظاهِرَتَي الموتِ والحياةِ وتعاقبهما على الإنسان، ذلك أنه لو كان هناك موت مخلد بلا حياة، لم نكن نحن أهلاً للاختبار، ولو كانت هناك حياة خالدة بلا موت، لكان استمرارها هكذا على نمط واحد معوقًا عن تنبه المشاعر إلى ما يُراد بها من الاختبار، وإنما يستيقظ الوعي بهذا التعاقب بين الظاهرتين، كما يتنبه السَّابلة إلى مخاطرِ الطريق ومطالبه، بتعاقب النور والظلام وإشارات الضوء المختلفة أمام أعينهم.

ومعلومٌ أن هاتين الظاهرتين تتعاقبان على كل إنسان مرتين حسبما عبر عنه قوله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالإشارة في الآية هنا إلى الدورة الأولى من هاتين الدورتين، والإشارة إلى الدورة الثانية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

وأما مادة الاختبار فهي: التنافس في ميدان العمل ليتبين أيُّنا أحسنُ اختيارًا لمناهجِ السلوك وأشدُّ التزامًا للجادة، وأخلصُ قصدًا من شوائبِ الهوى والغرض، وأيُّنا أكثرُ نفعًا لخلق الله، وأشدُّ رفقًا بهم ورحمةً لهم، وأيُّنا قبل ذلك كلِّه أقوى معرفةً بالله وأشدُّ حبًّا له، وأدقُّ فطنةً لأسرار صنعه، واستنباطًا لنواميسِ سُننه، فالعمل في الآية مأخوذ كما ترى بأوسع معانيه؛ يتناول عمل الفكر والقلب والجوارح، ويتناول السلوك الفردي والجماعي، ويتناول المجال الإنساني والرباني، فتلك هي رسالة الإنسان في هذه الحياة، وذلك هو النظام الذي ضبطه قانون التكليف.

وقد سمَّى الله التكليفَ ابتلاءً واختبارًا، وحقًّا إنه ابتلاءٌ واختبارٌ، ولكنه ليس ككل اختبار؛ فشأن المُختبِرِ أن ينتظر نتيجة الاختبار ليعرف هو منها ما لم يكن يعرف، ولكنَّ المُختبِرَ هاهنا ينتظر نتيجة الاختبار لا ليعرفها بنفسه، فهو بها أعلم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ

أَتْقَىٰكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ولكن ليعرفها الشاهد والمشهود، ولكيلا يكون للناس على الله حجّةٌ بعد الرسل، فهو القاضي العدل الذي لا يحكم بعلمه قبل ظهور معلومه.

وأما عاقبة الاختبار فهي المحاسبة والمجازاة على وفق العمل، فسيكون من الناس من إذا سمع داعيَ الله تصامَّ عن دعوته، ونفَرَ منها وصدَّ عنها، ومنهم من يستجيبُ لها ويقبلُ عليها ويتبعُ سبيلَها، فأمّا من أدبر واستكبر فيأخذه الله باسمه (العزيز المقتدر) الذي لا يمتنع شيء على قدرته، وأما من أقبل وأناب فيتجلى الله عليه باسمه (الغفور) غافر الذنب وقابل التوب[1].

وهنا ختمت الآية الثانية بعد أن عرضت علينا آثار قدرة الله وعنايته في عالم الإنسان، فتجيء الآيات التالية لتصعد بنا إلى الآفاق العليا، فتطلعنا على ما فيها أيضًا من آياتٍ ودلائلَ.

ففي الآيتين الثالثةِ والرابعةِ يوجِّه القرآن نظرَنا إلى مظاهرِ الجلال في خلق ذلك العالم العلوي خلقًا محكمًا لا خللَ فيه ولا تنافرَ بين أجرامه وكثرة طبقاته وتعدُّد مراتبه، وفي الآيةِ الخامسة يوجِّه نظرنا إلى ما فيه من جمال وبهاء هو زينة وبهجة للناظرين، وإلى ما فيه مع ذلك من نُذُر ووسائلِ انتقامٍ من المكذبين.

أما ظاهر القدرة والإحكام، فقد تحدّى القرآن فيها أشدَّ التحدي كلَّ مَن يحاولُ أن يجد فيها مغمزًا من العيبِ أو الشذوذ، ونحن إذا نظرنا في خلقِ سماءٍ واحدةٍ ترتفع مستقلةً بغيرِ أعمدة، نجد فيها قدرةً باهرةً حقًّا، فإذا نظرنا في خلقِ سماءٍ ثانيةٍ لا ترتكز على الأرض ولا على السماء الأولى، وتبقى مع ذلك محفوظةً في مستواها على مد العصور والدهور لا ترتفع ولا تنخفض، ولا يميل جانبٌ منها عن جانب،

---

(١) ليس من ريب في أن عمل العاملين سيكون من حسن وأحسن وسيئ وأسوأ، ولكن الآية الحكيمة ضربت صفحًا عن المراتب الدنيا، وجعلت الهدفَ الذي يتنافسُ فيه العاقلون هو أفضل الأعمال وأحسنها تساميًا بنا إلى المثل الأعلى في السلوك.



نجد فيها لا شكَّ قدرةً أعظمَ وأعظمَ، فكيف بخلقِ أعدادٍ كثيرة من هذه السماوات، وحِفْظ كل واحدة منها في طبقتها على تباعُد ما بينهن وعدم ارتكازهن على شيء إلا على قدرة الرحمن؟!! لا شكَّ أنه الإعجاز في القدرة والإحكام جميعًا.

وقد سمَّى الله هذه الأعداد الكثيرة (سبع سماوات) جريًا على الأسلوب العربي في التعبيرِ بالسبع والسبعين والسبعمائة عن الكثرة البليغة في الآحاد والعشرات والمئين، على أنه لو كان المراد بالسبع هذا العدد المعلوم، فليس في ذكره تحديد، ولا نفي للتحديد، وإنما اختير هذا العدد بالذات لأنه هو الذي يتم فيه التحدي العالمي؛ إذ هو القدر الذي تدركه الأبصار في كل عصر بالعين المجردة، والذي يمكن كل ناظر التثبت منه بمراقبة الكواكب، وهي يحجب بعضها بعضًا، فيعرف بذلك عددُ طبقاتها السبع، ذلك أن هداية القرآن لا تخص فئة من الناس دون فئة؛ بل هي رسالة عالمية تتحدى العالم والجاهل على السواء، ولا يتوقف تحديها على وجود أدواتٍ ووسائلَ علميةٍ خاصة بزمان دون زمان، ولعله من أجل هذا المعنى نفسه جاء لفظ (السماوات) في القرآن مجملاً لم يحدد مادتها ولا لونها ولا أبعادها. فهل هي طبقات من الفضاء أم من الأثير أم من الموج أم من مادة أخرى غير ذلك كله؟ هل هي ذات هذا اللون الأزرق النهاري، أم ذات اللون الأزرق الليلي؟ إن واحدًا من هذه المعاني لا يمكن أن يتحدى بصدقه كل العقول في كل العصور، ولكن الذي يتحدى به الجميع هو هذا المعنى الجامع الخالد، وهو أن هناك طبقاتٍ تعلونا وتظلنا، وهذا هو معنى لفظ (السماء) الذي اقتصر عليه القرآن. وكان اقتصارُه عليه معجزةً علميةً عالميةً دلَّت على سماويته وألوهية مصدره؛ إذ لو كان من صنع بشر لاصطبغ بصبغة العقلية البشرية في عصر من عصورها؛ تلك العقلية التي نرى آثارها عند كل الأمم وفي كل اللغات حين نتحدث عن زرقة السماء، وعن سائر صفاتها مستمدة في غالب الأمر على خطأ الحس أو سوء الخيال.

قلنا: إن الآيتين الثالثةَ والرابعةَ وجَّهَتا جلَّ عنايتهما إلى مظاهرِ القدرة الباهرة في

إحكام الصنعة السماوية، وإنها تتحديان كلَّ من يحاول أن يجد خللاً في هذه الصفة، ونقول الآن: إنها نصبت هذا التحدي أربع مرات.

١- بتقرير هذه الحقيقة في نفسها: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

٢- بدعوة الناظر إلى تجربة ذلك بنفسه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

٣- بمطالبته بتكرير هذه التجربة مرة بعد مرة ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤].

٤- بتقرير النتيجة المحتومة التي ستسفر عنها هذه التجارب، وهي الكلال والإعياء واليأس من الظفر في هذه الصنعة بشيء من العيب ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٤].

فلتنظر في هذه الوجوه الأربعة: أما دقة هذه الصنعة وبراءتها من العيب، فإن العيبَ في صنعة البناء عيبان؛ عيبٌ في شكل البنيان يُخِلُّ بالتشاكل والتناسب بين جوانبه، وإن كان كل جانب منها سليمًا محكمًا في حد نفسه، وهذا هو (التفاوت) وعيبٌ في جوهر البنيان يخرجُه عن قانون الصنعة، ويشذُّ به عن سنن الحكمة، ويجعله عرضة للتفكك والانهيار، وهذا هو (التفوت)، وقد جاءت الآية بمجموع قراءتها منزهة لصنعة السماء عن كلا النوعين.

على أنها لم تكتفِ بإعلانها حقيقة جزئية منعزلة، بل أدرجتها في قاعدة كلية تصلح برهانًا على تلك الجزئية، وهي أن هذه السلامةَ من التفاوت والبراءةَ من التفوت شأن صنعة الله كلها في الأنفس وفي الآفاق، ولقد أشارت الجملة في الوقت نفسه إلى أن الله -جلَّت حكمتُه- لو شاء لخلقها متفاوتةً متنافرةً أو متفوتةً متداعيةً؛ إذ لولا هذا الإبداع والإتقان في الصنعة، ما كان فيها عبرة لمعتبر، ولا ذكرى لِمُدَّكِر، بل ربما اختلَّ به نظام العالم ولم يصلح معه للبقاء، ومن هنا وضع اسم (الرحمن) في الآية في موضع لفظ الجلالة وغيره.



وأمَّا دعوة الناظر إلى تجربة هذه الحقيقة بنفسه، فقد سلك القرآن فيه مسلكًا عجيبًا من التحدِّي إذ لم يدعه إلى النظر الإجمالي في هندسة البناء، والبحث فيها عن شيء من عدم التناسب كأن هذه الناحية قد فرغ منها، ولم يدعه إلى التماس فجوات أو ثغرات كبيرة بين أجزاء البناء؛ إذ كان من العيب محاولة ذلك؛ وإنما دعاه إلى التماس أقل مأخذ وإلى البحثِ عن شيء ﴿مِن فُطُورٍ﴾ من شقوق وخدوش.

فهيهات أن يجد إلا تماسكًا والتحامًا، وصقلاً وجمالاً، ولما كانت هذه النظرة النافذة ليست هي النظرةَ الأولى الساذجةَ التي تقع عفوًا من عامة الناس، ضرب الذكر صفحًا عن هذه النظرة الأولى ودعاه إلى النظرة الثانية، قائلاً: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ [الملك: ٣]. ذلك أن النظرة العلمية الفاحصة هي دائمًا نظرةٌ ثانيةٌ، ولقد ترقى القرآن في هذا التحدي مرةً ثالثةً، فطالب هذا الباحث المتفحِّص أن يكرِّر التجربةَ مرةً بعد مرة، وكرَّة بعد كرَّة، إنها لَوصِيَّةٌ ذهبيةٌ لعلماء التجارب ألا يقنطوا في إثبات نظرياتهم بمثال أو بضعة أمثلة، وأن يبذلوا أقصى جهدهم في التثبُّت والاستقصاء طلبًا لليقين وشفاءً للنفس من كل ريبة، وهنا تم تقرير الدعوى وعرض وسائل إثباتها، فلم يبقَ إلا إعلانُ النتيجة التي تفضي إليها هذه الوسائل، وهي رجوع البصر بعد طول تلمسه لعيب محرومًا من مطلبه، خاسئًا صاغرًا ومطرودًا عن هذا الحرم الأقدس ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل مجهود.

وهكذا كانت الآيتان الثالثةُ والرابعةُ معرضًا لفخامة الصنعة في العالم العلوي، صوَّرت ما فيه من اتساع وارتفاع وإحكام وتناسب أوضاع، وتحدت تحديًا منكرًا كل من يحاول أن يجد تنافرًا في أوضاعه، أو ضعفًا في بنيانه، أو ثغرةً يسيرةً من أجزائه، وكان هذا حديثًا عن هيكل البنيان نفسه وما له من فخامة وجلال، فتجيء الآية الخامسة لتتحدث عما أُودع في هذا البنيان من نجوم وكواكب، وتوابع لم تخلق لذاتها، ولكنها خلقت لحكم وغايات تتصل بنا، وقد بينت الآية من هذه الحكم ثلاثًا فهي:

١- زينة.

٢- هداية ونعمة.

٣- بلاء ونقمة.

فأول ما يلفت الناظر إلى سمائنا الدنيا هو تجمع ما في السماوات كلها من سيارات وثوابت واتسامها على صفحة هذه السماء في نقش نوراني بديع بهيج يسرُّ الناظر، ويريح الخاطر، ويرضي حاسة الجمال، ولكنها لم تخلق لمجرد هذه المتعة؛ بل إن لها وراءَ ذلك فائدةً ومنفعةً، فإنها فضلاً عن كونها زينةً فهي مصابيحُ حسيةٌ ومعنويةٌ، حسية: يهتدي بها الساري في ظلمات البر والبحر، ومعنوية: يسترشد بها الحائر إلى معرفة صانعها ومبدعها، لكن هل كل الناس ينتفعون بهذه الدلالة؟! كلا: فأكثر الناس لا يعرفون عن الكواكبِ إلا زينتها ومنفعتها المادية، ولا يصعدون بعقولهم إلى هذه المعاني الروحية ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فلئن كانت الزينة السماوية نعمة في حق المؤمنين، فهي نقمة بالقياس إلى هؤلاء المعاندين المتمردين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] رجومًا حسية ومعنوية؛ رجومًا حسية: بما يخرج منها، أو من حولها من الشهب الثاقبة، ورجومًا معنوية: يطردهم النظر فيها عن نور الله وهدايته، كما أن القرآن ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، ثم هذه النقمة العاجلة تتبعها نقمة آجلة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] عذاب النار المستعرة المتأججة.

المقصد الثاني: التعريف باليوم الآخر (٦-١٢).

هكذا رأينا مجرى الحديث يتحول رويدًا من المقصد الأول إلى المقصد الثاني،



فينتقل بنا من التعريف بالله وصفاته إلى التخوف من عاقبة الكفر به والترغيب في خشيته والخشوع لعظمته.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك: ٦]، إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] يقول الله تعالى: إن عدالته الإلهية قد هيأت للكفار لونَيْنِ من العذاب: عذابًا جسمانيًّا، وعذابًا نفسانيًّا. ترى في صدر هذه الآيات تصويرًا مروعًا لدار العذاب الجسماني يصف شهيقها وغليانها واضطرابها، وقد جاء ذكر (الشهيق) هنا وفي سورة الفرقان (الزفير) وجاء في سورة الأنبياء (ذكر زفير أهلها)، وفي سورة هود (زفيرهم وشهيقهم معًا).

ومن تَأَمَّلَ مواقعَ هذه الأوصاف المختلفة تبيَّن له وجهُ اختلافها؛ فالشهيقُ حركة النفس أخذًا واجتذابًا، والزفيرُ حركة النفس طردًا ودفعًا، والذي يحسه المقبل على النار عن بعد إنما هو زفيرها وقذفها بالحرارة واللهب، وهذا هو الذي ورد في سورة الفرقان: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ١٢]، فإذا اقترب منها ودخل بابها كان أعظم إحساسه بحركة اجتذابها وابتلاعها كما في هذه السورة: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ٧]، فإذا استقرَّ به المقام فيها، كان تصوير حاله في تعذيبه أهمَّ من تصوير النار نفسِها، وهناك يجتمع له كلا الأمرين، غيرَ أن الزفير أسبقُ وأوضحُ تعبيرًا عن الألم؛ ولذلك أفرد في سورة الأنبياء ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، وقدّم في سورة هود ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

ونرجع إلى الوصف الذي تناولته الآية هنا، وهو وصف النار حين تُحمى عليهم في تدرُّج حين يلقى فيها أهلها لتبين مراتبه التصاعدية في التعذيب والإيلام، فقد يسأل السائل عن حال النار ودخول أهلها فيها: أيدخلون وهي بعدُ فاترةٌ في مبدأ إيقادها ثم تحمى عليهم بعد ذلك شيئًا فشيئًا؟ قال الله تعالى: (كلا) بل يدخلونها وهي (تفور)، وقد اكتمل حرها وازداد حتى فاض، فهي تغلي غلي القدور.



ثم تترقى الآية التالية في وصف ما في النار من طاقة حرارية، فنقول: إن ما كَمُنَ من هذه الطاقة أقوى مما يَبْرُز منها في غليانها وفورانها، وإنه لا يزال يحتبس منها مقادير هائلة تؤذن بانفجارها، ولذلك (تكاد تميز) تكاد تتمزق وتنقطع. ولما كان هذا التمزق والانفجار قد ينفِّس من حرها ويهوِّن من أمرها، تبعته الآية بما يدلُّ على أنه ليس تبدُّدٌ وفناءٌ وزوالٌ؛ بل هو انطلاق منتشر موجه إلى فريسة يراد الانتقام منها، وأن إرادة هذا الانتقام ليست صادرةً من ربِّ النار وحده، بل حتى هذه النار نفسها لم تَعُدْ أداة مجردة؛ بل أصبحت ذات حركة انبعاثية افتراسية كأنها قد مُلئت هي أيضًا غضبًا على أعداء الله حتى لتكاد تنفجر منهم من الغيظ!!

هنا تم تصوير روعة العذاب الجسماني، فينتقل الحديث إلى وصف ألم العذاب النفساني في صورة محاورة بين خزنة النار وبين أصحاب النار، ظاهرها محاورة التلطف والمواساة من السائلين، وحقيقتها التقريعُ المرُّ والتأنيبُ اللاذع والتحسير والتنديم ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]. ينبئكم بهذا المصير، فإن لم يكن قد جاءكم نذير كان هذا معذرة لكم وحجة نقدمها أمام الله في الدفاع عنكم، وهنا لا يسع المكذبين إلا الاعترافُ بالواقع ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩] أسرفنا في التكذيب، وقلنا: ما نزل الله من شيء (لا عليكم ولا علينا) إن أنتم (ما أنتم أيها النذر) (إلا في ضلال كبير).

على أن هذا الاعتراف بمجيء النذر لهم، وتكذيبهم إياهم لم يكن كافيًا في إلقاء التبعة عليهم، فقد يكون هذا ذنب الرسل؛ لأنهم لم يجيئوا بآية بينة، وقد يكون ذنب الفطرة إن كانوا قد فُطِرُوا غيرَ مزودين بوسائلِ النظر والاعتبار، وقد يكون ذنب القدر الإلهي نفسه إن كان قد ألجأهم إلجاءً بغير اختيار منهم، فكان لا بد في تجسيم الاعتراف من إعلان أن هذا التكذيب تقع مسؤوليتُه عليهم أنفسهم لا على القدر، ولا على الرسل، ولا على الفطرة التي فُطروا عليها؛ ولذلك جاءت الآية اللاحقة مبرزةً لهذا العنصر من الاعتراف بالجريمة. قالوا: لقد جعل لنا الله أسماعًا لنستمع

بها إلى الرسل، فلم نستمع بها إليهم، وعقولاً فلم نتفكر بها في صدق دعوتهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠، ١١] لا ذنب التكذيب وحده؛ بل ذنب أسباب التكذيب، فهل نفعهم هذا الاعتراف بالذنب؟! كلَّا، فهو اعترافٌ بعد فواتِ الأوان ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١] بُعْدًا لهم وطَرْدًا من رحمة الله؛ لأنهم لم يعترفوا إلا بعد نزول البلاء، ولم يؤمنوا إلا بعد معاينة العذاب، فلم يَكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأس الله، وإنما ينفع الإيمان بالغيب.

وهنا ترسم السورة للمكذبين طريقَ النجاة والهدى بعد أن رسمت ما سلكوه من طرق الضلالة والردى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢].

وهنا تم الشوط الأول بمرحلتَيْه: التعريفِ بالله، والتذكيرِ باليوم الآخر.

والآن يعود الحديث: (عودًا على بدء).

الجولة الثانية: في سبع عشرة آية [١٣ - ٢٩].

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ
أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ
إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ
وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

ومن هنا يبدأ الشوط الثاني بمرحلتيه أيضًا على الترتيب السابق، ففي الاثنتي عشرة آية التالية [١٣- ٢٤] التعريف بالله وآياته، وفي الآيات الخمس بعدها [٢٥-٢٩] إنذار باليوم الآخر.

المقصد الأول: التعريف بالله وآياته [١٣-٢٤].

كان الحديث عن الله في الشطر الأول من السورة تعريفًا بشمول ملكه، وإحاطة قدرته، وتمام عنايته، واختير مظهرًا لهذه الصفات العالمان: الإنساني والسماوي، وهذا الشطر الثاني سيختار من مظاهر صفاته العالَمَيْن: الإنساني والأرضي، وهكذا تحيط السورة من طرفيها بآيات الله في الأنفس والآفاق علويها وسفليها، فانظر هل ترى أحسنَ من هذا التقابُل والتعادُل بين الجناحين؟! ثم ارجع البصر كرةً أخرى لتنظر نقطة التحول من المقصد الثاني في الشطر الأول إلى هذا المقصد الأول في الشطر الثاني؛ فقد كانت نهاية الحديث في الشطر الأول عن الأجزية الأخروية على الذين لا يؤمنون بالآخرة إلا عند معاينتها، ودعوة إلى مخالفتهم بالتبصر في العواقبِ وخشية الله بالغيب، ولكن هذه الدعوة إلى الخوف من الغائب لا تستقيم في مجاري العادات، فكان لا بد من تكميلها ببيان أن هذا الذي ندعوك لخشيته وإن كنت أنت غائبًا عنه، فإنه هو ليس غائبًا عنك ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾.. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وهكذا كان موقع الجملة الختامية من الشطر الأول موقع قولك: (اعبد الله وأنت لا تراه) وموقع هذه الجملة الافتتاحية في هذا الشطر الثاني موقع قولك: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وهكذا أضاف الشطر الثاني بيانًا لصفة جديدة من الصفات الحسنى، فوق صفات الملك والقدرة التي فصلها الشطر الأول، تلك هي صفة العلم والمراقبة الإلهية لشئون الإنسان، ولا يخفى ما فيها من تتميم وحسن مقابلة لمعاني الابتلاء والجزاء التي صدر بها السورة آية (٢) ولم تكتفِ الآية الحكيمة بإثبات شهود الحق ورؤيته لأعمالنا الظاهرة وأقوالنا العلنية، بل قررت إحاطته جل شأنه

بجهرنا وسِرِّنا، وبما تنطوي عليه سرائرُنا، فهو سبحانه يستوي عنده السِّرُّ والعلن ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، بل تستوي عنده حركة اللسان وحركات الجنان، بل ما تنم عليه الدلائل وتقوم عليه الأمارات والشواهد وما تنطوي عليه الصدور انطواءً محكمًا مؤيدًا بحيث لا تدل عليه عبارة ولا إشارة.

وقد جعلت الآية هذه المرتبة من العلم دليلاً على ما دونها، ذلك أن من كان علمه بهذه الدرجة من النفوذ في السراء، كان أولى بأن يعلم كلَّ ما في الظواهر: سِرَّها وعلانيتِها، وهكذا وقع قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣] موقعَ البرهان لما قبله، غير أن هذا البرهان نفسه في حاجة إلى برهان؛ إذ من أين لنا أنه يعلم ما في الصدور؟ فجاءت الآية بعدها لسَوْقِ هذا البرهان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] أيكون هو الخالق للإنسان جسمًا وعقلاً مادةً وروحًا ثم لا يحيط بصفته خبرًا؟ كيف وهو ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.. أما الخبرة فهي العلم بدقائقِ الأمور وخفاياها، وأما اللطف فله في اللغة معانٍ مختلفةٌ.

أحدها: الدنو والقرب، وهذا هو أنسبُ المعاني لنسق البرهان؛ إذ يجعل الوصف به توطئة للوصف بما يليه، فيكون المعنى: كيف لا يعلم بنا وهو أقربُ إلينا من حبل الوريد؟! فإن من كانت هذه منزلتَه في القرب منا، كان خبيرًا بنا جدَّ خبيرٍ.

المعنى الثاني من معاني اللطف: الدقة والشفافية والخفاء عن الأنظار، فإذا أُخذ بهذا المعنى كان الوقف تامًّا عن قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، ويكون قولُه ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] جملة مستقلة هي فذلكة جامعة للوصفين اللذين تناولها الآيات الثلاث: فقوله: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وهو نظير ما في سورة الأنعام ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فاللطيف راجع إلى أنه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ راجع إلى أنه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ

ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾، واعلم أن اللطف على كلا المعنيين صفة من صفات الذات.

المعنى الثالث: التلطف في تدبير الأمور وإيصالها إلى غاياتها سرًّا في رفق ويسر، واللطف بهذا المعنى صفة من صفات الأفعال، فإذا حملت عليه العبارة القرآنية هنا كانت جملة ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، جملة متصلة أيضًا ولكنها غير ناظرة إلى الصفات السابقة؛ بل تكون معربة عن صفة جديدة محتاجة بدورها إلى برهان، وتكون الآيات التالية تفصيلاً لهذا البرهان.

الآيات من [١٥-٢٤].

وفي هذه الآيات الكريمة يمتنُّ الله علينا بمظاهرِ لطفه وعنايته وتدبيره في أنفسنا وفي الأكوان القريبة منا من تحتنا ومن فوقنا، من تحتنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]، ومن فوقنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الملك: ١٩]، وفي أنفسنا ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

يمتنُّ الله علينا في الآيات الثلاث الأولى بأنه هو الذي جعل لنا الأرض ذلولاً مسخَّرة منقادة سهلة الانقياد، أو هي السهولة في الانقياد، وتتجلى لنا من وجوه كثيرة:

أولاً: من حيث طواعيتها لتصرفات الإنسان حفرًا وبناءً، وتفجيرًا لأنهارها، وتنقيبًا في جوفها، وغوصًا في بحارها، واستعلاءً على قمتها، واستثمارًا لتربتها، وصهرًا لمعادنها، وتحليلاً وتركيبًا واستخراجًا لوجوه المنافع المختلفة فيها.

ثانيًا: في وضعها إجمالاً واستقرارها في حيزها من العالم بحيث لا تتكفأ ولا تضطرب، فليست كالفرس الجموح تعلو وتهبط، أو تتقدم وتتأخر، أو تأخذ ذات اليمين وذات الشمال في عنف وفي غير نظام؛ بل هي كالمطية الذلول لا يشعر راكبُها بسيرها.

ثالثًا: من حيث جوّها وملاءمته لطبيعتنا، وخلوها من الآفات والتقلبات الفتاكة بنا، وهذه الوجوه الثلاثة بترتيبها هكذا نرى التنبيه عليها في الآيات الحكيمة، فقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]؛ تنبيهٌ على الوجه الأول، ففي المشي في مناكبها إشارة إلى وجوه الاستيلاء والاستعلاء عليها والتمكن من التصرف فيها، فإنه إذا كانت مناكب الأرض -وهي جزء منها- وقمم جبالها قد ذُلِّلت لصعود الإنسان عليها ومشيه فيها، كانت سهولها وبطون وديانها أولى بالتسخير والتذليل، وفي الأكل من رزقها إشارة إلى وجوه الاستثمار لها والانتفاع منها، وغني عن البيان ما في هذا كله من دعوة إلى بذل الجهد في استعمار الأرض، ونبذ العجز والقعود عن العمل، وتلك مفخرة للإسلام ولكتاب الإسلام تبين منها مدى بُعد أهل الإسلام عن مبادئه في هذا الحرمان، ولا يفوتنا أن ننبِّه إلى المغزى الروحي في العدول عن ضمير المؤنث إلى ضمير المذكر في قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] أي من رزق الله، وهو الإشارة إلى أن الأرض بطبيعتها أعجزُ من أن تخلق أو ترزق، وأن الإنسان بكَدِّه وكدحه وجده لا نصيبَ له من الرزق إن أخطأه توفيق الله. وقد زاد هذا المعنى وضوحًا في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يقال: نشرت الأرض نشورًا إذا أصابها الربيع فحيت وأنبتت، فنحن نحرث ونبذر، ولكن الله -تعالى- هو الذي يحيي الأرض ويخرج منها نباتها، فإليه وحده يرجع الفضلُ في نشور الأرض وحياته وإنباتها ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] تنبيه على الوجه الثاني من وجوه التذليل، وهو جعلها كالمطية الذلول التي لا تجمح براكبها، كأنه يقول: إن وجود الأرض في هذا المستوى المعين من الكون إنما هو ثمرة من ثمرات لطف الله وعنايته، وأنه لو شاء لخسف الأرض؛ أي لجعلها تنزل بمن فيها إلى أسفل، فتزول عن مستقرها، وإذا لتجاذبتها الكواكب والأفلاك،

فاختل توازنها وزال تماسكها وجعلت (تمور) أي: تموج وتضطرب اضطرابًا يهلك من عليها.

والتعبير عن رب العرش العظيم بكلمة (من في السماء) تعبير يملأ القلوب روعة ورهبة، ولا يخطر ببال مسلم كلمة (في السماء) تحديد المكان أو تصوير لظرف ومظروف؛ فإن رب العرش -كما وصفه القرآن- لا يحدّه زمان ولا مكان، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وسِع كرسيه السماوات والأرض، الأرض جميعًا قبضته، والسماوات مسخّرات بيمينه.

وكل دلائل العقل والنقل تدفع هذه الصورة المحدودة، وترشد إلى أن هذا التعبير إنما هو تعريض بالتصورات الخاطئة التي كانت عليها الوثنية الجاهلية، وتوجيه للبصائر إلى معنى العظمة والعلو اللائقين بجلال الله تعالى، وتنزيه له سبحانه عن معنى الدنو والتسفل الذي للمعبودات الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧] تنبيه على الوجه الثالث من وجوه تذليل الأرض، وهو جعل الجو المحيط بها صالحًا للعيش عليها في استقرار وطمأنينة، ولو شاء الله لأحاطها بجوٍّ من العواصف والأنواء يمنع التقلب عليها، ويجعل السائر فيها لا يربح يلاقي في كل خطوة حاصبًا من السحاب تقذفه بقطع الثلج والبرد، أو حاصبًا من الروع يقذفه بالرمال والحصباء، فإما أن يهلكه رجمًا، وإما أن يرده عن قصده، ويقعد به عن السعي في معاشه ويلجئه إلى مأوى يأوي إليه حتى يأتيه الموت صبرًا، ولئن كان خسف الأرض وإرسال الحاصب من السحب أو الرياح لم يقع حتى اليوم في كوكب الأرض جملةً واحدةً، لقد وقعت منه أمثلة جزئية في مواضعَ متفرقةٍ من الأرض، وكان منه ما هو عقوبةٌ على الكفر، فأي ضمان للكافرين والباغين أن تحل بهم أمثالها انتقامًا؟ بل أيّ ضمان للناس جميعًا أن تقع لهم هذه الظواهر الانقلابية ابتلاء لهم واختبارًا؟ يوجّه القرآن هذا السؤال



وتكرر هذا الإنذار (آمنتم) و(أم أمنتم)؟ ثم لا ينتظر عنه جوابًا، فالجواب معروف؛ لأن المكذبين في سكرتهم لا يشعرون بخطر، بل يسخرون بكل هذه النذر، ولذلك قال الله -تعالى- لهم: إن كان لم يوقظكم هذا النذير ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٨] ستعلمون يوم تجدون وعد الله مفاده دائمًا أن إنذاري لم يكن بالنذر، ولكنه كان هو القول الفصل. ثم قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ذرهم حتى تأتيهم سنة الأولين والذين جاءتهم النذر فسخروا منها ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، فقد كان إنكاري عليهم أليمًا وبطشي بهم شديدًا.

هكذا كانت الآيات السابقة مزدوجة المغزى، كانت بيانًا لمدى لطف الله بالإنسان وتذليل الأرض له بكتلتها، وعناصرها وجهان، ثم كانت بيانًا لمدى قدرته على سلب هذه النعمة إن شاء.

وفي الآية التالية نرى صورةً موازيةً لهذه الصورة المزدوجة، لكن في عالم آخر غير عالم الإنسان؛ ذلك هو عالم الطير الذي سخّر الله له الهواء كما سخّر الأرض لبني آدم، والذي لولا لطف الله ورحمته لخرّ ساقطًا على الأرض بقانون جاذبيتها، وبثقل كتلته في هذا الجو من الطيور السابحة على كتلة الهواء الذي يفصل بينه وبينها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩]، ولقد زاد هذا الانتقالَ حُسنًا أن نهاية الحديث عن تذليل الأرض كان حديثًا عن ظواهرها الجوية، فكان أقرب الصور إلى ذهن السامع صورة ما في هذا الجو من الطيور السابحة في الهواء، ذلك إلى ما في هذا الحديث الجديد من تلويح إلى حادثة تاريخية كان الطير فيها أداة إلهية للانتقام من أعدائه أصحابِ الفيل بإرسال الحاصب عليهم من الطير الأبابيل، فكانت الآية من هذا الوجه بمثابة التطبيق على مضمون الإنذار الذي قبلها مباشرة مع ما فيها من تذكير بقدرته وعنايته في هذه الظاهرة

العجيبة: ظاهرة حفظ الطير على متن الهواء في حالي بسط جناحيها وقبضها ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: ١٩] مع مخالفة ذلك للسنن المعروفة في هذا النطاق من الكون.

فمن ذا الذي يمسك هذا الطير أن يقع على الأرض؟! بل من ذا الذي يمسكها أن تقع على الناس بأنواع الضر والأذى؟! إنه لا تمسكها طبقة الهواء، ولا حيلة الإنسان، بل ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩].

فلولا رحمته بنا وبها، لكان لنا ولها شأن غير هذا الشأن، لكن كيف يمسك هذا الطير ولو لم يكن يراها أيعلم مسراها ومأواها؟ وكيف يرفق بالإنسان ويرزقه ويمنع عنه عوادي الزلازل والصواعق وغيرها لو لم يكن يراه ويعلم مستقره ومستودعه؟! بل ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: ٢] لا بد إذن أن يكون مطلعًا على دقائقِ الملك والملكوت، محيطًا بوجوه الأحكام والإتقان في كل الشئون، وحقًّا ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]؛ بصيرٌ بمطلب كل شيء وحاجته، بصيرٌ بمواطن علته وآفته، بصيرٌ بوسائلِ حفظه وحمايته من بدايته إلى نهايته، وعلى الجملة بصيرٌ بالأسلوب الحكيم في كل صنعه، فتبارك الله ربُّ العالمين!!

كانت الآيات الخمس السابقة تذكيرًا لنا بنعمة القرار والاستقرار في عالمنا الأرضي والجوي، وتنبيهًا لنا إلى أننا مدينون بهذه النعم إلى فضل الله ورحمته فحسب، وأن هذه النعم كلَّها معلقةٌ في كفّة القدَر، معرضةٌ في كل لحظة أن يمسكها الذي أرسلها، وأن يسلبها الذي منحها، وفي الآيتين التاليتين تذكيرٌ بالحال المضادة لهذه الحال، قالت لنا الآيات السابقة: إن الذي أمدّكم بهذه النعم قادرٌ على أن يسلبها، وتقول الآيتان اللاحقتان: إن الذي أمدّكم بنعمه لو سلبها منكم، فمن الذي يجلبها لكم؟! ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].



ومن جملة الآيات السبع تخلص لنا قاعدة مزدوجة، وهي أنه لا ضمانَ لبقاء النعم الموجودة، ولا ضمان لرجوع النعم المفقودة، حكمة بالغة مَن وضعها دائمًا نصب عينيه استنار قلبُه بنور الإيمان بالله، واطمأنت نفسُه بالتوكُّل عليه.

ولقد اختير هنا من أمثلة النعم مثالاً من الحظوظ الإنسانية: النصر والرزق، وتركت الأمثلة السابقة التي تناولت أصل الخلق والتكوين؛ وذلك لأن أحدًا لا يجرؤ على نسبة خلق الأرض والهواء والطير إلى غير الله، فلم يكن هناك مجال لتحدي المشركين بإعادتها لو غيَّر اللهُ أوضاعَها وطبائعَها، أما هذه الحظوظ فقد كان الوثنيون ربما يتبجحون بدعوى أنهم يُنصرون ويُرزقون ببركة آلهتهم، فنقل الحديث إلى هذا البساط الجديد إزاحة للشبهة فيه، واختير للتحدي به أسلوب مغاير لأسلوب سابقه؛ إذ لو قيل لهم: هل ينصركم أو يرزقكم أحد من دون الرحمن؟ لكان من المحتمل أن يقولوا: نعم، فجاءت المحاجَّة لهم على وجه حاسم مفحم؛ إذ قيل لهم: دُلونا على هذا الذي يرد لكم نعمة يسلبها الله منكم، وسمُّوه لنا، قولوا لنا من هو؟ بشرط أن تحصروا بحثكم في نطاق الذين هم من دون الرحمن؛ أي في منزلة نازلة عن رتبة عظمته وجلاله، ولا شك أن كل من عدا الرحمن هو دون الرحمن.

فمتى عجزوا عن جواب يعينون به ناصرًا أو رازقًا لهم من دون الله، فقد اعترفوا بأنهم لا يجدون غيرَ الله يكشف بأسًا أراده الله، فإن أصرُّوا بعد ذلك على شركهم، لم يكن ذلك استنادًا إلى حجة ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠﴾ [الملك: ٢٠] ما هم إلا مخدوعون بخيالات وأوهام وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، ولقد كان من حق هذا الإلزام والإفحام أن يفتحَ أعينَهم على ما هم فيه من ضلالةٍ صارخة، وأن تقف خطواتهم قليلاً ليفكروا في خطورة طريقهم، فلم يفعلوا، ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ [الملك: ٢١] تمادوا على كفرهم ﴿فِى عُتُوٍّ﴾، في تكبُّر وتجبُّر ﴿وَنُفُورٍ﴾، إعراضًا عن الحق وشرودًا عنه.

ترى إلى أي صورة حسية تشير هذه الكلمات؟ إنها تشير إلى متعسف عنيد قد

ملأ الضغن قلبه حتى أعماه البغض، كالحب يعمي ويصم، فجعله يخبط خبط عشواء، ولا يلوي على شيء. وهذه الخطوط الأولى التي تلقي ظلالها كلمات اللجاجة في النفور يتناولها التنزيل الحكيم، فيلمسها ويبرزها في صورة تمثل حال المعاندين، ثم تبرز في مقابلتها صورة أخرى تمثل حال المؤمنين ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، فقد مثل حال هذا النافر المعرض المستمر في نفوره وإعراضه بحال الذي يمشي مكبًّا على وجهه ناكسًا رأسه لا يبصر ما يصادفه في طريقه من نجاد أو وهاد، ولا يأمن في كل لحظة أن يصطدم أو يتردى وهو مع ذلك يستمر في مشيه ولا يتوقف، فهل يستوي هو ومن يمشي ﴿سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] منتصب القامة يبصر ما حوله وما أمامه ويستمر في سيره على طريق مستقيم؟!!

كانت هذه الصورة المقارنة لفتةً عارضةً وتعليقًا عابرًا ساق إليه موقف المعارضين ومحاجتهم في العناد بعد أن انقطعت عنهم كلُّ حجَّة، وانسدَّ أمامهم كلُّ طريق. فليعد السياق سيرته الأولى ليعرض علينا آياتِ الله وآلاءَه في الأنفس بعد أن عرض آنفًا آياتِه وآلاءَه في الأرض وفي الآفاق.

وهكذا كان خطُّ سير السورة من الإنسان إلى الآفاق العليا، ثم إلى الآفاق الدنيا، ثم إلى الإنسان، فبالإنسان بُدِئَ الحديثُ وبه يختم؛ إذ هو المقصود الأعظم، وهو مناط التكليف ومحور الخطاب: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: ٢٣].

في هذه الآية يتعرف الله إلى الناس لا بالنعم الجزئية التي قد يجادلون فيها ويكابرون؛ بل بأصول النعم التي لا يجرؤ أحد على نسبتها إلى غير الله، فليس لأحد غير الله فضل في أصل نشأة الإنسان، ولا فيما أودع فيه من القوى والملكات الجسمانية كالسمع والأبصار التي هي أهم الحواس الإنسانية الظاهرة، ولا فيما أودع



فيه من القوى النفسانية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي القلوب والعقول التي هي وسيلة العلم الباطنة.

أفليس من حق هذه النعم أن تنتفع بها في وجهها، وأن تُصرف فيما خلقت، من أجل أداء لواجب وشكر عليها؟! بلى، ولكن هل قام الناس بشكرها؟ ألم تسمع الحديث آنفًا عن أولئك الذين لجُّوا في عتوٍّ ونفورٍ؟!!

فأصمهم نفورُهم وأعمى أبصارَهم، فهؤلاء وأمثالهم، بل هم أكثر الناس لم يشكروا نعمة الله عليهم في سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وهؤلاء هم الأقلون كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ومن هنا صحَّ توجيه الخطاب إلى الناس جملةً بأنهم لا يشكرون نعمة الله إلا قليلاً منهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وهو خطاب للمكذبين خاصة، وقلة شكرهم أن يصرفوا نعمة الله في أضيق أبوابها وفي أدنى وجوهها، في شأن البدن لا في شأن الروح، وفي شئون الدنيا لا في شأن الآخرة.

وهنا أشرفت السورة على الانتهاء من المقصد الأول، وهو التعريف بالله وصفاته، والدخول في المقصد الثاني وهو ذكر اليوم الآخر، فجيء بآية واحدة موجزة تجمع المقصدين كليهما لتكون ختامًا لما قبلها، وافتتاحًا لما بعدها ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤].

الذرء: البث والنشر والتفريق، والحشر: الضم والجمع بعد تفريق. والمراد هنا سوق الخلائق وتجميعهم بعد بعثهم للوقوف بين يدي الله ومحاسبتهم على ما قدموا، وأما الذرء فهو ذرآن: ذرءٌ في الحياة بتكثير نسل الإنسان وتعمير وجه الأرض به في الدنيا، وذرءٌ في القبور بتفريق أجزاء الإنسان بعد الموت إلى رطوبات تتبخر في الهواء، وتراب يختلط بالنبات وغيره، وروح تفارق بدنها، وتأوي إلى حيثُ يشاءُ خالقُها.

فإذا حمل على هذا المعنى كانت السورة قد استوفت الأطوار الأربعة للإنسان؛ ففي صدرها ذكر الموت والحياة الأولى، وهي حياة الابتلاء على نهج قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وفي عجزها ذكر الموت والحياة الأخرى وهي حياة الجزاء على غرار قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. وأيًا ما كان ففي هذا الاقتران بين النشر والحشر جمال وجلال وضرب لطيف من الاستدلال، جمال البيان في جمع الصورتين المتقابلتين في كلمتين، وجلال صنع الرحمن في نشر الخلائق وطيها، وتفريقها ثم جمعها، وأخيرًا تلطف في تمهيد البرهان على الحشر، فإن الذي يقدر على تفريق الأشياء وتدبير شأنها وهي مفرّقة موزّعة، يقدر على جمعها وتدبير أمرها وهي مضمومة مجتمعة بهذا التخلص البديع تهيأت الفرص للحديث عن هذا الحشر الموعود وهو المرحلة الأخيرة في هذه الجولة الثانية:

المقصد الثاني: تقرير اليوم الآخر [٢٥-٢٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات الخمس تقوم السورة مرةً أخرى إلى شأن البعث والجزاء، وليس الحديث عنه هنا وصفًا لما فيه من ألوان العذاب والنعيم كما في أول مرة، ولكنه تقرير إجمالي لوقوعه، وتفنيد الشبهات التي يثيرها المكذّبون في حواشي موضوعه، وبيان للمفارقة بين حاليهم: قبل تحقيق الوعد وبعده، وإنذار لهم بأنه لن يحل بأسه إلا بالمشركين، وأنه لا منجى منه إلا بالإيمان بالله وإخلاص التوكل عليه.

يقول المجادلون في صحة هذا الوعد (نبئونا) متى يكون موقعه، فشأن الذي يخبر بأمر ويزعم أنه على يقين من وقوعه، أن يعلم ما يحيط به من ظروف زمانية

ومكانية، فإن لم يعرف تحديد زمانه، كان هذا مطعنًا في خبره، وتشكيكًا في صدقه، فأمر الله رسوله أن يتولى الجواب عن هذا الجدل بثلاثة أجوبة، وقد لقَّنه الجواب الأول بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦]؛ كأنه يقول: لو كنت أخبرتكم بشأن الساعة عن علمٍ بحقيقتها واطلاعٍ ومعاينةٍ لها، لأخبرتكم بزمانها وسائر تفاصيلها، لكن هذا الاطلاع على الحقائق بذواتها ليس عندي ولا عند أحدٍ من الخلق ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الملك: ٢٦]، ولا علمَ لأحدٍ إلا ما علَّمه الله إياه، وإنما يكشف الله لرسله بمقدار ما ينفع الناس وتمس إليه حاجتهم، فما حاجتكم إلى معرفة زمانها؟!

إنَّ العاقلَ الحريصَ على نجاة نفسه وسعادتها لا يعنيه من أمرِ المستقبل توقيتُ أحداثه، وتحديد أيامه وساعاته؛ وإنما يعنيه أن يتعرَّفَ ما في تلك الأحداث من خطرٍ جاثم، أو من أملٍ يسعى للحصول عليه، وهذا الجانب الذي تمس إليه حاجة الناس أشدَّ المسيس هو الجانبُ الذي كشفه ربي، وأمرني أن أحذركم منه وأنذركم به ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦]، فتلك هي رسالتي أبلغكم ما أرسلت به، لا أكتمكم من أمره شيئًا؛ لتكونوا على بينة من أمركم، وتأخذوا حذركم وأنتم في سعة من الحياة.

لكنَّ العجيبَ أن هذه السعة التي جعلها الله فرصةً للتدبُّر والتأهب كانت هي سببَ بلائهم منهم كلما رأوا طول السلامة وبطء تنفيذ الوعيد، كذبوا وسخروا منه، وقالوا: متى هذا الوعد؟ حتى إذا حلَّ بهم انقلبت سخريتُهم ندمًا، وبشاشتُهم كآبةً ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ رأي العين ﴿زُلْفَةً﴾ عن كثب وقرب ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] غشيتها فترة الحزن والندم، وليس ذلك فحسب، بل جمعوا إلى هذا الألم المادي والقبح الحسي آلامًا نفسيةً لاذعة؛ إذ سمعوا من الملائكة أو من المؤمنين عبارات التحسير والتنديم، وقيل لهم: هذا العذاب الذي ترونه اليوم هو تحقيق الوعد الذي كنتم به (توعدون) ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تطالبون قائلين ﴿وَإِذْ

﴿قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكنتم تستعجلون به قائلين ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] هذا وتدلُّ قراءة التشديد في ﴿تَدَّعُونَ﴾ على أنهم كانوا لا يقتصدون في هذا الدعاء، بل كانوا يبالغون ويلجون فيه متعطشين إلى وقوعه، وكلما تأخر قالوا: (ما يحبسه).

الجواب الثاني: لقنه الله رسوله بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك: ٢٨]؛ كأنه يقول: قل لهم: إني لست أدري أقريب أم بعيد ما توعدون، فقد يرحمنا الله ويطيل آجالنا أنا ومن معي حتى نرى بأعيننا في هذه الدنيا بعضَ الذي توعدون، وقد يتوفانا الله قبل أن نشفي صدورنا بهذا الإنعام الإلهي من الكافرين، ولكن إن أهلكني اللهُ ومَن معي أو رحمنا فالأمران سواء في قضية العدل الإلهي؛ فإن وعده آتٍ لا محالة، إنْ عاجلاً وإنْ آجلاً، فأخبروني: (من يجير الكافرين يومئذ من عذاب أليم)؟ الجواب: لا مجير، عذاب الكافرين واقع واقع ليس له من الله دافع، وهكذا يتبين أن (التشقيق) في الآية نظيره في الآيات الأخرى كقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠].

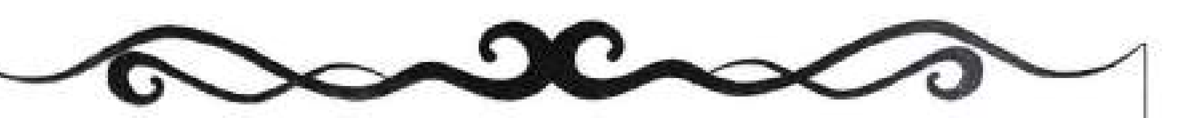
الجواب الثالث والأخير: لقنه الله لرسوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك: ٢٩]. وهذا يشبه أن يكون جواب موادعة ومتاركة بعد أن اتخذت معهم كل وسائل الإقناع والإنذار؛ كأنه يقول: فإن أصررتم بعد هذا كله، فلكم دينكم ولي ديني، فاعبدوا ما شئتم وافعلوا ما شئتم، أما نحن فقد عرفنا ربنا ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء في السماوات والأرض وما بينهما، وقد آمنا به وإن كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ﴾، وحده ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، وأشركتم معه ما لا يغني عنكم شيئًا، فتوكلتم تارةً على أصنامكم، وتارةً على عشيرتكم وأموالكم، فإن كنتم اليوم لا تدرون أينا على حق أو باطل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ غدًا ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩] يبن

واضح، وستقولون غدًا: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، ليتنا استمعنا واتبعنا نصيحةَ الناصح الأمين!!

والآن تمت الجولتان بمقصديها، وكانت آخر خطوة خطاها البيان كما رأينا تذكيرًا لصفة الرحمن، وندبًا إلى الإيمان وإخلاص التوكل عليه، فكان هذا إعدادًا للنفوس لاستماع الحديث عن المقصد الأول، وهكذا تعود السورة إليه كرةً ثالثةً لتختم بمثل ما بُدئت به من تمجيد الله والتذكير بقدرته ونعمته.

الخاتمة: في آية واحدة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]. يقول لهم: أخبروني إن سلب الله عنكم نعمةَ الماء الذي به حياتُكم وحياةُ أنعامكم وزروعكم، فأصبح ماؤكم ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا لا تناله الرشاء ولا الدلاء، ولا تجيء به الفؤوس ولا المعاول، وذهب الحافرون في طلبه إلى أبعدِ الأعماق، واستنفد أهل العلم وأهل الصناعة حيل العلوم والصناعات فلم يستطيعوا الإتيان به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]: ظاهر مكشوف تراه العيون بحيث لا تحتاجون في طلبه إلى حفر وتنقيب ولا إلى كدّ ونصب، سؤال تعرف جوابه الفطرة، ويكاد كلُّ من أُلقي عليه هذا السؤال يجيب قائلاً: الله رب العالمين.

***



القسم الثامن

ســـورة القلـــم

والحديث عن الرسول ﷺ وحال المكذبين

١ - ربط سورة الملك بسورة القلم.

٢ - دفاع السورة عن الرسول ﷺ.

٣ - أسرار الحروف المتقطعة في أوائل السور.

٤ - منهج في تعلم القرآن.

٥ - دفع تهمة الجنون وتبرئة الرسول ﷺ.

٦ - الهجوم على الطاغين وإلصاق التهمة بهم.

٧ - قصة أصحاب الجنة، رواية ذات فصول خمسة.

٨ - كذلك العذاب للمكذبين.. وللمتقين عند ربهم جنات النعيم.

٩ - فذرني ومن يكذب.. واصبر لحكم ربك [٤٤ - ٥٢].

١٠ - تعليق ختامي.. الصبر المطلوب.

سورة القلم
والحديث عن الرسول ﷺ وحال المكذبين له

١- ربط سورة الملك بسورة القلم:

حدثتنا سورة الملك عن الله تبارك اسمه، وعن مصير الكافرين به، وتحدثنا سورة القلم عن الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وعن حال المكذبين له، فهي تالية في الرتبة لسورة الملك، كما هي تالية لها في التلاوة، أما في ترتيب النزول فسورةُ القلم على ما يُروى عن ابن عباس هي ثانية سور القرآن نزولاً بإطلاق، كما لم ينزل قبلها إلا سورة العلق. ومما هو جدير بالملاحظة أن هاتين السورتين اللتين افتتح بهما الوحي -أعني سورة القلم والعلق- قد صدرت كلتاهما بالتنويه بشأن القلم؛ ففي سورة العلق يقول تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٣-٤]، وفي هذه السورة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]. هكذا جاء الإسلام من أول يوم داعيًا إلى محو الأمية، منوِّهًا بشأن العلم وتدوينه وتعلمه وتعليمه، وكفى بهذا فخرًا للدعوة المحمدية، أقامها الله وأدامها.

٢- دفاع عن الرسول ﷺ:

في الآيات السبع الأولى من سورة القلم تطييبٌ لقلب الرسول ﷺ بتبرئته من تهمة السَّفه والجنون التي رماه بها المكذبون، وشهادة له من الله بما هو في الطرف الأقصى من هذه التهمة، ألا وهو علمه الراسخ وخلقه العظيم.

وفي الآيات التسع بعدها من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ



بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم: ٨-١٦] إلزامٌ للنبي ﷺ بالثبات على طريقه المستقيم، وتنفيرٌ له من الركون ولو قليلاً إلى دعوة المثبطين، وكيف يركن إليهم وفيهم ما فيهم من مثالبِ الأخلاق وسفاسفِ الطباع؟! ثم كيف يهمه تكذيبهم له وهم لم يصدروا في هذا التكذيب عن عقل وروية، وإنما هو بطر الغني وفتنة المال والبنين؟!!

وفي الآيات الست عشرة التالية [١٧- ٣٢] يقول تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

يقصُّ الله على هؤلاء المكذبين المترفين حادثًا تاريخيًا شبيهًا بحالهم، ذلك هو أصحاب الحديقة الذين ظنوا أنهم قادرون عليها، فطاف عليها طائفٌ من ربك، فجعله حصيدًا كان لم تغنَ بالأمس!!

وفي الآيات الإحدى عشرة التي بعدها من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٣٣- ٤٣].

عشرة بصيغة القسم، وعشرة بالنداء، وسبعة بالشرط، وسبعة بالأمر، وستة بالاستفهام، وافتتاح واحد بحرف التعليل، وكذلك في الفواتح الهجائية نجد ثلاثة بحرف واحد ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، وعشرة بحرفين ﴿طه﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾،

﴿حمٓ﴾، واثني عشر بثلاثة أحرف ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿الٓرۚ﴾، ﴿الٓمٓ﴾، واثنين بأربعة أحرف ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓمٓرۚ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، ترى ما شأن هذه الحروف المتقطعة في أوائل السور؟ ماذا أراد الله منها؟ أيخاطبنا الله بها لا نفهم؟! كلّا، إن أقوال المفسرين على تشعبها إلى أكثرَ من عشرين قولاً ليس منها قول واحد بأن هذا الخطاب غير مفهوم.

٣- أسرار الحروف المتقطعة في أوائل السور:

وفي الحق إننا لا نجد أدنى غموضٍ في أن يأمرنا الله بأن نقولَ في افتتاح قراءة سورة من السور كلمة ﴿نٓۚ﴾، أو ﴿صٓۚ﴾، أو ﴿الٓمٓ﴾، أو غيرها، وإنما الخفاء لو كان خفاء في حكمة هذا الأمر وسر هذا التعبير، فهل نقف عند حدود الأمر كما فعل كبار السلف امتثالاً مطمئناً لا يزعجه بحث عن سرّه، أم هل نتقدم خطوة في اكتشاف هذه الأسرار ونتلمس هذه الحكم كما فعل المقتصدون من الأئمة، أم هل نجاوز هاتين المرحلتين فنزعم أن هذه الأسماء قد نُقلت في إفرادها أو في تركيبها إلى معانٍ جديدة، من أعداد أو هيئات أو غير ذلك من المعاني؟! إننا نميل ميلاً شديدًا إلى قول السلف، ونرى أن الأخذ به أسلمُ، وأن الوقوف عنده أليَقُ بالقلوب المطمئنة، ولكننا لا نمنع أن يلتمِسَ ملتمِسٌ أو يتذَوَّقَ متذوِّقٌ شيئًا من الأسرار والحكم لهذا الأمر التعبدي، على شريطتين اثنتين:

الأولى: عدم التعسُّف والتكلُّف في تحميل النصوص ما لا تطيق.

الثانية: عدم القطع بأن ما وصل إليه فهمُنا هو الذي أراده الله من هذا الأمر.
فلنذكر طرفًا من المعاني التي تخطر ببالنا، أو التي نرتضيها من أقوال أهل العلم.

كلُّ عربي، أُمّيًا كان أو غير أُمّي، يؤدِّي مرادَه في كلمات، أو جمل، أما تحليل الكلمات إلى أجزائها الصوتية، وتسميةُ كل جزء منها باسمه، فإنما يفعله المعلمُ أو المتعلم في بداية تعليمه أو تعلمه، أليس في تكليف كل قارئ لهذه السور أن يبدأها



بهذا التهجي ولو كان عالمًا منتهيًا أو كان رسولاً نبيًّا، إشعارٌ له -وهو أمام علوم القرآن- بأنه في بداية العلم لا في نهايته، وأنه بمثابة طفل يتهجى خاضعًا متواضعًا أمام معلمه الأعلى؟!! بلى، إننا كلنا أطفال في مدرسة القرآن، ما أوتينا من العلم إلا قليلا، وما تتنزل إلينا علومُه إلا بقدر معلوم، فليكن هذا لكل قارئ درسًا في أدب التواضع والخشوع لعظمة منزل القرآن.

٤- منهج في تعلم القرآن:

وليكن هذا درسًا آخرَ في المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه كلُّ امرئ في تعلُّم القرآن وتعليمِه تأنيًا وتمهلاً وترتيلاً وتمييزًا لحروفه بعضها عن بعض، بحيث لا يسردها سردًا؛ بل يضع كلَّ واحد منها في حيزه على مهل، بحيث لو عدها العادُّ لأحصاها، كما ينبغي أن يضع المعلم والمتعلم كلَّ مسألة من العلم في حيزها، لا يخلط بعضها ببعض تأسيًا بالقرآن ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

وليكن هذا درسًا ثالثًا لغير المؤمنين حين يسمعون محمدًا الأمي ﷺ الذي لم يجلس إلى معلم يفعل ما لا يفعله الأميون، لا في نطقه بأسامي الحروف الهجائية فحسب؛ ولكن في أسلوب تفريقها وجمعها على نمط عجيب، وذلك أننا لو أحصينا حروفَ المعجم في أوائل السور، وأسقطنا المكرر منها لوجدنا جملتها أربعة عشر حرفًا، وهو نصف حروف المعجم، ولوجدناها تتناول جميع أجناس الحروف من مهموس ومجهور، وشفوي وحلقي، وشديد ورخو، وغير ذلك، ولوجدناها تأخذ من كل جنس نصفه فحسب، كما أخذت من جملة الحروف نصفها، أفيكون هذا كلُّه محضَ المصادفة والاتفاق؟! ألا يكون ذلك دليلاً على أن هذا الأُميَّ ﷺ الذي لم يجلس إلى معلم من البشر قد درس وتعمق في الدرس على يدِ معلمٍ من غير البشر؟!! ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥].

٥- دفع تهمة الجنون وتبرئة الرسول ﷺ:

أما السفهاء المتسرعون في الحكم، فقالوا: قد اختلط عقلُه، واضطرب خيالُه، إنه لمجنون.. أفلم يروا أن هاهنا حدًّا فاصلاً بين ظاهِرَتَيِ الوحي والجنون؟ إن المجنون لا يصدر عن كتاب مرقوم، ولا عن علم مسطور؛ وإنما يصدر عن خيال مضطرب، وأوهام لا حقيقة لها. وهذا هو المعيار الذي استند إليه القرآن الحكيم في دفع هذه التهمة عن محمد ﷺ؛ حيث يقول: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٢]، فأثبت له البراءة من الجنون بدليلها وشاهدها، كأنه قال: وحق العلم المسطور المنزل عليك، وحق القلم الذي سطره في اللوح المحفوظ، أو وحق الملائكة الكرام الكاتبين(١) الذين حملوه إليك، ما بك من وهم باطل، وما أنت في حلم أحلام المجانين؛ إذ شتان بين من يصدر في أقواله عن علم واطلاع، ورجوع إلى الوثائق المسجلة، وبين مَن يصدر عن خيال أو عن مجرد قيل وقال. وفي هذا كما ترى تنويه بشأن العلوم المدونة، والوثائق المحررة، ودعوة إلى العناية بهذا التدوين والتوثيق الذي تنتقل به العلوم والمعارف عن قرب وعن بعد من قُطر إلى قطر، ومن جيل إلى جيل، لتكون ذخرًا للإنسانية، يربط حاضرها بماضيها، ويكون أساسًا يرفع عليه بنيان مستقبلها، ويمهد لنموها وتقدمها المطرد.

وتدبَّر قوله -تعالى- لنبيه ﷺ في جواب القسم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] إنها لمقالة قاصدة، ودعوى متواضعة، إذا قيست بالشواهدِ التي سبقت لها، فإن هذه الشواهد لا تثبت له البراءة من الجنون وحسب، ولا تدخله في زمرة العقلاء وكفى، ولكن ترفعه إلى الدرجة العليا من نضوج الفكر وسعة العلم، والاطلاع على بواطنِ الأمور وامتلاك ناصية الحقائق، ففي الاكتفاء بنفي الجنون

---

(١) كما يطلق القلم على أداة الكتابة، يطلق تارةً على أرباب الأقلام وحَمَلتها، ومن هذا ما جرى به عرفنا في مصر من التعبير بقلم الصادر وقلم الوارد... إلخ عن هيئة الكتاب الموكول إليها هذه الشؤون.

عنه مع قيام الشواهد على ما وراء ذلك من المناقبِ السنية نهايةُ التلطُّف والاقتصاد في الردِّ، ونهايةُ التبكيت في الوقت نفسه لهؤلاء الذين أرادوا أن يصفوا الرسول ﷺ، فضلوا ضلالاً بعيدًا إذ وصفوه بما هو أبعدُ شيء عن شيمته.

وانظر إلى الأدب الرباني الذي أدَّب الله به نبيَّه ﷺ في قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، وانظر كيف بادر بهذا الاحتراس والتحفظ قبل أن تتم الجملة بأركانها، ذلك ليعلم محمد ﷺ أن ما هو عليه من سلامة الفطرة، وأن ما جاءه من نعمة الوحي والنبوة، كلُّ ذلك إنما كان بفضل الله وحده، حتى لا تداخله شائبة من العجب طرفةَ عينٍ، وحتى يخلص سرّه، ويسلم وجهه في كل لحظة لله رب العالمين لا شريك له، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، وقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. من هاتين الآيتين خلصت للرسول ﷺ منقبتان؛ منقبة العقل في طي جواب القسم، ومنقبة العلم في طي جملة القسم؛ كأنه قيل: بحق العلم المكنون الذي أنت وعاؤه، والذي كان إليك انتهاؤه، ما بك من جنون، وما ألم بك داؤه.

وتمضي الآيات الكريمة على هذا السنن؛ تشريفًا للرسول ﷺ بعد تشريف، فتضيف إليه شرفين جديدين: شرفَ العاقبة الحسنى، وشرفَ الخلق الأسنى ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٣-٤]، ولقد كان من قضية الترتيب الوجودي أن يقدم وصف الخلق الحاضر على وعد الجزاء المستقبل. غير أنه قد خُولف هذا الترتيب -والله أعلم- مسارعةً إلى الترفيه عن قلب النبي الكريم ﷺ الذي كان لا يلمح في الأفق أملاً قريبًا في هداية قومه، وكان يحزنه ما يقولون فيه، وكان مع ذلك صبارًا على تلقي الوحي وحفظه والعمل به، وعلى تكذيبِ قومه وتسفيههم له، فكان في حاجة عاجلة إلى سندٍ نفسي يفتح له بابَ الأمل في المستقبل البعيد، ويطمئن به إلى أن صبره واحتماله لن يذهب سُدًى، ولن يضيع هباءً، لهذا أتبع الله حديث نفي التهمة عنه بما يمحو ذكراها من نفسه، ويحول شعوره من الألم

إلى الأمل، إلى الوعد الجميل الذي تكفل الله له فيه بأجر غير ممنون، لا يعتريه نقص، فضلاً عن أن يعتريه زوال، ثم ختم له بالشرف الذي ما بعده شرف، ألا وهو شهادة الله له، شهادة مسجَّلة في كتابه الخالد ذكرًا يتلى على مرِّ العصور شهادة مؤكدة بأنه على خلق عظيم، وأي خلق أعظم من خلق القرآن الذي كان هو خلقه عليه الصلاة والسلام؟! ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

هنا تم الرد على الاتهام تبرئةً للرسول من التهمة، وتكرمةً له بأضدادها، غير أن من الجدال كَفَنِّ النزالِ: كر وفر، وهجوم ودفاع.

٦- الهجوم على الطاغين، وإلصاق التهم بهم:

فالآن وقد تم الدفاع عن ساحة الرسول ﷺ، أخذ الموقف يتحوَّل هجومًا على الطاغين فيه، وإلصاقًا للتهمة بمتهميه ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم: ٥-٦]، وهو كما ترى هجومٌ في أعفِّ لفظٍ وأرفقِ تعبيرٍ، إنه لم يقل لهم: بل فيكم أنتم الجنون والضلال والفتون، ولكنه قال: ستنكشف الحقائق غدًا، وسيرى الفريقان عيانًا في أيهم كان الضال المفتون، نعم سيرى الفريقان ذلك في غد قريب، وفي غد بعيد:

أما الغد القريب (فيوم بدر) يوم يشتبك الحق والباطل في صراع عنيف، فينتقم الحق على ضعفه وقلته من الباطل على كثرته وشدة شوكته!!

ويوم الفتح، يوم تنهار الوثنية وتخرُّ أصنامها صرعى بيد محمد ﷺ، وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ يومئذ يعلم المعاندون أنهم كانوا في فتنة



وغرور، فعلامة الحق ثبات واستقرار، ومصير اضمحلال وانهيار ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وأما الغد البعيد، فيوم يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، يوم يقول المكذبون ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ على أنه قبل أن تنكشف حقيقة الفريقين للناس في ذينك اليومين، هي منذ الآن مكشوفة جلية في علم رب العالمين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]، جملة تمتاز عن سابقتها بأنها لا تتوجه إلى المكذبين المفتونين وحسب إنذارًا لهم وتهديدًا، ولكنها تنطوي على عناصر الخوف والرجاء معًا، فيها يطمئن المهتدي إلى رحمة ربه، ويتوجس المعتدي خيفة من عاقبة ذنبه، وهي كسابقتها تتسم بطابع التلطف والرفق في عدم تعيين من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين، غير أن مجيء هذا الإبهام بعد الثناء على الرسول ﷺ بما هو أهله، يكاد ينطق بأن الهدى إنما هو في صف محمد ﷺ وحزبه، وأن الضلال إنما هو في فريق المكذبين له.

وهكذا تجيء الفقرة التالية من السورة نتيجة منطقية لما قبلها: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ٨-١٦].

وصفت الآيات الأولى من السورة محمدًا ﷺ بما هو أهلُه عقلاً وعلمًا وخلقًا، فهل يكون فيه المكذبون له إلا أضداد هذه الصفات: ضلالة وجهالة وسوء خلق، وإذا فكيف تنقاد الحكمة للسفه؟ وكيف يخضع العلم للجهل؟ وكيف يتبع الخلق الكريم سياسة الطبع اللئيم؟ كلا ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ إنهم ليسوا من معدنك ولا من شيمتك، إنهم رجس فلا تدنس بهم طُهْرك، وإنهم ظلمات فلا تُكَدِّر بهم نورك.

تحذير شديد وتنفير بليغ، كأننا به قد أثار في نفس الرسول ﷺ سؤالاً وتركه ينادي ربه نداءً خفيًّا: أي رب إني ما أطعتهم قط في حياتي، وما فكرت يومًا في أن أطيعهم!! إن أطيع إلا أمرك، وإن أتبع إلا وحيك، فما بالي أتلقى هذا الزجر عن طاعتهم؟!

ولكن هذا الخاطر ما كان يعبر باب قلبه الرحيم حتى تلقاه الوحي بما يهدِّئ من روعه، ويحدد له المغزى من تحذيره: يا محمد، إننا نعلم أنك أقوى إيمانًا، وأعظمُ خلقًا من أن تطيعهم في كبير من الأمر، وإنهم يعلمون أنك أصلبُ عودًا من أن يحولوك عن صميم دعوتك، ولكنهم قد يطمعون منك فيما دون ذلك في أسلوب دعوتك لا في جوهرها، إنهم يودُّون أن تغُضَّ عن بعض هناتهم، وأن تخفف الوطء في تسفيه وثنيتهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وَدُّوا أن تلاينهم وتصانعهم وتداهنهم، فهم منذ الآن يصانعونك ويلاينونك طمعًا في أن تقابل مداهنتهم بمداهنة، هذا هو الذي نحذرك منه، فاثبت على دعوتك، في جوهرها وأسلوبها، ولا تطعهم في قليل ولا كثير.

كانت عيوبُ هؤلاء المكذبين ومساوئُهم مطويةً في صدر السورة، لهم تفهم منها إلا عرضًا عن طريق المقابلة بمناقبِ الرسول ﷺ وشمائله، فلما جاء قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] انتقل الأمر بذلك من التلويح إلى التصريح، ولكنه كان تصريحًا بأهونِ العيوب وأخفاها وأشيعِها بين طبقاتهم، فالآن ينتقل الحديث من التعميم إلى التخصيص، ومن النقيصة الواحدة إلى النقائص المجمعة في فرد منهم، يعد مثلاً في الرذيلة، وفي وجوب عصيان إشارته هو ومن يشاكله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٠-١٥].

أكثر المفسرين على أن هذه الأوصاف تشير إلى الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: هو الأخنس بن شريق، أو أبو جهل، أو الحكم، أو غيرهم، ونحن لا يعنينا



شخصَ مَن نزلت فيه الآيات؛ وإنما تعنينا العبرة في صفاته، وما نظنه إلا صاحب المقالة السفيهة الذي رمى النبي بواحدة كذبًا؛ إذ قال: إنه لمجنون، فرماه الله بعشر حقًّا:

الأولى: أنه حلّاف كثيرُ الحلف بالله، وذلك آية اجترائه على الله، وقلة توقيره لاسمه الكريم.

الثانية: أنه مهينٌ حقيرٌ في نفسه وفي نظر العقلاء، وإن كان في قومه ذا مالٍ وبنين، ولا أدَلَّ على مهانة المراء في نفسه، من كثر الحلف الذي يحاول أن يجتلب به ما يفقده من ثقة الناس في قوله.

الثالثة: أنه همازٌ كثير الهمز والطعن في أعراض الناس بالعبارة والإشارة.

الرابعة: أنه مشَّاء بنميم، كثير السَّعي بين الناس ينقل حديث بعضهم لبعض؛ ليفسد ذات بينهم.

الخامسة: أنه منَّاع للخير، خيرِ الدنيا، يحبس بره ورفده عمن يستحقه، وخير الآخرة، بصدِّه الناسَ عن ذكْرِ الله ودين الله.

السادسة: أنه معتدٍ يتجاوز هذا الموقف السلبي الذي يمنع في الخير إلى موقف عدواني إيجابي يبسط فيه يدَه بإيذاء الناس.

السابعة: أنه أثيمٌ كثيرُ الارتكاب للذنوب والآثام على اختلافها.

الثامنة: أنه عُتلٌّ خشن غليظ، قاسٍ عنيفٌ في كل شأن يمارسه ويزاوله.

التاسعة: أنه بعد ذلك كلِّه زنيمٌ، معروفٌ في قومه باللؤم والخبث، ممتاز بينهم في ذلك بعلامة يعرفونها، كما تمتاز الشاة بزنمتها المدلاة تحت ذقنها أو أذنها، ويقال الزنيم أيضًا على الدَّعِي الذي يُلْصَق بنسب قومه وليس منهم، أو الذي بَغَتْ أُمُّه ولا يُعرَف أبوه، فإن كان هذا المعنى هو المقصودَ من الآية، لم يكن تعبيرًا له بذنب

أمه وأبيه، فذلك ليس من سنة القرآن، ولا من مبادئ الإسلام، ولكنه يكون استدلالاً على خبث فطرته بخبث النطفة نشأ منها.

العاشرة والأخيرة: مقابلتُه نعمةَ الله بالبَطَر والكفر، لا بالطاعة والشكر، فقد آتاه الله المال والبنين، فأطغاه مالُه وبنوه، وجعل يسخر من آيات الله إذا تُليت عليه يقولُ: ما هي إلا أساطيرُ الأولين استنسخها محمد، فهي تُمْلَى عليه بكرة وأصيلا!!

بُدئت هذه الصفات، وضمت كما ترى بما هو تفريط في حق الله خاصة: ففي البداية ذَمٌّ لكثرة الحلف بالله، وفي النهاية نصٌّ على مقابلة نعمته بتكذيب آياته، أما سائر المساوئ النفسية والاجتماعية فقد سردت فيما بين الطرفين، هذا الأسلوب في تعظيم حق الله، وتأكيد حرمة مخالفته مرتين: مرةً في فاتحة الحديث، ومرةً في خاتمته، نظير ما جاء في سورة المؤمنون، وسورة المعارج، من تعظيم حق الله، وتأكيد وجوب عبادته مرتين كذلك: بدءًا وختامًا، فقد بُدئت أوصافُ المؤمنين في كلتا السورتين بأنهم في صلاتهم خاشعون، أو بأنهم على صلاتهم دائمون، وخُتمت بأنهم على صلواتهم أو على صلاتهم يحافظون، وجعلت سائر الآداب النفسية والاجتماعية فيما بين ذلك، ولا شكَّ أن تأكيد حقِّ الله هكذا في البدء والختام يرجع صداه تأكيدًا لحقِّ العباد المندرج في تضاعيف السياق؛ إذ يشير إلى أن حقَّ الله يحيطُ بسائرِ الحقوق من جانبيها يكفلها ويحميها، والواقع أنه ليس هناك حقٌّ للعباد إلا ولله حقٌّ فيه.

لم يكتفِ القرآن الكريم بعرض أفاعيلِ ذلك المكذب وأقاويله لينفر منها ومنه قلب النبي ﷺ، وليمقتها ويمقته كل ضمير حي، ولكنه أتبعها جزاءها، وهو جزاءٌ من جنس العمل، بل من جنس خاتمة العمل وأسوأ العمل، وفي الحق ألم يكن أعظم أعماله جرمًا ما ختم به جدول أعماله من قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تلك المقالة الشوهاء التي أراد أن يشوِّهَ بها آياتِ الله؟ كبُرَت كلمةً نطق بها فمُه، وشمخ بها أنفُه! أوليس القصاص العادل هو أن تؤخذ كلُّ جارحة بما كسبت؟ هكذا، قال الله جلت

حكمته: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[1] سنسمه على فمه الكاذب الخاطئ، أو على أنفه المستكف المستكبر، أو على كليهما، بميسم النار في جهنم، أو في موقف الحساب، أو بميسم السيف في الحرب، أو بميسم العار والذل بين الناس، أو بكل أولئك جميعًا، جزاءً وفاقًا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٧- قصة أصحاب الجنة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ١٧ - ٣٢]، بسط الله في الآيات السابقة الخصالَ العشر التي أقسم بها من يكذب بالوحي والنبوة، وكانت خاتمة هذه الخصال العشر أنَّ فتنته بالمال والبنين كانت سببًا في بطره وفي تقوُّله على القرآن: إنه أساطير الأولين، أما مقالته هذه فقد لقيت جزاءها في قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، وأما فتنته التي كانت سببًا في هذه المقالة، فقد أراد الله أن يبين ما فيها من ضلالٍ في التفكير وغفلةٍ عن سنن الله في تدبير الأمور، فضرب له ولأمثاله مثلاً ممن أنعم الله عليهم بسعة الرزق، كما أنعم على هؤلاء ليختبرهم أيشكرون النعمة أم يبطرونها، فغرَّتهم النعمةُ كما غرَّت مَن قبلهم وأبطرتهم كما بطروا، فكانت عاقبة أمرهم خيبة أملهم، وزوال النعمة عنهم، وذلك

---

(١) الخرطوم: يطلق على مقدم الأنف، وعلى مقدم الفم. قال صاحب القاموس: الخرطوم: الأنف أو مقدمته، أو ما ضممتَ عليه الحنكين. ونقل شارحه عن ثعلب أن الخرطوم للفيل وللبعوضة كالشفر للبعير، والمنقار للطير، والشفة للإنسان اهـ. فالتعبير به هنا عن جارحة الإنسان فيه ما فيه من تهكم وتحقير بليغ، والذي نرجحه أنه هنا استعارة من خرطوم البعوضة تصويرًا لفم المكذب بصورة ذلك الخرطوم الضعيف في حقارته وفي إيذائه باللذع الذي لا يضر.

هو مثل أصحاب الجنة الذي قصَّه الله علينا في هذه الآيات [١٧- ٣٢].

إنها رواية ذات فصول خمسة: أربعة منها تمثل تقلبات النفس الإنسانية وانفعالاتها المختلفة، وواحد منها (يتخللها) يصور تصريف القدر، وسخريته من تدبير الإنسان.

الفصل الأول: تبييت النية على جمع حصيلة الحديقة كلها، وتدبير المؤامرة لمنع حق الفقراء فيها [١٧- ١٨].

الفصل الثاني: نزول الجائحة لاستئصال الثمار، والقوم في بيوتهم لا يشعرون [١٩- ٢٠].

الفصل الثالث: الخروج لتنفيذ الخطة المدبَّرة بدقَّة وحزم في طي الخفاء والكتمان [٢١: ٢٥].

الفصل الرابع: الصدمة النفسية عند رؤية الحديقة جرداء [٢٦- ٢٧].

الفصل الخامس: التعاتُب والتلاوم، والتوبة والندم [٢٨: ٣٢].

وإليك اللوحة كاملة كما صورها القرآن:

١- ها قد أينعت ثمار الحديقة، وحان قطافها، وكان طبيعيًّا أن يبيِّتَ أصحابُها العزمَ على جذاذها، هكذا ﴿أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، حلفوا أن يقوموا بجني ثمارها في صبيحة الغد، غيرَ أنهم ارتكبوا في ذلك خطيئتين:

إحداهما: أنهم نسوا الله وأَمِنُوا مَكْرَهُ، واطمأنوا إلى أنهم مدركون وَطَرَهم لا محالةَ، غيرَ حاسبين حسابًا لمشيئة الله وقدره.

الثانية: أنهم صمموا على ألا يتركوا من الثمر شيئًا للمحتاجين والمحرومين، هاتان الخطيئتان نبَّه القرآن عليهما بكلمةٍ واحدةٍ؛ حيث يقول: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٨] لا يستثنون في يمينهم مشيئةَ الله، ولا يستثنون من ثمرهم حقَّ الفقراء.



٢- وكان القدر بالمرصاد، وأراد الله أن يعاقبهم على هذا الإثم المزدوج، بالحرمان التام ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]، نزلت بها جائحة سماوية اكتسحت ثمارها وهم في بيوتهم نيام ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]، فكان الذي يراها يظنها قد سبق جذاذها.

٣- واستيقظ القوم من نومهم وهم لا يدرون ما جرى به القضاء ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: ٢١- ٢٢]؛ أخذ بعضُهم ينادي بعضًا في الصباح الباكر يتحاضُّون على البادرة في الغداة إلى تنفيذ ما بيَّتوه قائلين: إن كنتم حقًّا مصممين على الجذاذ اليوم فهذا وقته، قبل أن يسفر الضوء، وينتشر الناس، ويطلع عليكم من لا تحبون ﴿فَٱنطَلَقُوا﴾ من مساكنهم وأخذوا طريقهم إلى حديقتهم ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يُسِرُّ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ؛ تأكيدًا لما بيتوه وتحالفوا عليه ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤] لا تُمَكِّنُوا مسكينًا واحدًا من دخول الحديقة عليكم اليوم حتى ننتهي من جذاذها، ونودع ثمارها في مكان حصين، وكانت هذه النصيحة السرية قد وقعت موقعَ الاستحسان من نفوسهم، فاتجهوا لتنفيذها ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥](١)، وقد أجمعوا أمرهم، ورتبوا خطتهم على منع المساكين من دخولها، وحرمانهم من ثمارها.

٤- ذلك كلُّه، وهم لا يدرون ما فعله بحديقتهم القدر الساخر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ٢٦، ٢٧]، فلما رأوا الحديقة كانت مفاجأة أليمة، وصدمة عنيفة، ذهلوا منها أولَ مرة، حتى أنهم ظنوا أنهم أخطأوا الطريقَ إلى بستانهم، وقالوا: ما هذه بحديقتنا، فقد رأيناها بالأمس عامرةً ناضرةً، ثم رجعوا إلى أنفسهم، ونظروا في الحدود والمعالم، فتبينت لهم الحقيقة المُرَّة، فقالوا: كلا!! بل هي

---

(١) يقال: قدر يقدر قدرة: أي استطاع، ويقال: قدرًا: أي دبر ورتب، وقد أخذنا هذا المعنى الثاني؛ لإغنائه عن التجوز والتأويل، بتقدير أنهم كانوا قادرين على زعمهم، أما في الواقع فلم يكونوا قادرين على إعطاء ولا منع؛ لأنهم لم يسبق لهم شيء يعطونه أو يمنعونه.

هي، ولكننا قوم محرومون، قد حرمنا الله رزقنا بشؤم ذنبنا، وعقوبة لجنايتنا.

٥- وكان في القوم رجلٌ صالحٌ هو أوسطُهم، أي خيرُهم وأعدلهم رأيًا، وكان ينهاهم من أول يوم عن هذه الخطة الجائرة، وكان يذكِّرهم من جهة بأن كيد الله غيرُ مأمون، وأن مشيئته فوق كل مشيئة، ومن جهة أخرى بأن الله أعدلُ من أن يرضى بظلم عباده، وأغْيَرُ من أن يتركَ عيالَه محرومين، وهكذا كان يحضُّهم على تسبيح الله وتنزيهه عن صفتَيِ العجز والظلم اللتين ينطوي صنيعهم على نسبتهما إلى الله؛ فلم يستمعوا نصيحته، فلما نزلت الكارثة، أخذ يذكرهم بسابق نصحه وموعظته، وجعل يؤنِّبهم على ما فرط منهم في جنب الله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ [القلم: ٢٨] هنالك استيقظت ضمائرُ القوم، واعترفوا بذنبهم، وذكروا الله بعد طول نسيانهم له: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٩﴾ [القلم: ٢٩]، فجمعوا بذلك بين تنزيه الرب، والاعتراف بالذنب، ثم رجعوا بذاكرتهم إلى الوراء، فأخذوا يتساءلون: كيف طوعت لهم أنفسهم أن يقترفوا هذا الإثم المزدوج (في جنب الله، وفي حقِّ عباد الله)؟ وجعلوا يبحثون عن المسؤولين منهم عن هذه الفعلة: أيهم أشار بالرأي؟ وأيهم حرص عليه؟ وأيهم استحسن؟ وأيهم ساير واتبع؟ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: ٣٠] يلوم بعضهم بعضًا، ويلقي كلٌّ منهم جانبًا من المسؤولية على غيره.

على أن هذا التعاتُب والتلاوُم لم يكن ليشفيَ صدورهم؛ لأنهم كانوا كلما حولوا وجوههم شطْرَ الحديقة ووقعت أبصارُهم على منظر الكارثة، ازدادت قلوبُهم حرقةً وحسرةً، فلم يتمالكوا أن صاحوا يندبون حظَّهم العاثر: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝٣١﴾ [القلم: ٣١]، وهكذا اعترفوا بذنبهم مرةً أخرى، ولكن في صورة أبلغَ وأوفى، كأنهم يقولون: إننا لم نكن ظالمين فحسب، بل لقد جاوزنا الحدَّ في الظلم، فنحن أهلٌ لما نزل بنا، وما ظلمنا الله ولكننا ظلمنا أنفسنا، وأخيرًا انقطع أملُهم ورجاؤهم إلا في الله، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝٣٢﴾ [القلم: ٣٢] لا نطمع إلا في بره، ولا نرجو إلا خيره.

٨- كذلك العذاب للمكذبين، وللمتقين عند ربهم جنات النعيم:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم: ٣٣-٤٣].

هذا هو تطبيق مورد المثل على مضربه من حيث العواقب والنتائج بعد أن تبين في صدر الآيات السابقة انطباقها من حيث المبادئ والمقدمات؛ فقد دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] على أنه كما اختبر الله أصحاب البساتين بسعة الرزق، ووفرة الثمار، اختبر قريشًا بالمال والبنين، وكما أن النعمة أبطرت أصحاب البساتين، فنسوا ذكر الله، ومنعوا حقَّ المساكين، كذلك أبطرت النعمة قريشًا فسخروا من نبيهم حتى قالوا: إنه لمجنون، وكذبوا بآيات ربهم، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هكذا اتحدت مقدمات القياس عند الفريقين، ولم يبقَ إلا إعلانُ النتيجة المتشابهة لهذه المواقفِ المتشابهة، وذلك هو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي كما كانت عاقبة أصحاب البساتين أن عُوقبوا بهلاك زرعهم وثمارهم، كذلك ستكون عاقبة قريش أن يعاقبوا بزوال ما هم فيه من رغد ولين عيش، وأن تبدل حالهم بؤسًا وشدة، وهذا وعيد قد أنجز، فإن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام، وحتى كان الرجل إذا نظر إلى السماء رأى بينه وبينها كهيئة الدخان، رواه البخاري. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)﴾ [الدخان: ١٠- ١١]، على أن هذا العذاب الأدنى ليس شيئًا مذكورًا بجانب العذاب الأكبر الذي ينتظر المكذبين يوم القيامة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: ٣٣] أشد هولاً وأطول أمدًا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يا ليتهم كانوا يعملون. أو هو شرط حذف جوابه،

والمعنى: لو كانوا يعلمون ذلك حقَّ العلم، ما أصروا على عنادهم.

ولقد كان إعلان هذا الوعيد الأخروي في صيغة مطلقة غير مقيدة بشرط ولا موضوع من شأنه أن يلقي الفزع في قلوب المؤمنين، وأن يغلق باب الأمل في التوبة على المكذبين، فكان من رحمة الله أن أَتْبَعَ هذا الوعيدَ الشديدَ بالوعدِ الكريم الذي يخفف من وقعه على نفوس الفريقين، فقال عظمت رحمته: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤] كأنه يقول: أما أنتم أيها المتقون فلا خوف عليكم يومئذ ولا أنتم تحزنون، فإن لكم جنَّاتٍ فيها خالص النعيم، ولكم فوق ذلك كرامة سنية بجوار رب كريم، وأما أنتم أيها الذين أسرفوا على أنفسهم فلا تقنطوا من رحمة الله، ولكن أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له؛ لتدخلوا في زمرة المتقين.

هكذا فصل القضاء العادل بين الفريقين؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، إنهم ليسوا سواءً في الفعل، فكيف يكونون سواءً في الحكم؟! أتكون عاقبة الفجار كعاقبة الأبرار؟! لكن الاعتزاز بالمال والاغترار بالنعيم من شأنه أن يعكس المنطق في عقول المترفين، لقد عاشوا دهرًا طويلاً يتقلبون في النعيم والترف، وعاش المؤمنون دهرًا طويلاً يكابدون حياة البؤس والشظف، ولم تتحول كفَّتا الميزان عن وصفها هذا يومًا ما، فإذا سارت الأمور سيرها الطبيعي، ألا يكون مستقبلهم صورة من حاضرهم إن لم يكن خيرًا منه، هكذا ظن المترفون أن ما أوتوه من حظٍّ فهو لهم خالد مخلَّد، كأن لهم حظوةً وامتيازًا في حكم القدر، أو كأنهم من طينة غير طينة سائر البشر، حتى إنه لو قدرت حياة بعد هذه الحياة، لكانوا فيها سعداء كما هم اليوم سعداء، هذا هو منطق الأماني والأحلام، والذي أخذ القرآن يفنده تفنيدًا في الآيات التالية: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: ٣٥-٤٣]؛ أنجور في

الحكم ونسوِّي بينهم في الجزاء وهم ليسوا بسواء؟! معاذ الله أن يظلمَ ربُّك أحدًا، وكأني بك تلاحظ هاهنا أن الدعوى التي سبقت الآيات التالية ردها، ليست هي جعل المسلمين كالمجرمين في الشقوة، بل جَعْل المجرمين كالمسلمين في السعادة والكرامة، نعم إن المساواة بين الطرفين بوجه عام ينطوي فيه المعنى المقصود أيًا كان الطرف المتقدم والطرف المتأخر، وغير أنه كان مقتضى الظاهر أن يجيء الردُّ على وفق صميم الدعوى، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؛ فما السِّرُّ في العدول عن هذا الوضع الطبيعي؟

نقول -والله أعلم-: إن مخالفة الظَّاهر هنا يدعو إليها سببان: لفظيٌّ ومعنويٌّ، أما السببُ اللفظيُّ، فهو أن هذا الردَّ جاء على إثر وعد المتقين، فقدم ذكر المسلمين لينضم الشكل إلى شكله، وأما السببُ المعنويُّ، فهو أن تسوية المسلم بالمجرم حطٌّ من رتبته، وبخسٌ من حقه، وهو ظُلم بيِّن، وأما تسوية المجرم بالمسلم فقد تُعَدُّ تفضلاً وتكرمًا عليه بما ليس من حقِّه، وهو أهونُ في حكم العقل والضمير، فوضعت صيغة المساواة على الوجه الأول(١) لتكون أبلغَ في تصوير شناعة الظلم الذي تثمره هذه المساواة.

وتمضي الآيات الحكيمة في تفنيد هذه الدعوى، لتبين أنها ليست شنيعةً في حكم الله وحسب؛ ولكنها شنيعة في حكم البشر أنفسِهم؛ من أجل ذلك أخذت تستقصِي الأُسس التي يعتمد عليها البشر في أحكامهم، ثم تعرض هذه الدعوى عليها واحدة واحدة، حتى يتبين أنه ليس لها مستند في شيء منها، فالناس يعتمدون في أحكامهم

---

(١) واعلم أن وضع صيغة المساواة على هذا الترتيب هو الأسلوب الأكثر دورانًا في القرآن الحكيم، اقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ٢٨﴾، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ فهو حكاية لزعمهم، وتصوير لأصل دعواهم المطوية هاهنا، لا للرد عليها من جانب الذكر الحكيم بخلاف ما نحن بصدده.

إما على دليلٍ من العقل، وإما على دليلٍ من النقل مكتوبٍ أو غيرِ مكتوب، وقد عرضت الدعوى على هذه المسالك الثلاثة مرتبة في ترتيبها هذا:

عرضتها أول كل شيء على منطق العقل، فبينت أن فيها من المفارقة والشذوذ عن المعقول ما يدلُّ على أن بأصحابها دخلاً في عقولهم، ومن ثم أخذت تسائلهم في تهكم موجع (مالكم) أي شيء دهاكم وأصاب عقولكم حتى سويتم بين الضدين؟! ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ على أي ضرب من المنطق أو القياس تبنون أحكامكم؟! ثم عرضتها على منهج الاستدلال بالنقل المكتوب ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [القلم: ٣٧، ٣٨] يقول: بل خبروني إن لم يكن لكم من العقل برهان، هل عندكم كتاب سماوي تقرون فيه مضمون هذا النص: وهو أن لكم عند الله ما اشتهيتم وتمنيتم من حظوظ عاجلة وآجلة، وأنه إذا كان في المقادير خيار فستكون لكم فيها الخيرة، وتذرون منها ما لا يرضيكم، وتأخذون منها ما ترضون وتختارون؟!

فلمّا عجز القومُ عن أن يأتوا بوثيقةٍ من النقل كما عجزوا عن أن يدلوا بحجةٍ من العقل، طالبهم اللهُ أن يأتوا بمستند شفوي غيرِ مكتوب ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القلم: ٣٩].

بل لو تركنا جانبًا براهين العقول ونصوص النقول، أفلا أقل من أن يكون لكم علينا حجةٌ في قول مأثور غير مسطور؟ فهل قطعنا لكم على أنفسنا عهودًا ومواثيقَ غيرَ موقوتةٍ بأحد، بل ممدودة إلى الأبد، ليست محدودة بهذه الحياة، بل نافذة سارية إلى ما بعد هذه الحياة؟ هل قطعنا لكم على أنفسنا عهدًا هكذا ضمنًا لكم فيه أن حكمكم لأنفسكم نافذ لا مردَّ له ولا معقب، وأن ما تطمعون فيه من رحمة ونعمة فهو واصل إليكم لا ممسك له؟ لا شكَّ أن التقوُّل على الله بأنه أعطاهم مثل هذا الميثاق جرأة عظيمة لا يرتكبها أحد متثبت مما يقول، غير أن حمية الجدال قد تدفع من لزمته الحجة إلى أن يقول ذلك بلسانه وإن لم يعتقده بقلبه، لذلك لم يكتفِ القرآن منهم في جواب هذا السؤال بقول: (نعم) مجردة، ولكنه طالب من يقولها أن يكون ضامنًا لما يقول ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ



زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٠]، قل لمن عساه أن يدعي وجود هذا العهد والميثاق: من منكم يستطيع أن ينهض بهذه الدعوى، وأن يكون محاميها وكفيلها؟

هنا لا محالةَ تخرس الألسنة، ويجفّ الريق في الحلاقيم؛ إذ لا يستطيعُ أحدٌ أن يقدّم هذا الضمان، لكنه قد بقي أمام الوثنية منفذ لم تغلق بابَه كلُّ هذه الأسئلة المفحمة. نعم لقد بقي لهم أن يقولوا: سلمنا أن الله لم يعطنا عهدًا بذلك في كتاب منزل، ولا في قول مأثور، ولكن لنا شفعاء سيشفعون لنا لديه، ويستنزلون علينا من رحمته ما لم يوجبه على نفسه، أولئك هم الملائكة، والأنبياء والصالحون الذين عبدناهم ليقربونا إلى الله زلفى، إننا لنرجو شفاعتهم، وإنهم لن يتركونا في تلك الساعة العصيبة.

هذا المنفذ الذي تحاول الوثنية أن تتسلَّل منه سيغلقُ القرآنُ بابَه إغلاقًا محكمًا، وسيكون آخر هذه الجولة هو هدم هذا الحصن الذي يتحصن به المشركون ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٤١- ٤٣]، يقول: بل هل لهم آلهة من دون الله يشاركونه في حكمه، فيرزقونهم إن أمسك عنهم رزقه، وينصرونهم إن منعهم نصره، ويضمنون لهم من النعيم ما لم يكفله الله لهم؟! إن زعموا ذلك، وكانوا جادين فيما يقولون، فليحضروا هؤلاء الشركاء وليُبرزوهم إلى الميدان، غيرَ أنه ليس الشأن في إحضارهم الآن، وإنما الشأن في إحضارهم حين يجد الجد، يوم يشتدُّ الكرب، ويعظم الخطب، وتكشف الشدائد عن ساقها، أو يوم تنجلي الأمور، وتظهر الغيوب، وتكشف الحقائق عن ساقها[1]، وذلك إما يوم القيامة كما هو

---

(١) الساق في الأصل تنسب للإنسان وتنسب للشجر: فأما كشف الإنسان عن ساق، فيكون في الشؤون المهمة التي يأخذ المرء لها أهميتها، فيشد لها إزاره، ويشمر عن ساقه وساعده، وقد كثر استعمال هذا التعبير حتى صار كناية عن الوقوع في شدة، وإن لم يكن هناك ساق تكشف ولا ساعد يشمر عنها، وأما الكشف عن ساق الشجر، فيكون طلبًا لإظهار أصولها المغيبة في باطن الأرض، والمستورة عن الأنظار، وكثر استعمال هذا التعبير في معنى إزالة الخفاء، وإبراز الحقائق المغيبة، وإن لم يكن هناك شجر ولا جذع ولا ساق، والآية الكريمة تحمل المعنيين كما هو ظاهر.

المتبادر، وإما ساعة الموت، ففي كليهما انكشافٌ للحقائق المغيبة، واشتدادٌ للكروب الخطيرة، وفي كليهما تبين عجز الشركاء والشفعاء، فلا تجدي الاستعانة بهم، ولا يُغني الالتجاء إليهم، وفي كليهما يفوت وقت التدارك، ولا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيرًا، فإذا دُعي المحتضر أو المبعوث من قبره إلى السجود، لم يستطع، ولو استطاع لم يُقْبَلْ منه.

يومئذ يجيء المكذبون ناكسي رؤوسهم، خاشعةً أبصارُهم خشوعَ طبعٍ واضطرارٍ لا خشوعَ طوعٍ واختيارٍ، ويومئذ تغشاهم الذلة والمسكنة حيث يشعرون بأنهم ضيعوا الفرصة في حينها، فقد كانوا في الحياة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٣] قادرون، فكانوا يأبون ويستكبرون، أما الآن فقد فات الأوان، وذهب وقت الإمكان.

٩- فذرني ومن يكذب.. واصبر لحكم ربك:

ترى ماذا يكون موقف الرسول ﷺ بإزاء هذا الوعيد الموجّه إلى قومه؟

إنه لا بد أن يكون موزع الهمّ بين واجبه وعاطفته، بين حرصه على هداية قومه وبين إشفاقه عليهم من العنت والعذاب، هذه هي طبيعته الثنائية التي صورها لنا القرآن ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] نعم لقد كان يلاقي أشدَّ العَنَت في دعوتهم، وكان يحزنه ما كان يراه من صدودهم وتكذيبهم، حتى يكاد يبخعُ نفسه أسفًا على ضلالتهم، ولكنه في الوقت نفسه كان يكره أن ينزل بهم العذاب، فكان يدعو ويستغفر لهم، وكان يبكي حين يسمع وعد الله أنه سيجيء به شهيدًا على قومه ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

لقد ورث هذا القلب الرحيم عن أبيه إبراهيم الذي كان يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فلا عجبَ إذًا أن يكون موقفه



حين يسمع هذا الإنذار لقومه كموقف أبيه إبراهيم حين جاءته الملائكة بإنذار قوم لوط، فأخذ يحاول فيهم، ويستشفع لهم بوجود الصالحين بينهم.

هكذا يتراءى لنا محمد ﷺ في مرآة القرآن، كأنه قائم الآن يستغفر لقومه، ويرجو تحويل العذاب عنهم، ولكن يتراءى لنا في الوقت نفسه وهو مُتْعَب القلب بهم، دائم الهمّ لطول عنادهم واستكبارهم، فماذا يكون الحل في هذا الموقف المعقد؟ ذلك ما تجيبنا عنه الآيات التالية [٤٤-٥٢].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٤٤-٥٢].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾.. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هذا هو المحور المزدوج الذي تدور عليه هذه الفقرة الختامية من السورة، إنه توجيهٌ سماويٌّ يتناول الموقفَ من جانبيه، كأنه يقول: أما القدر فلا حيلةَ لك في دفعه، فلا تتعبْ نفسك في الاستغفارِ لهم والشفاعةِ فيهم، وأما واجبُ الكفاح في الدعوة فلا رخصةَ لك في تركه، فلا تضجر بهم، ولا تسأم من مقامك بينهم؛ فهو إذًا توجيه ذو شعبتين:

الشعبة الأولى: في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [٤٤-٤٧].

الشعبة الثانية: في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [٤٨-٥٢].

ولقد وقعت الشعبة الأولى موقعَها عقبَ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٣] إذ كان استعصاؤهم على هذه الدعوة ذنبًا عظيمًا مبررًا لاستحقاقهم العذاب، ومانعًا من الشفاعة فيهم، فجاء صدر هذه الفقرة نتيجة منطقية لآخر الفقرة السابقة، كأنه قيل: إذا كان هذا هو مبلغَ ذنبهم، فدعني أوفِّ الجزاء للذين يكذبون بهذا الحديث، والإشارة بهذا الحديث إما إلى حديث القيامة

الذي وصف في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، وإما إلى القرآن كله بما ينطوي فيه من هذا النبأ وغيره، وتأمل في صياغة الآية الكريمة، فإنها لم تقل: دع لي من يكذب، واترك إليَّ أمره فإني سأكفيكه، ولكنها تقول (ذرني) أي: اتركني له، وخَلِّ بيني وبينه، لا تمنعني منه بدعائك، ولا تَحُلْ بيني وبينه بشفاعتك، وهذا هو التصوير الحقيقي لموقف الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ فإنه لم يكن بصدد الدعاء عليهم، أو بصدد استعجال العذاب لهم كما قد ظن، وإنما كان بصدد الاستعطاف عليهم والاسترحام لهم، فقيل له: دعني أنفذ فيهم إرادتي، كما قيل لإبراهيم من قبلُ: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: ٧٦]، ثم بيَّن الله أسلوب هذا العذاب الموعود، فقال له جلت حكمته: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] أي أننا لن ننزل بهم هذا العذاب وحيًا في التوِّ والساعة، ولكننا سندنيهم ونقرِّبهم منه رويدًا رويدًا، ونستنزلهم إليه درجةً درجة من حيث لا يدرون أنهم سائرون إلى هلاكهم؛ وذلك بأن نزيدهم نعمة كلما ازدادوا معصية، حتى يطمئنوا إلى دنياهم، ويظنوا أن ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات، وسأملي لهم، سأطيل لهم العمر، وأُرخي لهم الحبل، حتى يحسبوا أن ما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم، إن هذا الكيد والتدبير الذي ظاهرُه الرحمةُ وباطنُه البلاءُ والنقمة، لا أصنعه عجزًا عن مجاهرتهم بعذابي، ولكن زيادة في تخييب آمالهم، لتكون الصدمة بعد ذلك أقسى وأعنفَ حين يُؤْتَوْن من مأمنهم، فإن كيدي متين، محكم ليس فيه ثغرة تنم على ما يراد بهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤] هكذا كان إمدادهم بالنعمة والإملاء لهم في العمر، وإن كان ظاهرهما الرحمة، كانا في الحقيقة وبالاً عليهم ونقمةً، وهو جزاء من جنس العمل؛ فقد كانت النعمة هي سببَ التكذيب، وستكون إدامتها ثوبًا وغلافًا لعقوبة هذا التكذيب.

لكن ما يدرينا، فلعل هناك سببًا وجيهًا غير بطر النعمة هو الذي حملهم على



التكذيب، لذلك أخذ الوحي يتقصّى من الأسباب أبعدها، ومن الاحتمالات الممكنة أقصاها لينكرها وينفيَ وقوعَها؛ حتى لا يبقى إلا ذلك السبب الوحيد ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [القلم: ٤٦، ٤٧].

فهاتان علتان كان لهم أن يتعللوا بواحدة منهما في مقاومة الدعوى المحمدية، ولو كانت هذه الدعوة حقًّا في ذاتها:

إحداهما: أن تكون دعوة غير نزيهة البواعث، يقصد بها صاحبُها أن يجريها لنفسه مغنمًا، وأن يفرض بها على أتباعه مغرمًا، فيرهقهم بالضرائبِ الفادحة، ويثقل كاهلهم بالأجور الباهظة، إذن لكان لهم العذر في أن ينفروا منها، وأن يفرُّوا عنها.

فهل دعوة القرآن كذلك؟! هذه الدعوة التي لا يسألهم صاحبها عليها أجرًا، بل هو على العكس يحمل ديونهم ويكفل ضياعهم، ثم يحرم عليه أن ينال من صدقاتهم فتيلاً أو نقيرًا، وإنما يرد أموال أغنيائهم على فقرائهم لتكون منهم جميعًا أمة واحدة حية قوية.

والثانية: أن تكون دعوة لا جديد فيها، ولا حاجة إليها، لأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها أو بما يدانيها صدقًا وعدلاً، واشتمالاً على الحكم النظرية والعملية وعلى العبر الماضية والنذر المستقبلة، وعلى علوم النفوس والأكوان، وعلى كل ما فيه صلاح المعاش والمعاد، وأنَّى لهم ذلك كله إلا إذا فتحت لهم السماء أبوابها، وكشفت لهم مكنون غيبها، ليكتبوا منه ما يغنيهم عن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ؟!! أم هم عن السمع معزولون، وعن الغيب مبعدون؟! فإنهم لا غنى لهم عن هذا الإرشاد السماوي طرفةَ عين.

وإذا فلم تبق لهم حجة ولا شبه حجة في تكذيب الدعوة والإعراض عنها، وكذلك لم تبقَ للرسول ﷺ حيلة ولا شبه حيلة في تبديل عداواتهم محبة، وتحويل إعراضهم إقبالاً؛ إذ لو كانت عداواتهم له بسبب إرهاقهم بالمغارم لخفف منها، ولو



كانت بسبب استغنائهم عن دعوته لكفَّ عنها، أمَا وهي غُنم خالص لهم لا مغرم فيه، وعلوم نافعة ضرورية غيبية لا سبيل لهم إليها عن غير طريقه، فليس لعداوتهم سبب مِن قِبله هو ولا مِن قِبل دعوته، وإنما هو شيء وَقَرَ في صدورهم من العلو الكبرياء وحمية الجاهلية!!

وهو سبب خارج عن إرادته، مستعصٍ على حيلته، فهو الآن بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يترك الدعوة ضجرًا بهم ويأسًا منهم، وإما أن يثابر عليها كما هي، صابرًا على لأوائها، فأي الأمرين يختار؟!

هنا يتقدم إليها الإرشاد الرباني ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه هي الشعبة الثانية من التوجيه السماوي لصاحب الرسالة العظمى -صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله-، يقول: لقد قضى ربك أن تكون بعثتك في هذه الأمة التي فَتَنَتْها الدنيا وأبطرتها فأعرضت عن دعوتك، وفرض عليك أن تبلغ إليهم رسالته على رغم ما تكابده منهم من مقاومة وعناد، فاصبر لقضاء ربك، واصبر على تبليغهم واصبر على تكذيبهم، كما صبر أولو العزم من الرسل، لا تُلْقِ سلاحك، ولا تفِرَّ من ميدان الجهاد، ولا تعجل بالخروج من قريتك مهاجرًا كما فعل صاحبُ الحوت يونسُ بن متى -صلوات الله عليه-؛ إذ بعثه الله إلى أهل الموصل، وكان من أمره ما قصَّه الله علينا في مواضعَ متفرقةٍ من القرآن المجيد (يونس، والأنبياء، والصافات)؛ ذلك أنه لَمَّا كذَّبه قومُه، توَعَّدَهم بعذابٍ سماوي عاجل، ثم خرج من بينهم مُغاضبًا ومهاجرًا، كما كان يخرج الأنبياء قبل نزول العذاب على قومهم، وكان يظُنُّ أنه حين يخرج من بلدة الكفر سيجد في الأرض سعة، ولم يكن يظن أنه سيخرج من ضيقٍ إلى ضيقٍ أشدَّ منه؛ إلى بطنِ الحوت الذي الْتَقَمَه حين ركب السفينة المشحونة المشرفة على الغرق التي كان لا بد من تخفيف



حملها بإلقاء بعض راكبيها، فاقترعوا، فوقعت القرعة عليه، فألقى بنفسه في اليم، فكان بطن الحوت له سجنًا، عقوبة على إباقه وفراره، ولكنه كان سجنًا قصير المدى، حميد العاقبة، تذكَّر فيه ربَّه وعرف فيه ذنبه ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، محبوس الأنفاس في هذا الصندوق الحيواني، ولكن الله سمع دعاءه، فاستجاب له ونجَّاه من الغمِّ، وأوحى إلى الحوت أن يلفِظَه على الساحل، فلفظه منهوكَ القوى بالعراء، في أرض جرداء لا شجر فيها ولا مأوى، ولكن الله أنبت عليه شجرةً من يقطين لا ساق لها، فمدت عليه ظِلَّها وأطعمته من ثمرها حتى انتعش ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، ولكنَّ الله أنعم عليه بقبول توبته، وتفريج كربته، وإيوائه في غربته، فلما نُبِذ بالعراء لم ينبذ وهو مذموم محروم، ولكن وهو مكرم مرزوق مرحوم ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، فاصطفاه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملي الصلاح، فرجع إلى قومه، فآمنوا به، وكشف الله عنهم العذاب بتوبتهم كما كشف الكرب عن نبيهم بتوبته.

ولم تكن توبة يونس عن ذنبٍ خالف فيه أمرًا صريحًا من ربه؛ وإنما اجتهد اجتهادًا لو صدر عن آحادِ الناس لكان لهم فيه أجر، بل أجران، أليست مقاطعة أهل الكفر ومجانبة أهل الفسوق هجرةً في الله؟! ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٠٤]، غير أن شأن المصلحين ألا يحْمِلَهُم الغضبُ على سرعة اليأس، ولعلَّ الأحرى بالرُّسل أن يتريثوا بالهجرة ريثما يَرِدُ إليهم الإذنُ بصريح النص، والله يحبُّ لأنبيائه أن يختاروا الخطة المثلى، وأن يسموا إلى الدرجة الفضلى، فكان ذنب يونس أنه اختار ما هو خلاف الأفضل، وكذلك كل ما ورد في عتاب الأنبياء والمرسلين إنما كان خطأً منهم في الاجتهاد باختيار رخصة هي أليقُ بعامة الناس، وما أحسنَ ما قيل: «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين»، وصدق الله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، لذلك أراد الله ألا تتكرَّر هذه التجربة على يدي خاتم الأنبياء صاحبِ الخلق

العظيم، فوصَّاه بملازمة الصبر على عناء الدعوة، وانتظار الإذن الصريح له بالهجرة، وقد قام الرسول -عليه الصلاة والسلام- بهذه الوصية خيرَ قيامٍ، فبقي في مكة بعد أن هاجر منها أصحابُه كلُّهم، ولم يبقَ منهم إلا اثنان: رفيق في السفر (أبو بكر)، وأمينه على الودائع (علي بن أبي طالب)، ولم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة في ليلة المؤامرة الغادرة التي دبَّرها المشركون لاغتياله، فردَّ الله كيدَهم في نحرهم، وجعل له في مُهاجَرِه مُرَاغمًا كثيرًا وسعةً.

تعليق ختامي.. الصبر المطلوب:

ليس الصبر المطلوب من الرسول ﷺ هو مجردَ الصبر على المقام بينهم، وعدمِ الهجرة من دارهم؛ ولكنه أيضًا وقبل كل شيء الصبر على ما يفعلون ويقولون: صبر على حنقهم وغيظهم، وصبر على اتهامهم له بالجنون، على اتهامهم للقرآن في طي ذلك بأنه قول مجنون ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥١، ٥٢].

لو اتخذ القرآن الأسلوب العادي في الحجاج، لبدأ السورة بذكر هذه التهمة، ثم عقب عليها بالرد والتفنيد، ولكنَّ الله كان أرفقَ بقلبِ عبده من أن يفتتح خطابه معه بذكر مَطاعن أعدائه فيه، فبدأ السورة الكريمة بإعلانِ طهره، وبراءته من نقيصة السَّفه والجنون، وأثبت مكانها التنويه بعقله الحصيف، وعِلْمه الراسخ، وخُلقه العظيم، ثم وضع في مقابلة هذه السورة الكريمة بما فيها من أجمل المناقب صورةَ أعدائه بما فيهم من أفحشِ العيوب والمثالبِ، ثم قرَّر مصيرَ كلٍّ من الحزبين، وبعد أن أوسع البيان في هذا كله، جاء أخيرًا وأخيرًا فقط يشير إلى مقالتهم الفاجرة، على أنه لم يذكرها مجردةً عاريةً، بل أحاطها بما يلطف وقعها، ويبرز ما فيها من زور وضلال بعيد!!

نعم لقد تلطَّفت الآية الكريمة مرةً أخرى في التمهيد لهذه المقالة، غيرَ مكتفيةٍ



بذلك التمهيدِ الطويل في الآيات الخمسين قبلها، فلم تبدأ بحكايةِ نصِّ الاتهام الجائر؛ بل بدأت بوصفِ البواعثِ التي صدر عنها هذا الاتهام، وتحديد الملابسات التي صدر فيها.

أما البواعث فقد بيَّنت أنه صدر عن نفوس مغيظة محنقة، يكاد غيظُها وحنقُها يعميها ويصمها، فكما أنهم ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ للقرآن، كانوا لا يطيقون نظرًا لنبي القرآن ﷺ؛ بل كانوا إذا لمحوه غَلَتْ مراجلُ صدورِهم حقدًا، وصاروا يتمنون أن تزِلَّ به قدمُه، وأن ينزلق فيسقط صريعًا ليزول شاخصه من أمام أعينهم، وكان هذا الانفعال النفسي ينطبع في نظراتهم، فينظرون إليه نظرةً ساخطةً ماقتةً تكاد تصرعه، حتى لو كانت هناك نظرة تصرع عدوها لصرعته ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١] كانوا لا يستطيعون سمعًا، النفوسُ إذًا ثائرة منفعلة، والنظرات ملتهبة مشتعلة، أفتلك حالة يُطْمَأَنُّ فيها إلى صدق في القول أو إلى عدل في الحكم؟! تلك هي الحالة التي انبعثت منها مقالتهم.

وأما الملابسات التي صدرت فيها، فقد بيَّنت الآية الحكيمة أنهم لم يقولوها عنه وهو في تصرفاته اليومية يباشر شؤونه العادية، قولية أو فعلية، وإنما كانوا يقولونها ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ حين كان يتلو عليهم القرآن، فيرون فيه ما هو فوق طاقتهم جزالةً ورصانةً، وصفاءَ ديباجةٍ وسحر بلاغة، ويرون فيه مع ذلك خروجًا على عقائدهم وعوائدهم، وثورة على موروثاتهم ومقدساتهم، فلا يجدون تعبيرًا عن دهشتهم وسخطهم إلا أن يقولوا ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١][1].

هم إذا حتى في حالة سخطهم واشتعال نفوسهم لا يتهمونه هو في الحقيقة بالجنون؛ وإنما يتهمون القرآنَ نفسَه بأنه قولُ مجنونٍ، ولذلك لم تُبقِ الآيةُ حاجةً إلى

---

(١) انظر إلى الأدب السامي في حكاية النقد، ألا ترى كيف تلطَّفت الآية، فلم تواجه الرسول ﷺ بنقل نص الخطاب الكريه له؛ إذ لم تقل: ويقولون: إنك لمجنون.

تبرئة الرسول ﷺ نفسه، وإنما جاء ببيان المفارقة الصارخة بين وصفهم للقرآن وبين طبيعة القرآن.

أهذا القرآن الذي هو مثال الحكمة والرشد ومعيار الصدق والعدل يُقال عنه: إنه قول مجنون؟!!

أهذا القرآن الذي جاء ذكرًا وتنبيهًا للعقول، يوقظُها من غفلتها ويخرجُها من الظلمات إلى النور، وجاء ذكرًا وتنويهًا بشأن أتباعه يسمو بهم حتى يجعلَهم خلفاءَ الأرض وورثة الفردوس؟!!

إنه ليس ذكرًا لفئة محصورة من الناس، ولا لعصرٍ محدودٍ من العصور.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢] للخلق كافة، منذ نزل إلى يوم الدين، وصدق الله العظيم.

* * *

القسم التاسع

سـورة النبأ

ومولد الدعوة الإسلامية.. وتساؤلات المشركين

١ - تمهيد.
٢ - آيات الله في الكون والأنفس.
٢ - التذكير بأنعم الله.
٤ - صحة البعث.
٥ - شواهد البعث وأماراته.
٦ - أحوال الأشقياء وأحوال العداء.
- اللوحة الأولى من [٢١ - ٣٠].
- اللوحة الثانية من [٣١ - ٣٨].
- عبرة السورة ومغزاها من [٣٩ - ٤٠].

سورة النبأ.. ومولد الدعوة الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد:

كان ميلاد الدعوة المحمدية صدمةً قويةً لعقول المشركين، ومثارًا لدهشتهم وعجبِهم منها ومن كل شيء فيها.

عجبوا من محمد أنه رسول الله إليهم، وأن الملائكة تجيئه بخبر السماء ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر: ٧]، واضطربوا في تعليل هذه الحركة وتسميتها، فقالوا: سحر، أو شعر، أو كهانة، أو جنون، ثم عجبوا من ثورته على دين قومه، ودعوته إلى محو صوره، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ولعل أكبر عجبهم من حديثه عن النشأة الآخرة، وإعلانه أن الناس مبعوثون بعد موتهم، مجزيُّون على أعمالهم، فجعلوا يخوضون في هذا الشأن على وجوه شتَّى، تارةً يتساءلون فيما بينهم تفكُّهًا وتهكُّمًا وتعجبًا ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

وتارة يتسابقون إلى سؤال النبي والمؤمنين لا سؤال تثبت واستكشاف للحق؛ ولكن سؤال إنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] أو سؤال تشكك: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] أو استبعاد: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أو استبطاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [سبأ: ٢٩] أو تعنُّت وتعجيز: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾ [الدخان: ٣٦].

بإزاء هذه التخبطات الفكرية أنزل الله سورة النبأ تعجبًا وتهوينًا من خوضهم،

وإكبارًا وتهديدًا للشأن الذي يخوضون فيه.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [النبأ: ١- ٤] يقول: عن أي شيء يتساءل هؤلاء الناس؟

ثم يجيب: إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم، والخبر الخطير الذي كان من حقه أن يبعث فيهم باعثة الحذر، والتأهب لدرء الخطر، ولكنهم شغلوا عن الجد بالهزل، فأخذوا يتبارون في التعقيب على هذا النبأ بمختلف الأساليبِ الساخرة كالذي تلتهم النار أطراف داره، وهو عنها لاهٍ في سمره مع أصحابه.

وكان من الحكمة والرحمة بهم أن يردعهم الله عن هذا الموقف الطائش، فقال: كلا ليس المجالُ مجالَ تساؤلٍ واختلافٍ؛ فإنه أمر واقع لا مردَّ له، واضح لا مريةَ فيه، ثم أنذرهم وهددهم بأن ما هم فيه اليوم من تردُّد وإنكار سيصبح يقينًا ومعاينة للحقائق، وإنهم سيعلمون غدًا جلية الأمر بعد البعث من حساب وجزاء.

ثم كان من مزيدِ رحمةِ الله بالعباد، أنَّ هذا الإنذار المؤكد لم يتركهم في غفلتهم عنه إلى أن يفاجئهم بوقوعه؛ بل طفق يقيمُ على صدقه الشواهدَ والدلائلَ ليعلموه علم اليقين قبل أن يروه عين اليقين، ففي الآيات التالية نرى القرآن الحكيم يسرد علينا من براهينِ قدرة الله، ودلائلِ حكمته، ومظاهرِ عنايته ما فيه مقنع لمن يبتغي الحق في شأن هذه النشأة الآخرة.

آيات الله في الكون والأنفس:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ: ٦- ١٦].

أخذت السورة الحكيمة توجِّه أنظارنا إلى آيات الله في الكون وفي أنفسنا، وبدأت بآياته في الأرض التي نسكنها، فجعلت تذكرنا كيف جعلها الله مهادًا وفراشًا وموطأ مهيأ للإقامة عليه، كمهد الطفل المعد لراحته، وكيف أرساها وثبتها

بالجبال، كما يثبت الفسطاط بالأوتاد؛ لكيلا تكون دائمة الاضطراب بما في جوفها من الموادّ الثائرة الفوارة، أو بما حولها وما فوقها من أمواج المحيطات والبحار.

ثم أخذت تلفتنا إلى النظر في أنفسنا، كيف خلقنا الله أزواجًا ذكورًا وإناثًا تلتحم بينهما آصرة المودة والرحمة، ويكون من ازدواجهما حفظ النوع بالتناسل؟! أو أزواجًا وأصنافًا تتمثل في مختلف القوى والمواهب النزاعات والملكات: البدنية والوجدانية والفكرية ليكمل بعضها بعضًا في إصلاح شؤون البشرية العامة والخاصة، أو أزواجًا على مناهجَ مختلفةٍ في الدين والخلق لتعرف قيمة كل بمقابله، وكيف جعل نومنا سباتًا؟!

راحة وَدَعَة نستعيد بها ما انتقصه العمل من قوتنا.

أو سباتًا: انقطاعًا عن العمل، وتعطلاً لحركة الحواس والعقول، وتمثيلاً لظاهرة الموت؛ فالنوم إحدى الموتتين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

ثم كيف جعل لنا الليل لباسًا يغطينا ويسترنا بظلمته كما يغطي الثوب لابسه ويستر عورته، ثم يعيننا على الهدوء والاستجمام، ويقينا من بلبلة الضوء وإزعاجه لأعصابنا، كما يقي الثوب لابسه من متقلبات الجو.

وكيف جعل لنا النهار معاشًا؛ حياة ويقظة في مقابله موتة النوم أو وقت تعيش وتقلب حوائجنا في مقابلة تعطيل النوم عن العمل.

التذكير بأنعم الله وآياته الكونية:

وتترقَّى السورةُ من هذا التذكير بأنعُمِ الله في أنفسنا وفي الأرض التي تقلنا فترفع أبصارنا إلى الآفاق العليا لتذكرنا بآيات الله وآلائه في السماء التي تظلنا كيف بناها طبقاتٍ سبعًا شدادًا، سويةً لا خللَ فيها، قويةً لا يؤثر فيها مرورُ الزمان،

وكيف جعل فيها سراجًا وهَّاجًا مصباحًا منيرًا شديدَ الإشراق حادًّا قويَّ الحرارة ذلك هو الشمس التي على حرارتها وضوئها تقومُ حياةُ الكائنات الحية ونموها وصلاحها.

وأخيرًا تختم هذه التنبيهات إلى آيات الله في الأرض وحدها وآياته في السماء وحدها بالآية التي تحصل من ازدواج السماء والأرض معًا، تلك هي آية إنزال الماء الثَّجَّاج المنصَبُّ المتابعِ الانصباب من المعصرات والسحب التي تنعصر منها الأمطار بتلقيح الرياح، وما ينشأ من نزول هذا الماء إلى الأرض من خروج الحب والنبات قُوتًا لنا ولأنعامنا، ومن خروج الجنات الألفاف والبساتين الملتفَّة الأشجار التي تجن سطح الأرض وتغطيه لتقارب أغصانها وطول أفنانها، تفكهة لنا وتكميلاً لمتعتنا بما لها من منظر بهيج وظل ظليل.

العلم بصحة البعث:

هذه كلُّها جوانبُ من صنع الله في أنفسنا وفي آفاقنا، مَن نَظَرَ فيها بعينِ الاعتبار وَجَدَ في كلِّ جانب منها دلالاتٍ ثلاثًا على صفاتِ الخالق العظيم، وانتقل من العلم بهذه الصفات إلى العلم بصحَّة البعث.

فاختراعُ الصنعة البديعة وإحكامُها برهانٌ على قدرة الصانع وعظمته، واستتباع هذه الصنعة لغاياتٍ جليلة، ومنافعَ جزيلةٍ، دليلٌ على سعة علم الصانع ودقيق حكمته، ومجيءُ هذه الغايات على وفق حاجات الإنسان ومصالحِه دليلٌ على مبلغ لطف الله بالإنسان وعنايته به، وكل واحدة من هذه الدلالات في الحال شاهدةٌ على نظيرتها في عالم الاستقبال؛ فإن من قَدَر على الإنشاء والإبداع، كان على الإعادة أقدرَ، ومن تحرَّى في كل جزئية من صنعته توصيلها إلى غاية معقولة وعاقبة ملائمة، ولم يتخذ شيئًا منها عبثًا وباطلاً إلى غاية أعلى وعاقبة أسمى.

ومن كان مبلغ لطفه بالإنسانية ورعايته لمصالحها على الحد الذي وصفنا، لا يُعقل أن يضيع عمل هذا الإنسان هباءً، فلا يقيم له وزنًا، ولا يمكن أن يسوِّيَ بين

إساءته وإحسانه، وهدايته وضلاله، كلَّا، إن سوابقَ العناية تدلُّ على لواحقها لا جرم كانت هذه النشأة للإنسان معبرةً حتمًا إلى أخرى يؤدي إليه فيها جزاء ما كسب أو اكتسب، على أن في بعض الجوانبِ التي تناولتها هذه الآياتُ الكريمةُ دلالةً رابعةً على أمر البعث وتحقق وقوعه، باعتبارها نموذجًا حاضرًا لحقيقة البعث المستقبلة، نعني بهذا الجانب العملي التجريبي ظاهرة اليقظة بعد النوم، وظاهرة إحياء الأرض بعد إنزال الماء عليها؛ فإن في كليهما حياةً ونشورًا بعد موت وجمود، ومن أجل ذلك تكرر الاستدلال بهما في القرآن الكريم.

شواهد البعث وأماراته:

تلك هي شواهدُ البعث وأماراتُه:

لكن متى تكون مشاهدته ومعاينته التي كرَّر الله الوعد بها في قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤﴾ [النبأ: ٤، ٥] بتحديد الموعد المضروب لهذه المعاينة.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ⑰ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ⑱ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ⑲ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ⑳﴾ [النبأ: ١٧ - ٢٠]، يقول: إن الموعد الذي حدَّده الله لإظهار هذه الحقائقِ، وجعله لها وقتًا لا تتقدم عنه ولا تتأخر هو نفسه اليوم الذي يكون فصل القضاء بين الخلائق، وتميز المُحِقّ منهم والمبطل، والمحسن والمسيء، فلن يكون بين الاطلاع على الوثائق وبين النطق بالحكم مهلة للتدارك، وإذًا فليس في العقول مسوغ لانتظار المعاينة، إنما العاقل من أعمل فكره، وأخذ حذره قبل حلول ذلك اليوم، ذلك يومٌ ينادي الله الخلائقَ كما ينادي قائدُ الجيش جنودَه للنفير بنفخة واحدة في بوق الإنذار، فإذا هم محتشدون كلٌّ في صفِّه وفي فرقته، كذلك إذا أراد الله جَمْعَ الخلق للحساب ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ⑲﴾ [الصافات: ١٩] يقول: ﴿كُن﴾، فإذا هم يأتون أفواجًا جماعاتٍ وطوائفَ، كلُّ أُمَّة بإمامها، وكل شكل منحاز إلى شكله، فيرون ويا لهول ما يرون، العالم علويه وسفليه، قد تنكرت معالمُه؛ فلا السماءُ هي السماء المحكمة المتماسكة، ولا الجبال هي الجبال الراسخة الراسية، أما السماء فقد تشققت



وبدَتْ فيها الخلال الكبيرة، والثغرات العظيمة، حتى أصبحت كأنها كلها أبواب، وأما الجبال فقد نسفت وسيرت في الهواء، فصارت غبارًا متكاثفًا كالعهن أو كالهباء أو كالسراب؛ بمعنى أن الذي ينظر إليها من بعيد يرى صورة الجبال ولا جبالَ، كالسراب الذي ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

أحوال الأشقياء.. وأحوال السعداء:

هذا كله تصويرٌ لشيء من الأهوال الرهيبة والأحوال العالمية العجيبة التي تقع في يوم فصل القضاء، أما الفصل نفسه والنتائج التي يسفر عنها فتعرضه الآيات التالية في لوحتين: لوحةٍ تصور أحوال الأشقياء، ولوحةٍ تصور أحوال السعداء:

اللوحة الأولى: تبدو هكذا: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٢١- ٣٠].

هذه هي صورة دار العذاب، -جهنم نجانا الله من عذابها-، فقد جعلها الله وردًا موردًا للخلق أجمعين، برِّهم وفاجِرِهم كما قال -تعالى- في سورة مريم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وجعلها في الوقت نفسه مرصادًا مكان رصد أو آلة رصد أو ذات رصد ترصُد الناس وترقبهم لتميز شقيَّهم من سعيدِهم، فعند بابها مفترق الطرق إلى النعيم أو العذاب، فأما المتقون فيأخذون عندها جواز مرورهم إلى الجنة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، أما الظالمون فيحجزون عندها ليقذف بهم في هاويتها، فتكون لهم دارَ قرارٍ للطاغين مآبًا ومأوًى ومرجعًا؛ كأنما هي وطنهم الذي رجعوا إليه من سفرهم، وهذا التقسيم الذي ذكر هنا مفرقًا جيء به مجتمعًا في سورة مريم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]، فإذا دخلها الظالمون لبثوا فيها وأقاموا أحقابًا ودهورًا طوالاً، كلما مضى حقب تلاه حقب، لا يجدون فيها فترة من الراحة، ولا يذوقون فيها البرد إلا غساقًا، زمهريرًا نفاذًا كالسيل المندفع لا يطاق برده، فمزق أوصالهم، ولا يذوقون فيها الشراب إلا حميمًا لا يطاق حره، فقطع

أمعاءهم؛ جزاءً وفاقًا مطابقًا لسوء أعمالهم، فقد جاءوا بأسوأ السيئات؛ إذ كفروا بالله، فكانوا لا يؤمنون بلقائه، ولا يخافون حسابه، ولما جاءتهم آياتُ الله وحججُه، كذبوا بها كِذَّابًا؛ تكذيبًا شديدًا، ذلك وقد أحصى اللهُ أعمالَهم وسجَّلها كتابُه، كما أحصى كلَّ شيء فهو عنده في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى، فلن يضيع عنده عملُ عاملٍ ولو كان مثقالَ ذرَّة من خيرٍ أو شر!!

وتختم هذه اللوحة بأشدِّ آيةٍ نزلت في الانتقام من الطاغين، آيةٍ يتراءى لنا من خلالها صورةُ المعذبين وهم يستغيثون، فلا تجابُ استغاثتهم إلا بعكسها كلما استغاثوا من لون أُغيثوا بأشدَّ منه، وقيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، وهي زيادة لن نراها إلا ضرورية في الحكمة العليا، لإيقاظ شعورهم بما هم فيه، فإن من تعود درجة واحدة من اللذة أو الألم، وطال عليه أمدها، ضعف إحساسه بها، وصار تجدد شعوره مستوجبًا لنوع جديد، أو مقدار مزيد، كما أشار إليه القرآن الحكيم في موضع آخر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] نعوذ برضوان الله من سخطه، وبرحمته من سوء عقابه.

واللوحة الثانية تبدو هكذا:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٨].

هذه صورة دار الكرامة التي وُعِد المتقون، فقد جعلها الله لهم مفازًا، دار نجاة من المخاوف، وظفر بالمطالب، جمع لهم فيها أنواع المتاع الحسي، والمتاع الروحي: المسكن الجميل، والقرين الأليف، والشراب الهنيء، والمجتمع المهذب.. المسكن جميل، في الحدائق، وهي البساتين المسورة فيها مختلف الأشجار والكروم، والقرينات أليفات، في سن واحدة من الشباب الناضج، أترابًا في أنفسهن ولأزواجهن، ليتم بينهما الامتزاج النفسي بتناسب الأذواق، وتشابه المنازع والميول،



والشراب شهي في الأقداح البلورية المترعة المملوءة، ثم المجتمع كله مجتمع مثالي، لا لغو فيه ولا فضول، ولا تناقض فيه ولا تكاذب.

جزاهم الله ذلك كله بما جزاء بما أحسنوا في هذه الدنيا، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

غير أن هذا الجزاء إذا قسناه إلى العمل لا نراه في القياس مثل جزاء الطاغين؛ فجزاء الطاغين كان جزاءً وفاقًا أي مساويًا لأعمالهم؛ لأن عدل الله لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، أما جزاء المتقين فإن (جزاء) و(عطاء) جزاء هو أجر على عمل، وعطاء وهو علاوة فوق أجر العمل؛ لأن فضل الله يجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله من الأضعاف المضاعفة، وكان جزاء الظالمين مقيسًا إلى ما ارتكبوا من عمل، أما جزاء المتقين فإنه يقاس إلى ما لهم من رغبة، وما عندهم من أمل، فيعطيهم الله من ذلك ما يحقق آمالهم، وما هو حسبهم وكفاية رغائبهم عطاء حسابا، وأي شيء يمنع الله من ذلك، وهو رب السماوات والأرض وما بينهما، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وهو (الرحمن) وصفته الرحمة يختص بها من يشاء؟! ليس لأهل السماوات ولا أهل الأرض أن يعترضوا عليه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [النبأ: ٣٧]، فضلاً عن أن يملكوا ردًّا لقضائه، أو إغلاقًا لخزائن نعمائه، وكيف يملك أحد منهم هذه المعارضة في يوم الفصل، في حين أن الروح الأمين (جبريل) وسائر الملائكة يقفون يومئذ صفًّا، صافين أقدامهم، خاشعة أصواتهم، لا يتكلمون إل من أذن الرحمن له بالكلام، ونطق بالحق والصواب؟!!

عبرة السورة ومغزاها:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٣٩-٤٠].

هذه هي عبرة السورة ومغزاها، والنتيجة المنطقية التي تنتهي إليها مقدماتها، أنبأتنا السورة بنبئها العظيم عن يوم البعث، ثم بسطت لنا دلائلَه وشواهدَه، ثم

جعلته هو يوم الفصل وتقرير المصير، ثم صورت هذا المصير الأخير في صورتيه المتقابلتين: نعيم خالص دائم، أو شقاء خالص دائم.

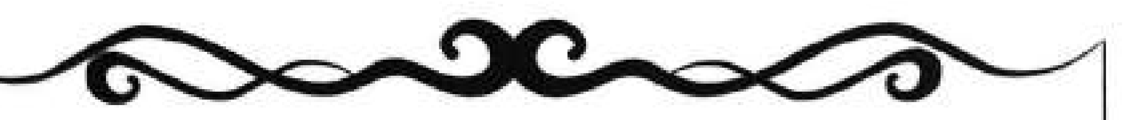
فإذا كان هذا هو شأن ذلك اليوم، فهو وحده اليوم الحق، وكل الأيام بالقياس إليه سراب باطل، وظل زائل، ما أقصر أيام الدنيا إذًا ولو طالت، وما أهون لذائذها وآلامها وإن عظمت، فالعاقل الحذر البعيد النظر هو الذي يعمل لهذا اليوم الأكبر ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩] استعد للقائه، وتأهب لحسن القدوم عليه، فتزود بزاد الإيمان، وتحلَّى بلباس التقوى.

وهنا تتوجَّه الرحمة الإلهية إلى الناس جميعًا، فتبث إليهم إنذارها الأخير بالعذاب المنتظر، وذلك ليُقبل منهم المدبر، ويجدّ المقصر، ويُقلع المسيء عن إساءته، ويزداد المحسن من إحسانه، وتسمي الآيات هذا العذاب قريبًا، وإن كان الغافل يراه بعيدًا؛ ذلك لأن كلَّ طويل عند النهاية يتقاصر، وكلَّ بعيد عند بلوغ أجله يتقارب.. ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧].

يومئذ ينسى سابق النعيم، وينطوي مديد زمانه، ويرى الناس ما مضى عنه كأنه فترة أحلام ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ذلك يوم ينظر المرء ما قدمت يداه.. يوم يقرأُ كلُّ امرئ كتابَ عمله، ويحاسبُ كلُّ امرئٍ نفسَه. ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ يتمنى لو كان قد بقي في الدنيا ترابًا، ولم يُخلَق إنسانًا، أو يودُّ لو أنه بعد البعث عاد ترابًا لكيلا يحس بهول ما يرى، وشدَّة ما يلقى.

فهل بقيت لأحد على الله حُجَّةٌ؟ لقد أعذر من أنذر!!

* * *



القسم العاشر

سورة التكوير

والحديث عن أركان الإيمان

١ - ربط سورة التكوير بسورة النبأ.

٢- الحديث عن ركن البعث.

٣- الحديث عن ركن الرسالة.

- ما منطوق هذه الشهادة؟
- الرد على المكذبين لرسالة الرسول ﷺ.
- إعلان النتيجة في شأن الوحي.

نور من سورة التكوير
الحديث عن أركان الإيمان
ركن البعث.. وركن الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١- ربط سورة التكوير بسورة النبأ:

كان ختام السورة السابقة (سورة النبأ) إنذارًا شديدًا بيوم، أوله فزع، يفر المرء من أقرب الناس إليه، وآخره إما مسرة تبيض منها وجوه، وإما حسرة تكفهر منها وجوه.

وكان من شأن هذا الإنذار المزدوج أن يثير سؤالاً مزدوجًا عن كُنْه الحادث الجلل الذي يورث الناس هذا الذهول عند الصدمة الأولى، وسؤالاً عن سر هذا الفرح أو الحزن البادي على الوجوه بعد ذلك.

فجاء صدر سورة التكوير عن هذين السؤالين في جملة واحدة تتألف من أربع عشرة آية قصيرة:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير: ١-١٤].

فالآيات كلها ما عدا الأخيرة، تفصل كما ترى أسباب الروع والفزع في سلسلة متلاحقة من الانقلابات التي تطوي بها صحيفة الكون وتتنكر معالمه، وتتبدل أرضه



وسماؤه غير أرضه وسمائه.

والآية الأخيرة تبرز سر الفرح أو الحزن الذي يتلو ذلك الفزع، حين يقرأ كل امرئ كتابه ويعرف حسابه ويطلع على مصيره الأخير.

فلله ما أعظم هول الساعة وما أعظم وما أشد كربتها، ثم ما أخطر النتائج التي تسفر عنها حين تنجلي غمرتها.

وأنت ترى الناس اليوم، فتراهم يمشون في الأرض مطمئنين إلى سير الحياة على نهج مستمر وفي نظام مستقر، فما دامت الشمس تطلع عليهم كل يوم بضوئها ودفئها، وما دامت النجوم تتلوها كل ليلة بزينتها وهدايتها، وما دامت الجبال راسية أمامهم في أماكنها، تراهم لا يفكرون في مكان تغير هذه الأوضاع، بل تراهم متكئين على فرش من الأمن الكاذب والأمل الخادع في أن هذا العالم ليس له من زوال، وأنه لن يكون هناك عالم جديد تتبدل فيه الأحوال وتعرض فيه الأعمال.

الحديث عن ركن البعث:

بل ستقع الواقعة، وتشتد الفاجعة، إذا أصبحوا وكل شيء في الوجود عاليه وسفليه، قد انقلب ميزانه، وانفراط عقد نظامه، إذا الشمس كورت، طوى بعضها على بعض، أو رمي بها كما يرمي الثوب الخرق، وإذا النجوم انكدرت وطمست وتبدل صفاؤها كدرًا، أو صارت تتهاوى وتتساقط كما تتساقط الطيور الجارحة على فريستها، وإذا الجبال سُيِّرَت صارت هباء وجعلت تمر مر السحاب.. ترى هل يقع هذا الانقلاب في السماء والأرض دون أن يحدث في النفوس رجفة عنيفة تأخذ الناس عن أنفسهم، وتلهيهم عن كل شئونهم، هكذا يصوِّر القرآن الناس ذهلوا يومئذ عن كل حاجاتهم، حتى العشار وهي من أكرم الأموال وأنفسها، قد عطلت وأهمل أمرها وضيعت؛ لأن الناس عنها في شغل بما دهمهم..

ويمتد هذا الفزع الأكبر إلى سائر أنواع الحيوان، حتى الوحوش حشرت، جمع

بعضها إلى بعض، ساقها الهول إلى الهروب التماسًا للمأوى أو الغذاء، أو جعلت تختلط بالناس ذاهلة عن حاجتها وعما فيها من طبع الافتراس، ثم يكون الطوفان فصل الختام، حيث تكون البحار قد سُجِّرت: ملئت حتى تفيض لتغرق اليابسة، أو أحميت فصارت حميًا لتجمع على الناس خطرين؛ خطر الغرق وخطر الحرق.

حلقات متواصلة من عوامل التدمير للعالم القديم، تتبعها حلقات من أعمال البناء والإنشاء للعالم الحديث، فالموتى يقومون من قبورهم وقد زُوِّجت نفوسهم إلى أبدانهم، أو جمع كل شكل منهم إلى شكله على حسب أعمالهم واعتقاداتهم، وأخذ كل منهم يسأل عن شأنه، ويستشهد المظلوم منهم على ظالمه، حتى الموءودة سُئلت بأي ذنب قُتلت، تبكيتًا وتنديمًا لقاتلها، فإذا لم يعترف بلسانه شهدت عليه معالم جريمته، بل شهد على كل عامل سجل أعماله؛ إذ نشرت يومئذ صحائف بعد أن كانت قد طُويت عند موته، ثم رفع الحجاب وكشف الغطاء، إذ كشطت السماء كما يكشط الجلد عن الذبيحة فبدا ما فوقها من الملأ الأعلى، وبرزت العوالم الغيبية فأصبحت من عالم الشهادة وهيئت منازل الجزاء على اختلافها، فالجحيم قد سُعِّرت في إيقادها استعدادًا للظالمين والجنة قد أزلفت وأُدنيت وقربت للمتقين.

هنالك، وهنالك فقط تعلم كل نفس ما أحضرت، تعرض الأعمال على أصحابها فتجد كل نفس ما يسرها أو يسوؤها.

تالله إن في هذا التوقيت والتحديد لإنذارًا يقطع أعذار المسوِّفين، معناه أنه لن ينكشف الغطاء عن هذه المسؤوليات وآثارها إلا وقد فات الأوان، وتغير الزمان والمكان، وزالت أسباب الإمكان فمن أراد أن يحاسب نفسه فليحاسبها إذن منذ اليوم قبل أن تكون نشأة أخرى بها ينقطع خط الرجعة ولا يبقى معها مجال للتدارك ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

لا ريب أنه نبأ خطير، ولكن أحق هو؟ أهذا العالم حقًا نهاية؟

أسوف تكون بعد الموت حياة، وبعد الحياة حساب وجزاء، وبعد الفناء بقاء، أم هل عسى أن تكون هذه الصورة العجيبة التي رسمتها الآيات شيئًا من نسج الخيال، أو من وحي الشياطين؟

وساوس تعتلج في صدر الغافلين المترفين فتجعلهم من أمر البعث بل من أمر القرآن الكريم كله، بل من أمر الوحي جملة، في شك مريب.

من أجل ذلك القرآن الكريم يدعم حديثه هذا بضروب في البيان والتقرير من شأنها أن ترد إلى النفوس طمأنينتها وثقتها به، وأن تزيح عنها غبار الارتياب فيه.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ١٥-٢٩].

بدأت الآيات تحقيقها لهذا النبأ العظيم، بلون طريف من التأكيد يشبه القسم وليس بقسم، إن فيه مادة المقسم به، والمقسم عليه، ولكنه يؤخر النطق بصيغة القسم ريثما تمس الحاجة إليه، مثل ذلك مثل من يحضر العدول على دعواه ويلوح أمام خصمه بأنهم على قدم الاستعداد لأداء الشهادة، ولكنه لا يدعوهم من فوره لأدائها، اكتفاء بوقع هذا التلويح وأثره الإقناعي في نفس الخصم، كأن الأمر بعد حضور الشهود أصبح من الوضوح بحيث لا حاجة إلى سماع نص الشهادة منهم.. حتى إذا لجَّ الخصم في خصومته مرة ومرة، كان من الحكمة استنطاقهم بالشهادة هكذا نسمع القرآن تارة يقول: «لا أقسم» وتارة، يصرح بصيغة القسم، تبعًا لاختلاف مواقف المكذبين في العلانية والمخاشنة أو في الإطماع والإياس.

وكل أقسام القرآن منشورة كانت أو مطوية إنما هي استشهادات بحق على حق، وأكثرها استشهاد بالحقائق الحسية المسلمة على الحقائق الغيبية المتنازع فيها.

وقد اختيرت الشواهد الحسية هنا من أقرب الحقائق دلالة على الحقيقة الغيبية



المشهود عليها أنها شهادة بنور على نور شهادة من فلق الصبح على أحقية الوحي الذي جاء في وضح النهار وكان كفلق الصبح، كلا النورين منحة من فالق الإصباح فمن كان في شك من ثانيهما فليعتز بأولهما، فإن الذي أنار الأشباح هو الذي ينير الأرواح.

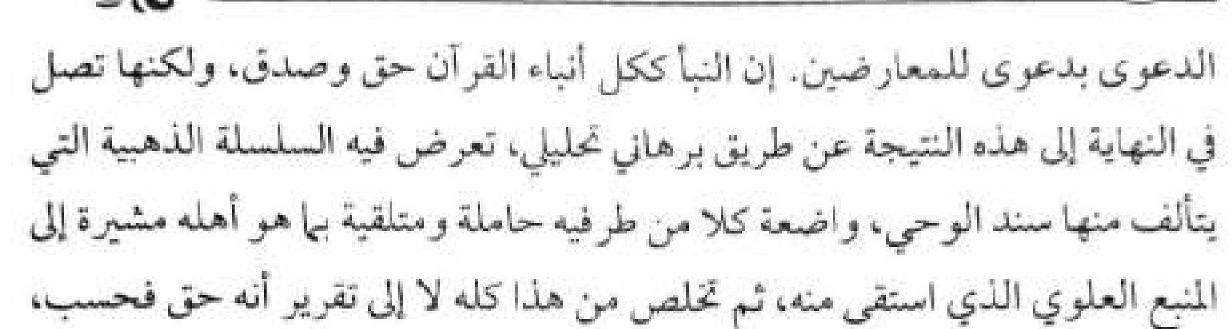
كيف عبر القرآن هنا عن فلق الصبح؟

إن لجمال الفجر لسحرًا أنطق الشعراء والحكماء واستوقف العابدين والمحبين وطالما فُتن هؤلاء وهؤلاء في تصويره.. ولكن اللوحة التي رسمتها الآيات هنا لا تعادلها لوحة أخرى في القرآن كله. إنها لوحة مؤلفة من أربعة مناظر، كل منظر منها يتألف من عدة صور حيوية متحركة.

فانظر كيف صورت النجوم وهي يتناقص عددها في آخر الليل رويدًا رويدًا، في صورة قطيع من الظباء كانت منتفشة في مرعاها، وما هو إلا أن لمحت قانصها فإذا هي تخنس أو تنكص راجعة القهقرى من أمامه، ثم تجري هاربة حتى تدخل في كناسها وخبائها، وهل كناس النجوم إلا ضوء النهار تستتر به عن أعين الناظرين؟ ثم انظر كيف صورت سواد الليل وهو يتقلص في وقت السحر شيئًا فشيئًا في صورة غطاء ثقيل كان يغشى الخليقة ويكتم أنفاسها فجعل ينزاح عنها قليلاً، وطفقت هي تتخلص منه كما يتخلص المكروب المكبوت من حجاب كان قد وضع على فمه، وهكذا أخذ يتنفس مرسلاً نسيمه العليل، كأنما وجد راحة وفرجًا من كربته، حقًّا إنها الآية من آيات الجمال والجلال فتبارك الخلاق المصور، هذا نور العيون والأبصار جيء به هنا شاهدًا على أخيه نور القلوب والبصائر والعلم والهدى الذي انطوى عليه القرآن، ولا سيما أنباء الساعة التي صدرت بها السورة وقد أعيدت الشهادة في صيغة التأكيد المكرر بإن وباللام ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩].. الآيات.

من منطوق هذه الشهادة؟

إنها ليست شهادة مجملة مجردة ولكنها شهادة مفصلة مبرهنة، إنها لا تقابل



الدعوى بدعوى للمعارضين. إن النبأ ككل أنباء القرآن حق وصدق، ولكنها تصل في النهاية إلى هذه النتيجة عن طريق برهاني تحليلي، تعرض فيه السلسلة الذهبية التي يتألف منها سند الوحي، واضعة كلا من طرفيه حاملة ومتلقية بما هو أهله مشيرة إلى المنبع العلوي الذي استقى منه، ثم تخلص من هذا كله لا إلى تقرير أنه حق فحسب، بل إنه أسمى الحقائق وأعمها نفعًا، إنه ذكر للعالمين.

تبدأ الشهادة بذكر حامل الوحي وهو الرسول الملكي الكريم جبريل -عليه السلام-، فتشهد له بخمس خصال: «الكرم، القوة، المكانة، والرياسة المطاعة في الملأ الأعلى، وأخيرًا الأمانة».

تقول إنه:

١- رسول كريم العنصر، طيب المحتد، فلا يأمر إلا بخير ولا يقول إلا الحق والعدل، ثم:

٢- هو ذو قوة يستطيع بها أن يحمل أعباء الوحي ويصون رسالته من تخليط الشياطين وتلبيسهم وزيادتهم أو نقصهم، ثم:

٣- هو عند ذي العرش مكين، ذو مكانة عند الله، فهو قريب من منبع الوحي، ذو اتصال يستقي أنباءه من مصدرها الأصيل، ثم:

٤- هو فوق ذلك مطاع في الملأ الأعلى، ومعنى هذا أنه ليس واحدًا من عامة الملائكة المقربين حول العرش، بل هو رئيسهم، فلا يتلقى عن أحد منهم، ومعنى هذا أيضًا في لغة فن الرواية أن السند ليس متصلاً وكفى، بل هو سند عال بل غاية في العلو.

٥- وهو بعد ذلك كله أمين لا يخون ولا يكذب ولا يلبس، فهو متى حمل الأمانة أداها على وجهها.. ولعمري لقد كان حسبه من الأوصاف أن يكون قويًا أمينًا ليكون أهلاً لحمل رسالة صادقة، ولكن رسالة القرآن الكريم

بلغت من علو المكانة ونباهة الشأن أنه لا يكتفي لها القوي الأمين، بل ينبغي أن يعهد بها إلى كبير السفراء وأقربهم مكانة من ذي العرش.. هكذا كان التنويه بشأن الرسول الملكي تنويهًا بالرسالة نفسها ثم هو في الوقت نفسه تنويهٌ بشأن الرسول البشري ﷺ الذي تلقى الوحي، فإنه ليس واحدًا أخرجت للناس، فلا ينبغي أن يرسل إلى هذا الزعيم إلا زعيم يناسبه. وما منا إلا له مقام معلوم، بل الأمة المحمدية نفسها قد اقتبست شيئًا من هذا الشرف العظيم، فلله الحمد لا نحصي ثناءً عليه.

الرد على المكذبين لرسالة الرسول ﷺ:

وتنتقل الآيات الكريمة إلى الحلقة الثانية من السلسلة الذهبية أعني الرسول البشري محمد بن عبد الله -عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام-، فتشهد له بأربع خلال: العقل والتثبت والأمانة، والتنزه عن الأغراض العاجلة.

أما العقل فقد أفصحت عنه في أسلوب متواضع، وهو في تواضع قارص لاذع ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]؛ ذلك أنه لم تكن ثمة حاجة إلى تعريفهم برجاحة عقله ووفرة حلمه، وهو صاحبهم الذي طالت صحبتهم به، ولكنهم لما كذَّبوه في دعواه رؤية الملك، وزعموا أنه عسى أن يكون قد اختلط عليه الأمر فتخيل خيالاً سماه ملكًا، وما هو بملك، كشفت الآية عما ينطوي عليه هذا التكذيب من اتهامه بالعته وفساد العقل والذي هو أبعد الأشياء عن صفاته التي استيقنوها منه، وهكذا أبرزت المناقضة والمفارقة بين قضية معرفتهم ومضمون اتهامهم له، فكانت تعريضًا لاذعًا بسفاهتهم في هذه اللجاجة.

وإن كانوا لم يريدوا التكذيب اتهامًا له في كمال عقله، ولكن تشكيكًا في سلامة حواسه إذ ذاك وفي مدى قرب الهدف منه ووضوحه في سائر الظروف الزمانية والمكانية التي ترتبط بتثبته من المرئي، فقد جاءت الآية التالية مزيلة لكل لبس من هذه الناحية أيضًا ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ رآه رأي العين جهارًا نهارًا في تثبت تام،



ومعاينة كاملة، وهكذا وقع الوصف في الآية السابقة موقع قوله -تعالى- في سورة النجم: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ووقع الوصف في هذه الآية موقع قوله هناك: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] لا خطأ إذا في الحسّ، ولا خلل في الفكر، بل القلب يَقِظ والبصر حديد، فلا مغمز في شهادته لا في عقله ولا من قبل حسه.

لكن بقي لتكذيبهم تفسير آخر، وهو أن يكون طعنًا في خُلقه من حيث الصدق والأمانة، ذلك أن الذي يكذب في دعوى الرؤية العجيبة، إما أن يكون معذورًا بما عسى أن يكون عليه من اضطراب نفسي أو لبس طبيعي، وإما أن يكون قاصدًا متعمدًا للكذب، وقد بينت الآيتان السابقتان بطلان الشق الأول بطرفيه، فجاءت الآية اللاحقة تبرئ الرسول ﷺ لا من صميم الكذب فحسب، بل من كل ريبة تبرز اتهامه به وما هو على الغيب بظنين(١)، ما مثل محمد مَن يتهم في أخباره عن الله، فالرجل الذي يتحرى أصدق الحديث في شؤون الناس وفي عالم الشهادة ليس من شأنه أنه يحوم حوله شك حين يخبر بأخبار الغيب عن الله، فإنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

هكذا تمت له الخلال الثلاث: العقل، والتثبيت، والأمانة.

أما الخصلة الرابعة وهي إخلاصه في نشر دعوته وتجرده من الغرض فيها، فقد شهدت بها القراءة الأخرى وما هو على الغيب بضنين، ليس من شيمته البخل بعلوم الوحي والحرص عليها انتظارًا لأجر مادي أو أدبي كما يفعل المنجمون والعرافون والمتعاطون لعلوم الدين، بل هو على العكس حريص على نشرها باذل أقصى جهده في هادية البشر بها، ولا شك أن هذا الانبعاث البليغ النزيه هو طابع الرسالات الحقة، فإن أصحاب هذه الرسالات ينسون أنفسهم في خدمة الأمم وإصلاح المجتمعات البشرية ولا يبغون من ورائها جاهًا ولا مالاً على أن تبلغ الرسالة من فورها وعدم كتمانها والتلبث بها ريثما تنجلي الأمور خوف أن تجيء

---

(١) بظنين: من الظنة بمعنى التهمة، أي بمتهم.

الأيام بما يكذبها أو يناقضها، دليل آخر على أن صاحبها قد ملأ يديه منها أمنًا وثقة، وإنها حقًّا رسالة السماء، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وهكذا اجتمع لمحمد ﷺ الكمال الذاتي كله، سلامة العقل، وصفاء الحس، واستقامة الخلق ونزاهة الضمير وعلم اليقين.

إعلان النتيجة في شأن الوحي:

والآن تم التعريف بطرفي السلسلة الذهبية التي عبر عليها الوحي إلينا من خبير حفيظ صادق أمين إلى حكيم واع نزيه مؤمن أمين.. ولم يبقَ بعد انتظام هاتين المقدمتين في سند الوحي إلا إعلان النتيجة في شأن الوحي نفسه إنه إذًا خبر الصادقين ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: ٢٥].

أليست الشجرة تعرف من ثمرتها؟ فلئن كان قد غاب عنا من شجرة الوحي جذورها ومنبتها فلقد رأينا ثمراتها، وهي تخرج من أكمامها في هالة من النور وثوب من الطهر تهدي إلى الحق، وتأمر بكل خير وجميل مُغل[1] للشاكين والمتشككين، هل يستوي البر والإثم والأبرار والفجار؟ هل يستوي وحي الرحمن ونزغ الشيطان؟ هل يستوي من يأمر بالعدل والإحسان ومن لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء؟ فأين تذهبون عن هذا النور المبين والنهج المستقيم؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأخيرًا تترقى الآيات في التنويه بشأن هذا الوحي القرآني، فلا تكتفي بأنه حق، صادر من حق، بل تشيد بهدايته الشاملة، ورسالته العالمية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تذكرة للخلق أجمعين، يذكرهم بالله وصفاته وبالكون وعلومه وآياته وبسنة الله في أوليائه وبدروس التاريخ وعِبَره، وباليوم الآخر وأحواله وأهواله، يذكرهم بالأمة وواجباتها في طوري سلمها وحربها، وبالأسرة وحقوقها في حالي التحامها وانفصامها، يذكرهم بالنفوس وما يصلحها ويزكيها وما يُفسِدها ويدسيها، يذكرهم بكسب لكل ما يصلح شأنهم في معاشهم ومعادهم فلا يترك سبيل خير إلا

---

(١) مغل: مفحم.

وصفه ودلَّ عليه، ولا طريق شر إلا حذر منه ونبَّه إليه.

نعم إنه ذكر للعالمين، ولكن هل كل من ذكر تذكر، وكل من دُعي لبي، كلا إنه ذكر للعالمين توجيهًا ودعاء، أما تلبية واستجابة فإنه ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم فهؤلاء هم الذين تنفعهم الذكرى وتنجع فيهم الموعظة، هو للعالمين ذكر واحد، ذكر تذكرة وتبصرة، أما للمستجيبين فهو ذكران اثنان؛ ذكر تذكرة وتبصرة، وذكر رفعة ونباهة شأن ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

تناولت السورة إلى هذا الحد ركنين عظيمين من أركان الإيمان؛ ركن البعث وركن الرسالة، ولكنها لا تريد أن تودع القارئ قبل أن ترقى به إلى الحقيقة الثالثة الكبرى عقيدة الإلوهية العظمى، فهاهي ذي تجعلها مسك الختام وتجيء بها في أمس أوقات الحاجة إليها. ذلك أن تعليق الانتفاع بالذكرى على مشيئة من شاء منا أن يستقيم، كان ربما يوحي إلى النفوس شيئًا من الغرور فتحسب أن أمرها كله موكولٌ إليها، وأن لها الخيرة كل الخيرة في سلوك سبيل التقوى وسبيل الفجور، ولو مراغمة لمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

حقيقة ناصعة لا يكابر فيها أحدٌ ممن يؤمن بالله ولا يشرك به شيئًا.

ومهما تختلف وجهات النظر في مسألة القضاء والقدر، ومهما نأخذ بأوسع معاني الحرية الممنوحة للإنسان، فإنه لا مفرَّ من التسليم بأن مشيئة العبد تابعةٌ لمشيئة الرب وإن لهذه التبعية مظاهر كثيرةٌ إيجابية وسلبية، وأدنى هذه المظاهر تتمثل في أن إرادتنا لا تركن إلى فعل أو ترك دون أن يمكن الله لها من هذا الركون ويخلي لها طريقه وأنه لا يعقل أن تسلك مسلكها كفاحًا وغلابًا لمشيئة الله وإلا لانقلبت أوضاع العبودية والربوبية، فصدق الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

***

الفهرس



***

قالوا عن د. محمد عبد الله دراز:

«لولا أن الرجل حافظ فاقه لكتاب الله، وضليع مكين في آداب العربية، وعابد مُخبت تكشفت أمام بصيرته النيرة الحِكَم البالغات التي غابت عن غيره ما استطاع أن يصور لنا خصائص الإعجاز القرآني ويجعلها منا رأي العين...».

الشيخ/ محمد الغزالي

«يمثل الاتزان المتزن والخُلق الكريم، ثقَّف نفسه كأحسن ما تكون الثقافة، آراؤه موفقة، يتدفق أسلوبه في البيان عذباً شهيّاً لا يمل».

الإمام الراحل الدكتور/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق

«عالم تقي عميق النظرة، صادق الإيمان، ثَبْت في علمه، قويّ في تدينه، آتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام، فكان فيها العَلَم الذي يُشار إليه، وأوتيَ مثل هذا الحظ من علم أوروبا، فكان العالم بما عند الأوروبيين، وما طغى في قلبه علم هذه الدنيا على علم الإسلام، ولا تلك الحضارة البراقة على حقيقة الإيمان، وما بَهَرَته زخارف هذه المدنية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية، ولا عن تلك الذخيرة الإنسانية التي اشتملت عليها أحكام القرآن المقرَّرة الثابتة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة».

الإمام الفقيه/ محمد أبو زهرة



mofakroun@gmail.com
www.mofakroun.com

